النص الكامل

الطبعة القانونية الأولى والوحيدة باللغة العربية

أغاثا كريستي

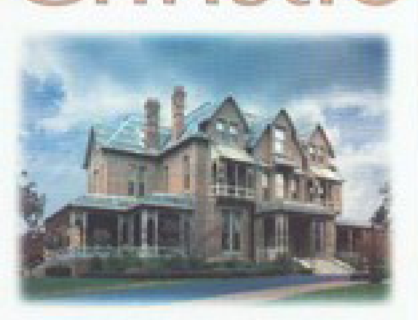
جَريمَة العيد








Agatha Christie



Hercule Poirot's Christmas

POIROT

هيركيول بوارو







رقم هذه الرواية حسب ترتيب صدور الروايات بالإنكليزية

الناشر وصاحب الحق الحصري بالطبعة العربية في جميع أنحاء العالم



الأجيال للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

جَريمَة العيد

إنها ليلة عيد الميلاد، وقد اجتمع أفراد عائلة «لي» بعد طول تفرّق. غير أن هذا الاجتماع ما يلبث أن يتكدّر حين يسمع المجتمِعون صوتَ صرخة فظيعة، ثم ما يلبثون أن يعثروا على الرجل وسط بركة من الدماء!

لكن حين يأتي بوارو للتحقيق والبحث لا يجد جوّاً من الحزن، بل جوّاً من الشك المتبادَل. ثم يكتشف أن كل واحد من الموجودين كان يمتلك سبباً كافياً ليكره الرجل القتيل ويتمنى موته!

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيثُ انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفَي مليون نسخة!



الفصل الأول

الثاني والعشرون من كانون الأول

رفع ستيفن ياقة معطفه وهو يسير بخفة على الرصيف. كان الضباب المعتم فوقه يغطي محطة القطارات، فيما تهدر أصوات المحركات الضخمة نافثة سحباً من الدخان في الهواء البارد النقي. كان كل شيء قذراً ملوثاً بالسخام.

فكر ستيفن مشمئزاً: يا لها من بلاد قذرة.. يا لها من مدينة قذرة!

لقد تلاشى انطباعه المعجب الأول عن لندن، بمحلاتها ومطاعمها وأناقة ساكنيها، ورأى ذلك كله الآن كحجر لامع من الألماس الزائف رُكّب على خاتم صدئ قذر.

ماذا لو عاد الآن إلى جنوب أفريقيا؟ أحس بوخزة سريعة من الحنين إلى الوطن. هناك حيث أشعة الشمس والسماء الزرقاء وحدائق الزهور. أزهار زرقاء رائعة... أسيجة شجرية بالغة الجمال... واللبلاب الأزرق العالق بكل كوخ صغير.

أما هنا؛ فلا شيء غير القذارة والسخام والأكوام البشرية

التي لا تنتهي، تتحرك وتسرع وتتدافع. مملكة نمل مشغولة تكدح وتتراكض حول بيتها.

فكر لحظة مع نفسه قائلاً: "ليتني لم آت..."، ثم تذكر غرضه فتراجعت شفتاه لتبديا تجهماً. كلا، سوف يستمر في هذا الأمر! لقد خطط لذلك منذ سنوات، وكان يعتزم دائماً أن يفعل ما هو ذاهب لفعله. نعم، سوف يمضي في هذا الأمر!

لم يكن ذلك التردد القصير وذلك التساؤل المفاجئ الذي سأله لنفسه: "لماذا؟ هل يستحق الأمر ذلك؟ لماذا أعيش على الماضي؟ لماذا لا أنسى الأمر كله؟"... لم يكن ذلك كله إلاّ ضعفاً. إنه ليس غلاماً غراً حتى يغيّر تفكيره كل يوم بسبب نزوة عابرة. إنه رجل في الأربعين واثق من نفسه ويعرف ماذا يريد. سيمضي في هذا الأمر، وسيقوم بما جاء إلى إنكلترا لفعله.

دخل القطار وسار في الممر يبحث عن مقعد. كان قد رفض أن يحمل له الحمال حقيبته الجلدية ومضى يحملها بنفسه وينظر من مقصورة إلى أخرى. وكان القطار مليئاً، إذ لم يبق إلا ثلاثة أيام ويأتي عيد الميلاد. نظر ستيفن فَارْ إلى المقصورات المزدحمة باستياء: أناس! أناس لا يُعدّون ولا يحصون! وكلهم ذوو وجوه... كيف يصفها؟ مملة! وجوه متشابهة، متشابهة بشكل فظيع! رأى أن وجوه أولئك الناس وهم يثرثرون ويجادلون تشبه وجوه الأرانب، وبعض من الرجال الكهول كان ينخر أشبه بالخنازير. حتى الفتيات النحيلات ذوات الوجوه البيضاوية والشفاه القرمزية ظهرن متماثلات إلى حد يقبض الصدر.

فكر -باشتياق مفاجئ- في المروج الخضراء الواسعة وأشعة الشمس والوحدة، ثم أمسك أنفاسه فجأة وهو ينظر داخل إحدى المقصورات. هذه الفتاة مختلفة: شعر أسود ولون شاحب كلون الحليب وعينان فيهما عمق الليل وظلمته؛ عينان من حزن وكبرياء لفتاة من الجنوب. كان من غير الطبيعي أن تجلس هذه الفتاة في هذا القطار بين هؤلاء الناس المملين المتشابهين، وكل الخطأ أن تذهب إلى أواسط إنكلترا الموحشة الكئيبة. كان ينبغي لها أن تكون على شرفة وبين شفتيها وردة وشريط أسود يزين رأسها الشامخ، وكان ينبغي أن يكون هناك غبار وحرارة ورائحة دم؛ رائحة حلبة مصارعة الثيران! ينبغي لها أن تكون في مكان رائع، لا أن تكون محصورة في زاوية مقصورة من الدرجة الثالثة.

كان رجلاً قوي الملاحظة. لم تفته ملاحظة البلى الذي لحق بمعطفها الأسود الصغير وتنورتها، والنوعية الرخيصة لقماش قفازيها، وحذائها الرديء، ومغزى التحدي في حقيبة يدها الحمراء. ومع ذلك كانت الفخامة هي الصبغة التي وجدها فيها. كانت فخمة حقاً، وجميلة وغريبة الشكل والمظهر.

ماذا عساها تفعل في بلد الضباب والبرد والنمل الكادح المتراكض؟

فكر في نفسه: "يجب أن أعرف من هي وماذا تفعل هنا... يجب أن أعرف"...

* * *

جلست بيلار محصورةً بجانب النافذة وفكرت كيف تبدو رائحة الإنكليز غريبة جداً! كان ذلك أكثر ما لفت انتباهها حتى الآن في إنكلترا... الاختلاف في الرائحة. لم تشم رائحة غبار، كما لم يكن هناك إلاّ القليل جداً من العطر. كان يوجد في هذه المقصورة عندئذ رائحة جوٍ بارد فاسد... رائحة الكبريت الخارج من القطار، ورائحة صابون، ورائحة كريهة أخرى. رأت بأن هذه الرائحة جاءت من ياقة الفرو التي تلبسها المرأة البدينة الجالسة بجانبها. تشممت بيلار الرائحة بهدوء، وهي تستنشق بحذر رائحة النفتالين المقاوم للعث. رأت أن من الغريب أن يختار المرء مثل هذه الرائحة عطراً له.

انطلقت صافرة، ونادى صوت جهوري بعبارةٍ ما، ودوّى صوت عالٍ فتحرك القطار مبتعداً عن المحطة ببطء. ها قد انطلق القطار، وها هي تمضي لهدفها.

خفق قلبها خفقات سريعة بعض الشيء. هل سيكون الأمر على ما يرام؟ هل ستكون قادرة على تحقيق ما عزمت عليه؟ بالتأكيد... بالتأكيد. لقد فكرت بالأمر كله بعناية كبيرة، وكانت مستعدة لكل احتمال. آه، نعم، سوف تنجح... لا بد أن تنجح.

انحنت الخطوط حول فم بيلار الأحمر نحو الأعلى، وغدا ذلك الفم قاسياً فجأة، قاسياً وجشعاً؛ كفم طفل أو هرة! أصبح فماً لا يعرف إلاّ رغباته الخاصة فقط، وكأنه لم يعرف الشفقة من قبل.

نظرت حولها بفضول صريح كطفل. كل هؤلاء الأشخاص السبعة... يا لغرابة هؤلاء الإنكليز! بدوا جميعاً أغنياء جداً ومرفهين كثيراً، ملابسهم... أحذيتهم... آه! لا شك أن إنكلترا بلاد غنية جداً

كما كانت تسمع عنها دائماً. لكنهم لم يكونوا مبتهجين أبداً. نعم، لم يكونوا مبتهجين بالتأكيد.

كان رجلاً وسيماً ذاك الذي يقف في الممر. فكرت بيلار بأنه وسيم جداً. أحبت وجهه البرونزي وأنفه المرتفع وكتفيه العريضين، وأدركت بأسرع مما تدركه أية فتاة إنكليزية بأن الرجل أعجب بها. لم تنظر إليه ولو مرة واحدة نظرة مباشرة لكنها عرفت تماماً كيف أنه كان ينظر إليها كثيراً وعرفت بالضبط كيف كانت نظراته.

سجلت هذه الحقائق دون كثير اهتمام أو عاطفة؛ فهي من بلد ينظر فيه الرجال إلى النساء بشكل عادي ولا يحرصون على إخفاء ذلك. تساءلت إن كان هذا الرجل إنكليزياً، ثم قررت أنه لم يكن كذلك.

قررت بيلار في نفسها: "إنه أكثر حيوية من أن يكون إنكليزياً. ومع ذلك فهو أبيض اللون. قد يكون أمريكياً". ورأت أنه كان يشبه الممثلين الذين رأتهم في أفلام رعاة البقر الأمريكية.

شقّ أحد المضيفين طريقه عبر الممر وهو يقول: وجبة الغداء الأولى من فضلكم، وجبة الغداء الأولى. احجزوا مقاعدكم من أجل الغداء.

كان جميع الجالسين السبعة في مقصورة بيلار يحملون تذاكر وجبة الغداء الأولى، فنهضوا كلهم وأصبحت المقصورة فجأة فارغة وهادئة. وسحبت بيلار إلى الأعلى ستارة النافذة التي كانت امرأة متجهمة رمادية الشعر قد أنزلتها قليلاً، ثم تمددت على مقعدها بارتياح ونظرت خارج النافذة إلى الضواحي الشمالية للندن. لم تلتفت

إلى صوت الباب الذي كان ينغلق. كان ذلك الرجل الذي يقف في الممر، وعرفت بيلار -بالطبع- أنه دخل المقصورة بغرض التحدث معها، وواصلت النظر إلى خارج الشباك متأملة.

قال ستيفن فار: هل تحبين فتح النافذة؟

ردّت بيلار باحتشام: على العكس؛ لقد أغلقتها لتوي.

كانت تتحدث الإنكليزية بطلاقة، ولكن بلكنة خفيفة. وأثناء الصمت الذي تلا ذلك فكر ستيفن في نفسه: "صوت حلو فيه نكهة الشمس... دافئ كليلة صيف!..."، وفكرت بيلار: "أحبّ صوته. إنه فخم وقوي. إنه جذاب... نعم، إنه جذاب".

قال ستيفن: القطار مزدحم جداً.

- نعم، فعلاً. أظن أن الناس يغادرون لندن لأن الجو فيها قاتم جداً.

لم تكن بيلار قد رُبّيت على الاعتقاد بأن الحديث مع رجال غرباء في القطارات يعتبر جريمة. كانت تستطيع المحافظة على نفسها كأية فتاة أخرى، ولكن لم تكن لديها حدود صارمة. وربما كان من شأن ستيفن -لو أنه نشأ في إنكلترا- أن يشعر بحرج من الدخول في حديث مع فتاة، ولكنه كان رجلاً ودوداً يرى أن من الطبيعي أن يتحدث مع من يشاء إذا أعجبه ذلك.

ابتسم لا إرادياً وقال: لندن مكان رهيب، أليس كذلك؟

- آه، بلى؛ لا أحبها أبداً.

- ولا أنا.

- أنت لست إنكليزياً، أليس كذلك؟

- بل أنا إنكليزي، ولكنني جئت من جنوب أفريقيا.

- آه، فهمت، هذا يوضح الأمر.

- هل جئتِ لتوكِ من الخارج؟

أومأت بيلار برأسها وقالت: جئت من إسبانيا.

أصبح ستيفن مهتماً وقال: آه، من إسبانيا؟ إذن فأنت إسبانية؟

- أنا نصف إسبانية؛ فأمي إنكليزية ولذلك أتكلم الإنكليزية جيداً.

- ماذا عن أمر هذه الحرب؟

- إنها رهيبة، نعم... محزنة جداً. لقد وقع خراب، خراب كثير... نعم.

- أي جانب تؤيدين؟

بدا أن اتجاهات بيلار السياسية غامضة. أوضحت بأن أحداً في القرية التي جاءت منها لا يهتم كثيراً بالحرب. "لم تكن قريبة منّا. كان العمدة -بالطبع- موظفاً حكومياً، ولذلك فهو يؤيد الحكومة، وأما الكاهن فكان مؤيداً للجنرال فرانكو... ولكن معظم الناس مشغولون بكرومهم وأراضيهم وليس عندهم الوقت للخوض في هذه المسائل".

- إذن لم يقع أي قتال قريباً منكم؟

أكدت بيلار هذا، ثم أوضحت قائلة: ولكن بعد ذلك ذهبتُ في السيارة للتجول في البلاد فوجدت الكثير من الدمار، ورأيت قنبلة سقطت وفجرت سيارة... نعم، وقنبلة أخرى دمّرت بيتاً. كان ذلك مثيراً جداً!

ابتسم ستيفن ابتسامة باهتة قليلاً وقال: إذن هكذا بدا لك الأمر؟

أوضحت بيلار قائلة: كان أمراً مزعجاً أيضاً؛ لأنني كنت أريد مواصلة الرحلة، ولكن سائق سيارتي قُتل.

قال ستيفن وهو يراقبها: ألم يزعجك هذا؟

فتحت بيلار عينيها السوداوين الكبيرتين باتساع وقالت: لا بد لكل امرئ أن يموت! هذا صحيح، أليس كذلك؟ إذا جاء الموت بسرعة من السماء... بوم... هكذا، فتلك ميتة أسهل من سواها. إن المرء يعيش عمراً محدداً... نعم، وبعد ذلك يموت. هذا ما يحدث في هذا العالم.

ضحك ستيفن وقال: لا أظنك من أنصار السلام؟

- لا تظنني ماذا؟

بدا وكأن مفرده السلام لم تدخل قاموس بيلار.

- هل تسامحين أعداءك يا آنسة؟

- ليس لي أعداء. ولكن لو كان لي...

- حسناً؟

كان يراقبها مسحوراً بفمها الجميل القاسي الذي انحنت زواياه للأعلى. قالت بيلار بهدوء: "لو كان لي عدو... أحد يكرهني وأكرهه، لقطعت حنجرته هكذا"، وأشارت بيدها بطريقة معبّرة.

كانت إشارتها من السرعة والفظاظة بحيث فاجأت ستيفن للحظات، ثم قال لها: أنت فتاة متعطشة للدماء!

سألته بيلار بنبرة واقعية: ماذا كنت ستفعل بعدوك؟

فوجئ بالسؤال. حدّق بها، ثم ضحك بصوت عال وقال: لا أعرف... لا أعرف!

قالت بيلار باستهجان: أنت تعرف... بالتأكيد.

سيطر على ضحكته وقال بصوت منخفض: "نعم. أعرف!"، ثم سألها وقد غيّر أسلوبه بسرعة: ما الذي أتى بك إلى إنكلترا؟

أجابته بيلار بشيء من الاحتشام: سأقيم عند أقاربي... أقاربي الإنكليز.

قال: "فهمت"، واستند بظهره إلى مقعده وهو يتفحصها ويتساءل عن شكل أقاربها الإنكليز الذين تتحدث عنهم. تساءل عما سيفهمونه من هذه الغريبة الأسبانية محاولاً أن يتخيلها وسط عائلة إنكليزية تقليدية جادة في عيد الميلاد.

سألته بيلار: أجميلة هي جنوب أفريقيا؟

بدأ يتحدث إليها عن جنوب أفريقيا. واستمعت إليه باهتمام سعيد كطفل يسمع حكاية، وقد استمتع بأسئلتها الساذجة رغم ذكائها، وسلّى نفسه بالمبالغة الخيالية في إجاباته. وقد وضعت عودة ركاب المقصورة إلى أماكنهم حداً لهذه الفرص السانحة، فنهض من مكانه وابتسم لها وخرج ثانية إلى الممر.

وبينما كان يقف عند مدخل الباب ويتراجع إلى الوراء قليلاً ليسمح لامرأة كهلة بالدخول وقعت عيناه على الملصق المثبت على حقيبة بيلار الأجنبية المصنوعة من القش، وقرأ الاسم باهتمام: «الآنسة بيلار إيسترافادوس». وبعد ذلك، عندما وقعت عيناه على العنوان اتسعتا باستغراب وانتابه إحساس آخر: «غورستون هول، لونغديل، أدلزفيلد».

التفت نصف التفاتة ليحدق في الفتاة بتعابير جديدة... تعابير حائرة، ساخطة، مرتابة! ثم خرج إلى الممر ووقف هناك وهو عابس.

* * *

في غرفة الاستقبال الكبيرة الزرقاء والذهبية في المنزل المسمى «غورستون هول» جلس ألفرد لي وزوجته ليديا يتناقشان في خططهما بخصوص عيد الميلاد. كان ألفرد رجلاً مربوعاً في متوسط العمر ذا وجه لطيف وعينين بنيتين هادئتين، وكان صوته -عندما يتحدث- هادئاً ودقيقاً، مع نطق واضح جداً، فيما غطس رأسه في كتفيه بشكل يعطي انطباعاً غريباً بالكسل. أما زوجته ليديا فكانت امرأة نشيطة

نحيلة أشبه بكلب سلوقي، ورغم نحولها البالغ إلاّ أن كل حركاتها كانت توحي بالفخامة والرشاقة.

لم يكن في وجهها المضنى اللامبالي جمال، ولكن كان فيه تميُّز واضح، أما صوتها فكان ساحراً.

قال ألفرد: إن أبي يصرّ... لا مجال آخر أمامنا.

منعت ليديا نفسها من الإقدام على حركة مفاجئة من نفاد الصبر وقالت: أيجب أن تذعن له دائماً؟

- إنه رجل عجوز جداً يا عزيزي.

- آه، أعرف... أعرف!

- وهو يتوقع أن تجري الأمور وفق إرادته.

قالت ليديا ببرود: هذا طبيعي ما دام ينجح في ذلك دائماً! ولكن، لابد لك أن تتخذ موقفاً في يوم ما يا ألفرد.

- ماذا تقصدين يا ليديا؟

حدّق بها. كانت منزعجة مرتبكة بحيث عضت على شفتها لحظة وبدت مترددة في مواصلة حديثها. وأعاد ألفرد سؤاله: ماذا تقصدين يا ليديا؟

رفعت كتفيها الرشيقين حيرة وقالت محاولة اختيار كلماتها بحذر: إن أباك... يميل لأن يكون استبدادياً.

- إنه كبير بالسن.

- وسيكبر أكثر، وبالتالي يصبح مستبداً أكثر. إلى أين ينتهي هذا؟ إنه يتحكم بحياتنا تحكماً كلياً حتى إننا لا نستطيع وضع خطة واحدة بأنفسنا، وإن حدث ووضعناها تكون معرضة دائماً للإفساد.

قال ألفرد: يتوقع أبي أن تكون له أولوية. تذكّري أنه طيب جداً معنا.

- آه! طيب معنا!

- طيب جداً معنا.

كان ألفرد يتحدث بشيء من الإصرار. قالت ليديا بهدوء: هل تقصد مالياً؟

- نعم. إن حاجاته الخاصة بسيطة جداً، لكنه لا يضنّ علينا بالمال أبداً. تستطيعين أن تنفقي ما تشائين على ملابسك وعلى هذا البيت، وهو يدفع الفواتير دون أن يتذمر، كما أنه أعطانا سيارة جديدة في الأسبوع الماضي فقط.

- بالنسبة للمال أعترف بأن والدك كريم جداً، ولكنه -مقابل ذلك- يريد منّا أن نتصرف كعبيد.

- عبيد؟!

- نعم، هذا ما قلته. أنت فعلاً عبد له يا ألفرد. لو خططنا للسفر وفجأة لم يرد لنا أبوك أن نسافر فسوف تلغي ترتيباتك وتبقى دون أن تنبس بكلمة! وإن أوحت له نزوة من نزواته أن يدعنا نرحل فإننا

نرحل! ليست لنا حياتنا الخاصة... ليس عندنا استقلال.

قال زوجها متألماً: ليتك لا تتحدثين هكذا يا ليديا؛ هذا نكران للجميل. لقد عمل والدي كل شيء من أجلنا.

كظمت إجابةً كانت على شفتيها، ورفعت كتفيها النحيلين الرشيقتين بلا مبالاة مرة أخرى.

قال ألفرد: أتعلمين أن الرجل العجوز يحبك كثيراً يا ليديا؟

قالت زوجته بوضوح وصراحة: أنا لا أحبه على الإطلاق.

- ليديا، يؤلمني كثيراً أن أسمعك تقولين أشياء كهذه. هذه فظاظة كبيرة.

- قد تكون كذلك، ولكن الإنسان يضطر أحياناً لقول الحقيقة.

- لو عرف أبي...

- أبوك يعرف تماماً أنني لا أحبه، وأظن أن هذا يسره!

- يا لأفكارك يا ليديا! أنا متأكد أنك مخطئة في هذا. لطالما أشاد أمامي بروعة سلوكك معه.

- من الطبيعي أن أكون مهذبة معه، وسأكون كذلك دائماً. إنني أبوح لك فقط بأحاسيسي الحقيقية. أنا لا أحب أباك يا ألفرد. أظنه عجوزاً حقوداً مستبداً، وهو يتسلّط عليك ويستغل تعلقك به. كان يجب عليك أن تواجهه منذ سنوات.

قال ألفرد محتداً: هذا يكفي يا ليديا؛ أرجوك أن لا تقولي المزيد.

تنهدت وقالت: أنا آسفة، قد أكون مخطئة. دعنا نتحدث عن ترتيباتنا لعيد الميلاد: هل تعتقد حقاً أن أخاك ديفيد سيأتي؟

- ولم لا؟

هزت رأسها بارتياب وقالت: إن ديفيد... شخص غريب. تذكّر أنه لم يدخل البيت منذ سنوات. لقد كان شديد التعلق بأمك، ولديه إحساس معين إزاء هذا البيت.

- كان ديفيد يثير أعصاب والدي دائماً بموسيقاه وأساليبه الحالمة. ربما كان والدي قاسياً عليه أحياناً، ولكني أظن أن ديفيد وهيلدا سيحضران. إنه عيد الميلاد كما تعلمين.

قالت ليديا ساخرة: "السلام والنوايا الحسنة..."، ثم أضافت: لا أعرف إن كان جورج وماغدالين سيأتيان، لقد قالا إنهما قد يصلان غداً، وأظن ماغدالين ستشعر بملل فظيع.

قال ألفرد بشيء من الانزعاج: لا أعرف ما الذي دفع أخي جورج للزواج بفتاة تصغره بعشرين عاماً. كان جورج مغفلاً دائماً!

- إنه ناجح جداً في مهنته. إن ناخبيه يحبونه، وأعتقد أن ماغدالين تبذل كل جهدها على الصعيد السياسي من أجله.

قال ألفرد ببطء: لا أظن أنني أحبها كثيراً. إنها جميلة جداً،

ولكني أراها أحياناً كواحدة من تلك التفاحات التي يأخذها المرء وقد أعجبه احمرارها ونضارتها.

ثم هز رأسه، فأكملت ليديا عبارته: وتكون فاسدة من الداخل، أليس كذلك؟ غريب منك أن تقول ذلك يا ألفرد!

- لماذا غريب؟

- لأنك في العادة شخص وديع لطيف، وأنت لا تكاد تذكر أحداً بسوء أبداً. إنني أتضايق منك أحياناً لأنك لست... كيف أعبر عن ذلك؟ لأنك لست نزّاعاً إلى الشك لدرجة كافية؛ لست واقعياً بما فيه الكفاية. كأنك لست من هذا العالم!

ابتسم زوجها وقال: أعتقد دائماً أن العالم هو ما نصنعه نحن.

قالت ليديا بجزم: "كلا! إن الشر ليس فقط في عقل المرء، الشر موجود! ولكن يبدو أنك لا تعي وجود الشر في العالم، أما أنا فأدركه، أستطيع أن أشعر به. لقد شعرت به دائماً... هنا، في هذا البيت". ثم عضت على شفتها واستدارت.

قال ألفرد: "ليديا..."، لكنها رفعت يداً سريعة محذرة وعيناها تنظران إلى شيء وراءه. التفت ألفرد، وكان هناك رجل أسمر هادئ الوجه يقف بأدب.

قالت ليديا بحدة: ما الأمر يا هوربري؟

كان صوت هوربري منخفضاً أقرب إلى تمتمة مؤدبة: إنه السيد

لي يا سيدتي. طلب مني أن أخبركما أن ضيفين آخرين سيصلان لحضور عيد الميلاد، إن كان بالإمكان تحضير غرفتين لهما.

قالت ليديا: ضيفان آخران؟!

أجاب هوربري بهدوء: نعم يا سيدتي، رجل آخر وفتاة شابة.

قال ألفرد متعجباً: فتاة شابة؟!

- هذا ما قاله السيد لي يا سيدي.

قالت ليديا بسرعة: سوف أصعد وأراه...

خطا هوربري خطوة صغيرة لا تكاد تُلاحظ، ولكنها أوقفت تقدم ليديا السريع بصورة تلقائية، ثم قال: اعذريني يا سيدتي؛ فالسيد لي يأخذ قيلولته الآن، وقد طلب بشكل خاص أن لا يزعجه أحد.

قال ألفرد: فهمت؛ لن نزعجه بالطبع.

- شكراً لك يا سيدي.

ثم انسحب هوربري.

قالت ليديا بقوة: كم أكره هذا الرجل! إنه يتسلل داخل البيت مثل القطة؛ وإن أحداً لا يسمعه يذهب أو يأتي.

- أنا لا أحبه أيضاً، ولكنه يتقن عمله. ليس من السهل الحصول

على ممرض جيد يعتني بالعجوز، كما أن والدي يحبه وهذا هو المهم.

- نعم، هذا هو الشيء المهم كما تقول. ما هذا الكلام عن فتاة شابة يا ألفرد؟ أية فتاة هذه؟

هز زوجها رأسه وقال: لا أستطيع تخيل من تكون، بل إنني لا أستطيع تذكر فتاة محتملة.

حدّق كل منهما بالآخر، ثم قالت ليديا بالتواءة مفاجئة من فمها المعبّر: هل تعرف ما أفكر به يا ألفرد؟

- ماذا؟

- أظن أن والدك قد شعر بالملل مؤخراً، وأحسبه يخطط لعمل تغيير بسيط لنفسه في عيد الميلاد.

- عن طريق إدخال غريبين اثنين إلى اجتماع عائلي؟

- آه! لا أعرف ما هي التفصيلات، ولكنني أتصور أن والدك يحضّر شيئاً... ليسلي نفسه.

قال ألفرد بتجهم: أرجو أن يستمتع حقاً بهذا العيد. مسكين هذا العجوز... مريض مقعد بعد حياة المغامرات التي عاشها.

قالت ليديا ببطء: "بعد حياة المغامرات التي عاشها". قالتها بطريقة ذات مدلول خاص رغم غموضه، وبدا أن ألفرد قد شعر بذلك، فاحمرّ وجهه وبدا حزيناً.

صاحت فجأة: لا أستطيع أن أتخيل كيف استطاع أن ينجب ابناً مثلك! إنكما على النقيض تماماً. كما أنه يفتنك... إنك تكاد تعبده!

قال ألفرد مغتاظاً: ألست تبالغين قليلاً يا ليديا؟ أظن أن من الطبيعي أن يحب الولد أباه، بل إن من غير الطبيعي تماماً أن لا أحبه.

- في هذه الحالة يكون معظم أفراد هذه العائلة غير طبيعيين!

آه، دعنا من الجدال. أنا آسفة؛ أعرف أنني جرحت مشاعرك. صدّقني يا ألفرد، لم أقصد فعل ذلك حقيقة. إنني معجبة بك كثيراً بسبب برّك وولائك، فالإخلاص فضيلة نادرة هذه الأيام. لنقل إنني غيورة؟ ألا يفترض بالنساء أن يَغَرْنَ من أمهات أزواجهن؟ لماذا إذن لا يَغَرْنَ من آبائهم أيضاً؟

وضع ذراعه حولها بلطف وقال: إنّ لسانك يفلت منك يا ليديا. لا سبب يدعوك للغيرة.

قبّلته قبلة ندم سريعة وقالت: أعرف، ومع ذلك لا أظن -يا ألفرد- أنني كنت سأغار من والدتك أبداً. أتمنى لو أنني كنت عرفتها.

- لقد كانت امرأة مسكينة.

نظرت زوجته إليه باهتمام: إذن هكذا تنظر إليها... على أنها امرأة مسكينة؟ هذا أمر مثير للاهتمام.

قال حالماً: "أتذكّرها وهي تكاد تكون مريضة دائماً، وكانت

تبكي في الغالب". ثم هز رأسه وقال: لم تكن ذات عزيمة.

تمتمت بهدوء وهي ما زالت تحدق فيه: يا للغرابة!

لكن عندما التفت إليها متسائلاً هزت رأسها بسرعة وغيّرت مجرى الحديث: بما أن من غير المسموح لنا أن نعرف ضيفنا فسأخرج لأنهي عملي في الحديقة.

- إن الجو بارد جداً يا عزيزتي، فالريح قارصة.

- سأتدثر جيداً.

غادرت الغرفة، وبقي ألفرد وحيداً ساكناً لبعض الوقت. كان عابساً قليلاً، ثم سار باتجاه الباب الزجاجي في نهاية الغرفة. وفي الخارج كانت مصطبة تمتد على طول البيت، وهناك رأى ليديا بعد دقيقة أو دقيقتين تظهر وهي تحمل سلّة مسطحة. كانت تلبس معطفاً ثقيلاً، ووضعت السلّة وبدأت تعمل عند حوض مربع من الحجر يعلو قليلاً فوق مستوى الأرض. راقبها زوجها لبعض الوقت، وفي النهاية خرج من الغرفة وأحضر لنفسه معطفاً ولفافة وخرج إلى المصطبة من باب جانبي. وقد مرّ -وهو يسير- بالعديد من الأحواض الحجرية الأخرى التي نُسّقت على شكل حدائق مصغرة، وكلها من عمل يدي ليديا البارعتين.

كان أحدها يمثّل منظراً صحراوياً فيه رمال صفراء ناعمة ومجموعة صغيرة من أشجار النخيل في صفائح ملونة وقافلة من الجمال، كما بُنيت بعض البيوت الطينية البسيطة باستخدام بعض اللدائن. ومثّل حوضٌ آخر حديقةً إيطالية مع مصاطب ومساكب من الأزهار المعمولة من الشمع الملون. وكان هناك -أيضاً- حديقة من

حدائق القطب الشمالي مع كتل الزجاج الأخضر التي تمثل الجبال الجليدية، ومجموعة صغيرة من طيور البطريق. بعد ذلك تأتي حديقة يابانية مع شجرتين صغيرتين جميلتين وزجاج للرؤية تحت الماء ونماذج جسور مصنوعة من اللدائن.

جاء أخيراً ووقف إلى جانبها حيث كانت تعمل. كانت قد وضعت ورقة زرقاء وغطتها بالزجاج، وحول هذا الزجاج كانت أكوام من الصخور. وفي تلك اللحظة كانت تفرغ حصى خشناً من كيس صغير لتشكل منها شاطئاً، وكانت بين الصخور بعض أشجار الصبّار الصغيرة. همهمتْ ليديا قائلة لنفسها: نعم، هذا صحيح بالضبط... هذا ما أريده تماماً.

قال ألفرد: ما آخر الأعمال الفنية هذه؟

جفلت إذ لم تكن قد سمعته وهو قادم إليها. قالت: هذا؟ آه، إنه البحر الميت يا ألفرد. هل أعجبك؟

- يبدو قاحلاً بعض الشيء، أليس كذلك؟ ألا ينبغي أن يكون فيه المزيد من الخضرة؟

هزّتْ رأسها وقالت: هذا ما أتصوره أنا عن البحر الميت؛ فهو ميت!

- إنه ليس جذاباً كالأحواض الأخرى.

- لم يكن المقصود منه أن يكون جذاباً بشكل خاص.

سُمع صوت أقدام على المصطبة، وجاء إليها خادم كهل أبيض الشعر في ظهره شيء من الانحناء وقال: السيدة جورج لي

على الهاتف يا سيدتي. إنها تسأل إن كان من المناسب أن تصل هي والسيد جورج في قطار الساعة الخامسة والثلث غداً؟

- نعم، أخبرها أن هذا مناسب تماماً.

- شكراً يا سيدتي.

أسرع الخادم عائداً وتابعته ليديا بنظراتها وقد انبسطت أساريرها، ثم قالت: يا للعجوز العزيز تريسليان؛ يا له من مُعين جاهز دوماً! لا أدري ماذا كنا سنفعل دونه.

وافقها ألفرد قائلاً: إنه من الطراز القديم من الخدم. يعمل معنا منذ أربعين سنة تقريباً، وهو متعلق بنا جميعاً.

- نعم، إنه واحد من أولئك المرافقين المخلصين القدامى كما تصورهم الروايات. أظن أن من شأنه أن يفعل كل شيء إذا تطلب الأمر حماية أحد أفراد العائلة!

- نعم، من شأنه أن يفعل كل شيء... أحسبه كذلك.

مسّدت ليديا بيدها آخر كومة من الحصى وقالت: ها قد أصبح جاهزاً.

- جاهزاً؟

بدا ألفرد متحيراً. ضحكت وقالت: جاهز لعيد الميلاد أيها الأحمق! لهذا العيد العائلي المفرط في عاطفيته الذي ننتظره.

* * *

قرأ ديفيد الرسالة، ثم كوّرها بيده وألقاها بعيداً عنه، ثم عاد إليها فأخذها وفتحها ثم مسّدها بيده وقرأها ثانية.

راقبته زوجته هيلدا بهدوء دون أن تقول شيئاً. لاحظت في صدغه تلك العضلة التي تنتفض (أم أنها كانت عصباً؟)، ولاحظت الرعشة الخفيفة في يديه الطويلتين الناعمتين والحركات العصبية المتشنجة لجسمه عموماً. وعندما أبعد جانباً خصلة من شعره الأشقر كانت غالباً ما تنزل فوق جبينه ونظر إليها بعينين زرقاوين مستغيثتين كانت مستعدة لذلك. قال لها: ماذا سنفعل إزاء هذا الأمر يا هيلدا؟

ترددت هيلدا لحظة قبل أن تجيبه. كانت قد أدركت ما في نبرة صوته من استغاثة، وكانت تدرك مدى اعتماده عليها؛ إذ كان ذلك دأبه دوماً منذ زواجهما. كانت تعرف أنها قد تستطيع التأثير على قراره تأثيراً نهائياً وحاسماً، ولكنها -لذلك السبب تحديداً- كانت حذرة من إصدار أي حكم نهائي.

قالت بصوت هادئ أشبه بصوت مربية محترفة تطمْئِن طفلاً: هذا يعتمد على كيفية شعورك بهذا الأمر يا ديفيد.

كانت هيلدا امرأة عريضة المنكبين، ليست بالجميلة ولكنها ذات جاذبية غريبة، وفي صوتها نبرة تبعث الدفء والود، وفي شخصيتها شيء من القوة... القوة الخفية الحيوية التي تستهوي وتجذب الضعف والضعفاء. كانت امرأة بدينة جداً وقصيرة في أواسط عمرها، ليست ذكية أو لماحة ولكن فيها شيئاً لا يستطيع المرء تجاوزه... القوة! كانت لدى هيلدا القوة!

نهض ديفيد وبدأ يسير جيئة وذهاباً. لم يكن الشيب قد

اقترب من شعره بعد، وكان يبدو صبيانياً على نحو غريب، بوجهه البسيط الهادئ الذي يكاد يعطي انطباعاً غامضاً بأنه غير حقيقي. قال بصوت مكتئب: تعرفين شعوري تجاه هذا الأمر ياهيلدا... لابد أنك تعرفين.

- لست متأكدة.

- ولكني أخبرتك... أخبرتك مراراً وتكراراً! كيف أكره هذا الأمر كله. البيت والمنطقة التي تحيط به وكل شيء! إنه لا يذكّرني إلاّ بالبؤس. إنني أكره كل لحظة قضيتها هناك! عندما أفكر في ذلك... وبكل ما كانت تعاني منه والدتي.

أومأت زوجته برأسها موافقة، ومضى هو قائلاً: كانت لطيفة جداً يا هيلدا، وصبورة جداً، وهي تتمدد هناك وتعاني الألم في أغلب الأوقات، ولكنها تتحمله. كانت تتحمل كل شيء. وعندما أفكر في والدي...

ثم اكفهرّ وجهه وهو يقول: والدي الذي جلب كل هذا البؤس لحياتها. يذلّها... ويتباهى بعلاقاته الغرامية. كان يخونها باستمرار ولا يكلف نفسه عناء إخفاء ذلك.

قالت هيلدا: ما كان عليها أن تصبر على هذا؛ كان عليها أن تتركه.

قال بشيء من اللوم: كانت أطيب من أن تفعل ذلك. رأت أن من واجبها أن تبقى، وإلى جانب ذلك كان هذا منزلها، فأين عساها تذهب؟

-كانت تستطيع أن تحيا حياة مستقلة.

قال ديفيد بغيظ: لم يكن ذلك ممكناً في تلك الأيام! أنت لا تفهمين. لم تكن النساء يتصرفن هكذا. كنّ يصبرن على الأمور، ويتحملن الحياة صابرات. كانت تفكر فينا. حتى لو انفصلت عن والدي فماذا كان سيحدث؟ ربما كان من شأنه أن يتزوج ثانية، وربما كانت مصالحنا نحن ستتهدّد. كان عليها أن تفكر بكل تلك الاعتبارات.

لم تردّ هيلدا عليه، فمضى قائلاً: لا، لقد فعلت الصواب. كانت قديسة! لقد تحملت حتى النهاية دون أن تتذمر.

قالت هيلدا: ليس دون أن تتذمر، وإلا ما كنتَ لتعرف كل هذه الأمور ياديفيد!

قال بهدوء وقد أشرق وجهه: "نعم، لقد أخبرتني بأشياء. كانت تعرف كم كنت أحبها، وعندما توفيت...". سكت، ثم مرّر يديه على شعره وقال: هيلدا، لقد كان ذلك شنيعاً... رهيباً! الكآبة! كانت ما زالت شابة وما كان ينبغي لها أن تموت. لقد قتلها... أبي! كان مسؤولاً عن وفاتها؛ لقد كسر قلبها، ولقد قررتُ بعدها أن لا أعيش معه تحت سقف واحد. خرجتُ من عنده... وابتعدت عن ذلك الجو كله.

أومأت هيلدا برأسها موافقة وقالت: لقد كنت حكيماً جداً؛ إن ما فعلته هو الصواب.

قال ديفيد: كان والدي يريدني أن أتولى المصنع، وكان هذا يعني

أن أعيش في المنزل. لم أستطع تحمل ذلك؛ لا أستطيع أن أتصور كيف يتحمل ألفرد ذلك... كيف تحمّل ذلك طوال هذه السنين.

سألته هيلدا ببعض الاهتمام: ألم يَثُرْ من هذا الواقع أبداً؟ أظنك أخبرتني شيئا عن تركه وظيفة أخرى.

أومأ ديفيد موافقاً وقال: كان مقرراً أن يلتحق ألفرد بالجيش، وقد رتّب والدي هذا كله مقرّراً أن يذهب ألفرد (وهو أكبرنا سنّاً) إلى سلاح الفرسان، كما تقرر أن يتولى هاري المصنع، وكذلك أنا. وجورج كان سيدخل في عالم السياسة.

- ولكن الأمور لم تجرِ على هذا النحو، أليس كذلك؟

هز ديفيد رأسه نافياً وقال: لقد أفسد هاري ذلك كله! كان دوماً في غاية الرعونة؛ يتورط في الديون وجميع أنواع المشكلات الأخرى، وفي نهاية المطاف رحل يوماً آخذاً معه عدة مئات من الجنيهات لم تكن ملكاً له، وترك ملاحظة وراءه يقول فيها إن عمل المكاتب لا يناسبه وإنه ذاهب لرؤية العالم.

- ألم يصلكم منه شيء بعد ذلك؟

ضحك ديفيد وقال: آه، بلى، وصلنا؛ وصلنا الكثير منه! كان يبرق دائماً من جميع أنحاء العالم طلباً للنقود، وكان يحصل عليها دائماً أيضاً!

- وألفرد؟

- جعله والدي يستقيل من الجيش ويعود إلى المصنع.

- وهل تأثر لذلك؟

- تأثر في البداية كثيراً. كان يكره ذلك، لكن أبي كان يستطيع دائماً التأثير على ألفرد، وأظن أنه مازال في جيب والدي لا يحيد عن رأيه.

- وأنت... نجوت!

- نعم، ذهبت إلى لندن ودرست الرسم. أخبرني والدي صراحة أنني إذا رحلت لغرض أحمق كهذا فسوف أحصل على معاش صغير منه أثناء حياته ولن أحصل على شيء بعد وفاته، وقلت له إنني لا آبه لذلك. كان يسميني الشاب الأحمق، وانتهى الأمر عند هذا الحد! لم أره منذ ذلك الوقت أبداً.

قالت هيلدا بلطف: وهل ندمت على ذلك قَط؟

- لا. أنا أدرك أنني لن أنجح أبداً في فني ولن أكون فناناً عظيماً أبداً، لكننا سعيدان بما فيه الكفاية في هذا الكوخ. لدينا كل ماتريده... جميع الأشياء الأساسية، وإذا متّ فإن حياتي مؤمن عليها لصالحك.

سكت ثم قال: والآن... تأتينا هذه!

ضرب الرسالة بيده فقالت: أنا آسفة لأن والدك كتب تلك الرسالة، إن كانت تزعجك إلى هذا الحد...

واصل ديفيد حديثه وكأنه لم يسمعها: يطلب مني أن أحضر زوجتي لعيد الميلاد راجياً أن نتجمع جميعنا في هذه المناسبة، عائلة

متحدة! ماذا يمكن أن يعني ذلك؟

قالت هيلدا: وهل من حاجة لأن يعني ذلك أكثر من معناه الظاهر؟

نظر إليها متسائلاً، فقالت وهي تبتسم: أقصد أن والدك يتقدم به العمر، وقد بدأ يشعر ببعض الرقة والعاطفية إزاء روابط العائلة. وهذا يحدث كثيراً.

قال ديفيد ببطء: أحسب أنه يحدث.

- إنه رجل عجوز ويشعر ببعض الوحدة.

نظر إليها بسرعة وقال: تريدين أن أذهب يا هيلدا، أليس كذلك؟

قالت هيلدا ببطء: يبدو أمراً مؤسفاً... أن لا تستجيب لنداء يطلبك. أحسب أنني من الطراز القديم، ولكن لِمَ لا تنعم بالسلام والنوايا الحسنة في عيد الميلاد؟

- رغم كل ما قلته لك؟

- أعرف يا عزيزي، أعرف. لكن كل هذا من الماضي، لقد انتهى كل شيء.

- ليس بالنسبة لي.

- نعم؛ لأنك لا تريد ترك الماضي يموت. إنك تترك الماضي حياً في عقلك.

- لا أستطيع أن أنسى.

- بل لا تريد أن تنسى... هذا ما تقصده يا ديفيد.

اكتسبت قسماته مظهراً حازماً وقال: نحن عائلة «لي» هكذا؛ نتذكر الأشياء لسنوات طويلة، نتركها تختمل في عقولنا لنبقي ذاكرتنا حية.

قالت هيلدا بصبر نافد: أهذا شيء يبعث على الفخر؟

نظر إليها متأملاً وقد بدا عليه شيء من التحفظ، ثم قال: إذن فأنت لا تقيمين للوفاء وزناً كبيراً... الوفاء للذكرى؟

- إنني أؤمن بأن الحاضر هو ما يهم... وليس الماضي، لا بد للماضي أن يذهب. إذا سعينا لإبقاء الماضي حياً فأعتقد أننا سننتهي إلى تشويهه، إلى النظر إليه بكثير من المبالغة، ومن منظور خاطئ.

قال ديفيد منفعلاً: أستطيع تذكر كل كلمة وكل حادث في تلك الأيام تماماً.

- نعم، ولكن عليك أن لا تفعل ذلك يا عزيزي! ليس طبيعياً أن تفعل ذلك! إنك تنظر إلى تلك الأيام نظرة صبي وتطلق عليها أحكام صبي بدلاً من النظر إليها الآن نظرة رجل متزنة معتدلة.

سألها ديفيد: وما الفرق في ذلك؟

ترددت هيلدا. كانت تدرك عدم الحكمة في الاستمرار، ومع ذلك كانت لديها أشياء تريد أن تقولها بلهفة. قالت: أعتقد أنك تنظر

إلى والدك كأنه الشيطان! لو نظرت إليه فربما أدركت أنه لم يكن إلا رجلاً عادياً جداً، رجلاً انجرف مع نزواته، رجلاً لا تكاد حياته تخلو مما يستحق اللوم، ولكنه -مع ذلك- مجرد رجل... وليس وحشاً قاسياً!

- أنت لا تفهمين! معاملته لأمي...

قالت هيلدا بجدية: يوجد نوع معين من الخنوع والخضوع الذي من شأنه أن يُظهر أسوأ ما في الرجل، بينما إذا وُوجه ذلك الرجل نفسه بالعزيمة والتصميم فقد يكون مخلوقاً مختلفاً!

- ما تقولينه -إذن- هو أن الغلطة كانت غلطتها...

قاطعته هيلدا: لا، بالطبع لا أقصد ذلك! لا أشك بأن والدك كان يعامل والدتك معاملة سيئة جداً. لكن الزواج أمر غير عادي، وأشكّ أن يكون لأي شخص من الخارج (حتى لو كان ذلك الشخص من الأبناء) الحق في إعطاء حكمه. وفوق ذلك فإن كل هذا الغيظ من جانبك لا يمكن أن يساعد والدتك الآن. لقد ذهب كل شيء... أصبح وراءك! كل ما تبقّى الآن هو رجل عجوز مريض يطلب من ابنه أن يأتي إلى البيت من أجل عيد الميلاد.

- وهل تريدينني أن أذهب؟

ترددت هيلدا، ثم قررت فجأة قائلة: نعم، أريدك أن تذهب وتواجه أباك لتتحرر من هذه الفكرة عنه مرة وإلى الأبد.

* * *

كان جورج لي (عضو البرلمان عن ويسترنغهام) رجلاً جسيماً إلى حد ما، في الحادية والأربعين من عمره، ذا عينين زرقاوين فاتحتين جاحظتين قليلاً توحيان بالشك، كما كان منتفخ الخدين. أما نطقه فكان بطيئاً يشدد على الألفاظ وصحة مخارجها.

قال الآن بأسلوب مسيطر: لقد أخبرتك -يا ماغدالين- بأنني أرى من واجبي أن أذهب.

رفعت زوجته كتفيها بصبر نافذ. كانت امرأة نحيفة ذات شعر أشقر بلاتيني وحاجبين مزوّقين ووجه بيضوي ناعم. كان بوسع وجهها -أحياناً- أن يبدو خالياً من أي تعبير كان، وكانت تبدو هكذا الآن. قالت: حبيبي، سيكون ذلك مقيتاً تماماً. أنا متأكدة من ذلك.

قال جورج وقد أشرق وجهه وكأن فكرة جذابة خطرت له: كما أن ذهابنا سيوفر علينا الكثير. إن عيد الميلاد يكون دائماً مناسبة باهظة التكاليف. نستطيع إعطاء الخدم الأجور المخفضة للإجازات فقط.

- آه، حسناً! إن عيد الميلاد مقيت جداً أينما كان!

قال جورج وهو يتابع نفس موضوعه: أظن أن الخدم يتوقعون تناول عشاء عيد الميلاد هنا؟ حسناً، بوسعهم تناول قطعة جيدة من لحم البقر بدل الديك الرومي المكلف.

- مَن؟ الخدم؟ آه، كفى يا جورج، إنك مشغول دائماً بالمال.

- لابد لأحد أن ينشغل بذلك.

- نعم، لكن من السخافة أن تبخل وتقتّر بهذه الطرق الصغيرة. لماذا لا تجعل والدك يعطيك مزيداً من المال؟

- إنه يعطيني راتبا جيداً جداً.

- أمر فظيع أن تعتمد كلياً على والدك كما تفعل أنت! كان يجب عليه أن يخصص لك مبلغاً خاصاً بك وحدك.

- هذه ليست طريقته في التصرف.

نظرت إليه ماغدالين وقد أصبحت عيناها العسليتان لاذعتين حادتين فجأة، وأظهر الوجه البيضاوي الخالي من التعبير معنى مفاجئاً، ثم قالت: إنه غني جداً يا جورج، أليس كذلك؟ إنه مليونير، أليس كذلك؟

- أظنه مليونيراً مضاعفاً.

تنهدت ماغدالين بحسد وقالت: كيف جمع كل هذه الثروة؟ من جنوب أفريقيا، أليس كذلك؟

- بلى، لقد جمع ثروة كبيرة هناك في شبابه، ومعظمها من الألماس.

- مثير جداً.

- ثم جاء إلى إنكلترا وبدأ العمل في الأعمال التجارية، وأعتقد أن ثروته تضاعفت مرتين أو ثلاثاً.

- ماذا سيحدث عندما يموت؟

- لم يفصح أبي أبداً عن الكثير حول هذا الأمر، وبالطبع لا يستطيع المرء أن يسأله عن ذلك تحديداً. يخيل إليّ أنه سيقسم جُلّ ثروته بيني وبين ألفرد، وسوف يحصل ألفرد -بالطبع- على الحصة الأكبر.

- لديك إخوة آخرون، أليس كذلك؟

- بلى؛ يوجد أخي ديفيد، ولكن لا أتصور أنه سيأخذ الكثير. لقد رحل ليقوم بأعمال الفن أو ما شابه ذلك من حماقات، وأعتقد أن والدي حذّره من أنه سيحرمه من الارث، وقال ديفيد إنه لا يهتم لذلك.

قالت ماغدالين باحتقار: يا لسخف ذلك!

- وكانت لنا أخت، جينفر، وقد رحلت مع أجنبي... فتان أسباني... وهو أحد أصدقاء ديفيد. لكنها توفيت قبل سنة فقط، وتركت وراءها بنتاً على ما أعتقد. قد يترك والدي بعض المال لها ولكن ليس الكثير. ويوجد هاري بالطبع...

سكت وهو محرج قليلاً، فقالت ماغدالين بدهشة: هاري؟ من هو هاري؟

- آه! إنه... إنه أخي.

- لم أعرف أبداً أن لك أخاً آخر.

- يا عزيزتي! إنه لم يكن مفخرة كبيرة لنا، ونحن لا نذكره. كان سلوكه مخزياً، ولم نسمع عنه شيئاً منذ سنوات. ربما كان ميتاً.

ضحكت ماغدالين فجأة، فسألها: ما الأمر؟ لماذا تضحكين؟

- كنت أفكر فقط كم هو غريب أن يكون لك -أنت يا جورج- أخ سيء السمعة! إنك شخصية محترمة جداً.

قال جورج ببرود: أرجو أن أكون كذلك.

ضاقت عيناها وسألته: إن والدك... ليس محترماً كثيراً يا جورج.

- يا لكلامك يا ماغدالين!

- الأشياء التي يقولها تجعلني أشعر أحياناً بالكثير من عدم الارتياح.

- إنك تفاجئينني حقاً يا ماغدالين. هل... هل تشعر ليديا بنفس الشعور؟

قالت: "إنه لا يقول نفس الأشياء لليديا". ثم أضافت غاضبة: كلا، إنه لا يقولها أبداً، لا أعرف السبب.

نظر إليها جورج بسرعة ثم أبعد نظره عنها وقال بشكل مبهم: آه، حسناً. يجب أن يلتمس المرء له الأعذار؛ فواحد في مثل سن والدي وصحته المتدهورة كثيراً...

ثم سكت، فسألته زوجته: أهو حقاً... مريض جداً؟

- ليس إلى هذا الحد، فهو ذو بنية قوية. ورغم ذلك، بما أنه يريد عائلته حوله في عيد الميلاد فإنني أرى أن علينا أن نذهب. قد يكون آخر عيد ميلاد يشهده.

قالت محتدة: أنت تقول لي هذا يا جورج، لكني أعتقد حقاً أنه قد يعيش سنوات؟

تلعثم زوجها وقد فوجئ قليلاً ثم قال: نعم... نعم، قد يعيش سنوات بالطبع.

ابتعدت ماغدالين وقالت: آه، حسناً، أظن أننا نفعل الصواب بذهابنا.

- لا أشك في ذلك.

- ولكني أكره ذلك! إن ألفرد ممل جداً، وليديا تعاملني بازدراء.

- هراء.

- إنها تفعل ذلك، كما أنني أكره ذلك الخادم الحيوان.

- العجوز تريسليان؟

- لا، بل هوربري، وهو يتسلل خلسة كالقطة ويتصنّع الابتسام.

- لا أفهم يا ماغدالين كيف يؤثر هوربري عليك بأي حال من الأحوال!

- إنه يثير أعصابي فقط، هذا كل ما في الأمر. ولكن دعنا لا نهتم لذلك. يجب أن نذهب، أفهمُ ذلك. لن ينفع إغضاب العجوز.

- نعم، نعم، تلك هي النقطة بالضبط. أما بخصوص عشاء عيد الميلاد للخدم...

- ليس الآن يا جورج؛ سنناقش ذلك في وقت آخر. سأتصل بليديا وأخبرها أننا قادمان في قطار الخامسة والثلث غداً.

تركت ماغدالين الغرفة مسرعة، وبعد أن اتصلت هاتفياً صعدت إلى غرفتها وجلست أمام المكتب. فتحت درجاً في المكتب، ثم بحثت فيه على غير هدى فتناثرت الفواتير التي كانت هناك. أخذتها ماغدالين محاولة ترتيبها في نظام معين، وفي النهاية تنهدت بصبر نافد وحزمتْها وألقتها في المكان الذي خرجت منه. مرّرت يدها على شعرها البلاتيني الناعم و تمتمت: ماذا عساني أفعل؟

* * *

كان في الطابق الأول من منزل غورستون هول ممر طويل يؤدي إلى غرفة كبيرة تطل على الواجهة الأماميه للمنزل. كانت غرفة مؤثثة أثاثاً من الطراز القديم المتميز بألوانه الزاهية، وقد كُسيت بورق جدران سميك ومقصب، واحتوت على مقاعد جلدية فاخرة ومزهريات كبيرة مزخرفة برسومات التنين وتماثيل برونزية... كل شيء فيها كان جليلاً وثمينا وثابتاً مكيناً.

وعلى مقعد كبير مريح (كان أكبرَ المقاعد وأكثرها فخامة) جلس العجوز بجسمه النحيل الأعجف. أسند إلى ذراعي المقعد يديه الطويلتين اللتين تنتهيان بما يشبه البراثن، وإلى جانبه عصا طليت من الأعلى بالذهب. كان يلبس عباءة قديمة رثة زرقاء اللون، وعند رجليه

نحلان خفيفان، وقد كان شعره أبيض وبشرة وجهه صفراء.

ولئن كان بوسع المراقب أن يرى فيه شخصية رثه تافهة فإن أنفه المعقوف الشامخ وعينيه السوداوين المترعتين حيوية من شأنها أن تدفع الملاحظ إلى تغيير رأيه. قهقه العجوز سيميون لي مع نفسه قهقهة مفاجئة عالية ثم قال: هل بلّغتَ رسالتي للسيدة ألفرد يا هذا؟

كان هوربري يقف بجانب مقعده، وقد ردّ بصوته الناعم المؤدب: نعم يا سيدي.

- بنفس الكلمات التي قلتها لك بالضبط؟ وانتبه لكلمة «بالضبط»؟

- نعم يا سيدي. لم أخطئ يا سيدي.

- نعم... أنت لا تخطئ، ومن الأفضل لك ألاّ تخطئ أيضاً، وإلاّ فستندم على ذلك. وماذا قالت لك يا هوربري؟ ماذا قال السيد ألفرد؟

سرد هوربري ما دار بهدوء ودون انفعال. قهقه العجوز ثانية وفرك كفيه معاً قائلاً: رائع، ممتاز. سوف يفكرون ويتعجبون... طوال المساء! رائع! سأحضرهم إليّ الآن. اذهب ونادهم.

- نعم يا سيدي.

سار هوربري بهدوء عبر الغرفة وخرج.

- آه، هوربري...

نظر العجوز حوله ثم شتم في سره وقال: هذا الرجل كالقطة. لا أعرف أبداً أين هو.

جلس ساكناً في كرسيه، وهو ينقر ذقنه بأصابعه إلى أن دق الباب ودخل ألفرد وليديا.

-آه، ها أنتما هنا، ها أنتما هنا. اجلسي هنا يا عزيزتي ليديا، بجانبي. ما أجمل هذا التورد في وجهك.

- كنت خارج البيت في البرد، وهذا يجعل وجنتي المرء تتورد.

قال ألفرد: كيف حالك يا أبي؟ هل استرحت جيداً بعد ظهر هذا اليوم؟

قال: "ممتاز...ممتاز. حلمت بالأيام الخوالي؛ الأيام القديمة قبل أن أستقر وأصبح من أعمدة المجتمع!". ثم أطلق ضحكة مفاجئة.

جلست زوجة ابنه صامتة مبتسمة ومصغية بأدب. وقال ألفرد: ما أمر هذين الضيفين الإضافيين القادمين إلى عيد الميلاد يا أبي؟

- آه، نعم، يجب أن أجيبك عن ذلك. سيكون عيد ميلاد عظيماً لي هذه السنة... عيد ميلاد عظيماً. دعني أفكر، إن جورج وماغدالين قادمان...

قالت ليديا: نعم، سيصلان غداً في قطار الساعة الخامسة والثلث.

قال العجوز سيميون: جورج المسكين الأحمق! رجل ثرثار. ومع ذلك فهو ابني.

قال ألفرد: إن ناخبيه يحبونه.

قهقه سيميون ثانية وقال: ربما حسبوه شريفاً. هَهْ... شريف! لم يولد شريف في عائلة لي بعد.

- آه، ما الذي تقوله يا أبي؟!

- أنا أستثنيك يا ولدي... أستثنيك.

سألته ليديا : وديفيد؟

- آه! ديفيد. إنني أتشوق لرؤية ذلك الولد بعد كل هذه السنين. كان شاباً عابثاً. أتساءل كيف هي زوجته؟ على أية حال لم يتزوج فتاة تصغره بعشرين سنة مثل ذلك الأحمق جورج!

قالت ليديا: كتبتْ هيلدا رسالة لطيفة جداً. لقد استلمت برقية منها الآن تؤكد الموعد وتقول إنهما سيصلان غداً بالتأكيد.

نظر إليها العجوز نظرة حادة عميقة النفاذ، ثم ضحك وقال: ليديا لا تتغير أبداً. إنني أقول هذا شهادة لك يا ليديا، إنك ابنة عائلة كريمة، والعِرْق ينبئ عن المرء. أعرف ذلك جيداً، رغم أن الوراثة أمر غريب. واحد فقط منكم ورث عني صفاتي... واحد فقط من بين كل هذه الجِراء.

رقصت عيناه وقال: والآن خمّنا من الذي سيأتي لعيد الميلاد.

سأعطيكما ثلاث فرص، وسأراهنكما بخمسة جنيهات على أنكما لن تعرفا الإجابة.

قلّب نظره من وجه لآخر. قال ألفرد عابساً: قال هوربري إنك تنتظر فتاة شابة.

- هذا يثير فضولك... نعم، أعتقد أنه أثارك. ستصل بيلار في أية لحظة الآن. لقد أعطيت أمري للسيارة لتذهب وتحضرها.

قال ألفرد بحدة: بيلار؟

- بيلار إيسترافادوس، ابنة جينفر، حفيدتي. إنني أتساءل كيف شكلها.

صاح ألفرد: يا إلهي! إنك لم تخبرني أبداً يا أبي...

ابتسم العجوز وقال: نعم. فكرت أن أجعل الأمر سراً!

كرر ألفرد كلامه بنبرة مجروحة عاتبة: لم تخبرني أبداً...

قال والده وهو ما يزال يبتسم ابتسامة شريرة: من شأن ذلك أن يفسد المفاجأة! ترى كيف سيكون الأمر عندما تأتي دماء شابة إلى هذا البيت ثانية؟ أنا لم أرَ إيسترافادوس أبداً. ترى أتشبه الفتاة أمها أم أباها؟

قال ألفرد: هل ترى يا أبي أن ذلك من الحكمة؟ إن أخذنا كل شيء بعين الاعتبار...

قاطعه العجوز: السلامة... السلامة. أنت كثير الحرص على

السلامة يا ألفرد، وقد كنت دوماً هكذا! ليست هذه طريقتي. افعل ما تشاء وليسخط عليك الآخرون! هذا ما أقوله! إن الفتاة حفيدتي. إنها الحفيدة الوحيدة في العائلة! لا يهمني ما كان والدها أو ماذا فعل... إنها لحمي ودمي، وهي قادمة لتعيش هنا في بيتي.

قالت ليديا محتدّة: أهي قادمة لتعيش هنا؟

ألقى عليها نظرة سريعة وقال: هل تمانعين؟

هزت رأسها وقالت مبتسمة: لا يسعني الاعتراض على دعوتك شخصاً إلى بيتك، أليس كذلك؟ لا، كنت فقط أتساءل عن... عنها.

- عنها... ماذا تقصدين؟

- إن كانت ستكون سعيدة هنا أم لا.

رفع العجوز سيميون رأسه وقال: إنها لا تملك قرشاً واحداً. يجب أن تكون شاكرة!

رفعت ليديا كتفيها حيرة. والتفت سيميون إلى ألفرد وقال: أترى؟ سيكون عيد ميلاد عظيماً! جميع أولادي حولي... جميع أولادي! في هذه العبارة -يا ألفرد- يكمن مفتاح لغزك. والآن خمّن من هو الزائر الآخر.

حدّق فيه ألفرد.

- جميع أولادي! خمّن يا ولد. هاري بالطبع... أخوك هاري!

شحب لون ألفرد وتلعثم قائلاً: هاري؟! لا أحسبك تعني هاري حقاً...

- بل هاري بنفسه!

- ولكنا حسبنا أنه مات!

- هاري يموت؟!

- أنت... أنت تعيده إلى هنا ثانية؟ بعد كل شيء؟

- الابن الضال، أليس كذلك؟ أنت على حق. ينبغي أن نحتفي بعودة الابن الضال يا ألفرد، ويجب أن نرحب به ترحيباً عظيماً.

قال ألفرد: لقد عاملك... بل عاملنا جميعاً بازدراء. إنه...

- لا داعي لسرد جرائمه؛ إنها لائحة طويلة! ولكن تذكّر أن عيد الميلاد موسم التسامح! سوف نرحب بعودة الابن الضال إلى بيته.

نهض ألفرد ودمدم قائلاً: إن هذا... صدمة. لم أكن أحلم أبداً بأن هاري سيدخل إلى هذا البيت ثانية.

مال سيميون إلى الأمام وقال بهدوء: أنت لم تحب هاري أبداً، أليس كذلك؟

- بعد الطريقة التي تصرف بموجبها معك...

قهقه سيميون وقال: آه، عفا الله عمّا سلف. هذه هي روح عيد

الميلاد، أليس كذلك يا ليديا؟

ليديا أيضاً كانت شاحبة، وقالت ببرود: أرى أنك فكرت كثيراً بخصوص عيد الميلاد هذه السنة.

- أريد عائلتي حولي... السلام والنوايا الحسنة. أنا رجل عجوز. ألنت ذاهب يا عزيزي؟

كان ألفرد قد أسرع خارجاً، فيما توقفت ليديا لحظة قبل اللحاق به.

أومأ سيميون برأسه وهو ينظر إلى ابنه يغادر وقال: لقد أزعجه ذلك؛ إنه لم ينسجم مع هاري أبداً. اعتاد هاري على السخرية من ألفرد، وكان يسميه السيد المتمهل الواثق.

انفرجت شفتا ليديا. كانت على وشك الكلام، ثم رأت تعابير اللهفة على وجه العجوز فسيطرت على نفسها. رأت أن ضبطها لنفسها قد خيّب أمله، وقد مكّنها إدراكها لتلك الحقيقة من أن تقول: قصة الأرنب والسلحفاة. آه، حسناً، السلحفاة هي التي تفوز في السباق.

- ليس دائماً... ليس دائماً يا عزيزتي ليديا.

قالت ليديا وهي ما زالت تبتسم: اعذرني، يجب أن ألحق بألفرد. الانفعالات المفاجئة تزعجه دائماً.

قهقه سيميون وقال: نعم، ألفرد لا يحب التغييرات؛ كان دائماً رزيناً جداً.

قالت ليديا: إن ألفرد متعلق بك كثيراً.

- هذا يبدو غريباً لك، أليس كذلك؟

- أحياناً يبدو كذلك.

تركت الغرفة، ونظر سيميون وراءها. ضحك بهدوء وفرك كفيه معاً وقال: الكثير من التسلية. ما زال أمامنا الكثير من التسلية؛ سوف أستمتع بعيد الميلاد هذا.

انتصب واقفاً بمجهود كبير، وعبر الغرفة متثاقلاً وهو يتكئ على عصاه. ذهب إلى خزنة كبيرة في زاوية الغرفة فأدار مقبض القفل الرقمي وفتح باب الخزنة وتحسس ما بداخلها بأصابع مرتعشة. أخرج حقيبة جلدية صغيرة وفتحها وترك مجموعة من أحجار الألماس غير المصقول تجري بين أصابعه قائلاً: حسناً يا جميلاتي، حسناً. لم تتغيرن بعد.ما زلتن صديقاتي القديمات. كانت تلك أياماً جيدة... أياماً جيدة. إنهم لن يصقلوكن يا صديقاتي. لن تُعلَّقن حول رقاب النساء أو تُلبسن في أصابعهن أو تُعلقن في آذانهن. أنتن لي! صديقاتي القديمات! إننا نعرف بعض الأشياء، أنتن وأنا. يقولون إنني كبير ومريض، ولكن وقتي لم يحن بعد! ما يزال في الكلب العجوز الكثير من الحياة، وما تزال في الحياة بعض المتع التي ينبغي نيلها. ما تزال أمامي بعض التسلية...

* * *

الفصل الثاني
الثالث والعشرون من كانون الأول

ذهب تريسليان للرد على جرس الباب. كان رنيناً قوياً بشكل غير عادي، والآن قبل أن يتمكن من عبور الصالة بمشيته البطيئة رنّ مرة أخرى.

احمرّ وجه تريسليان غضباً. طريقة غير مهذبة في قرع جرس بيت رجل محترم! رأى من خلال الزجاج المحجّر في النصف العلوي من الباب خيالاً... رجلاً ضخماً يضع قبعته وقد أنزل حافتها المترهلة إلى الأسفل. فتح الباب. لقد صدق حدسه... غريب تافه يرتدي بدلة سيئة الطراز ومبهرجة. لابد أنه متسول وقح.

قال الغريب: إنه تريسليان والله! كيف حالك يا تريسليان؟

حدّق به تريسليان، ثم سحب نَفَساً عميقاً وحدّق ثانية: ذلك الفك المتحدّي والأنف المرتفع والعين المرحة. نعم، كانت كل هذه الملامح موجودة منذ سنوات، ولكنها لم تكن بمثل هذا الوضوح والحدة.

قال لاهثاً: السيد هاري؟!

ضحك هاري لي: يبدو وكأن رؤيتي شكلت صدمة لك. لماذا؟ إنكم تتوقعون حضوري، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي، بالتأكيد يا سيدي.

- إذن لماذا المفاجأة؟

تراجع هاري خطوة إلى الوراء ورفع بصره إلى البيت؛ كتلة ضخمة من الآجر الأحمر، يفتقر بناؤه إلى الخيال، ولكنه ثابت مكين. قال: نفس القصر القديم القبيح، ومع ذلك فإنه لم يزل صامداً. هذا أهم شيء. كيف حال أبي يا تريسليان؟

- إنه عاجز نوعاً ما يا سيدي. يبقى في غرفته ولا يستطيع التنقل كثيراً، ولكنه جيد تماماً بالنسبة لمن هم في مثل سنّه.

- الآثم العجوز!

دخل هاري وترك تريسليان يريحه من وشاحه وقبعته المسرحية.

- كيف حال أخي العزيز ألفرد يا تريسليان؟

- إنه بأفضل حال يا سيدي.

ابتسم هاري وقال: إنه يتطلع لرؤيتي؟ أليس كذلك؟

- أظن ذلك يا سيدي.

أنا لا أظن ذلك! على العكس تماماً. أنا واثق أن قدومي

شكّل له صدمة شديدة! أنا وألفرد لم نتوافق أبداً. هل تقرأ القصص الدبنية يا تريسليان؟

- نعم يا سيدي، أحياناً.

- هل تتذكر قصة عودة الابن الضال؟ إن عودته لم تَرُق للأخ الطيب، أتذكر ذلك؟ لم تعجبه أبداً! أنا متأكد أن ألفرد القابع في بيته لا يحب عودتي هو أيضاً.

بقي تريسليان صامتاً مطرقاً فيما كان ظهره المتصلب يوحي بالاحتجاج. ربت هاري على كتفه وقال: هيا أيها العجوز، لا بد أن الجميع بانتظاري. ألا تقودني إليهم؟

همس تريسليان: لو تأتي من هذا الطريق إلى غرفة الاستقبال يا سيدي. لست متأكداً من مكان وجود الجميع. لم يتمكنوا من إرسال أحد لاستقبالك يا سيدي لأنهم لا يعرفون ميعاد وصولك.

أومأ هاري برأسه وتبع تريسليان إلى الصالة وهو يلتفت برأسه وينظر من حوله، وقال: أرى أن كل المعروضات القديمة في مكانها. لا أعتقد أن شيئاً قد تغير منذ أن رحلت قبل أمد طويل.

تبع تريسليان إلى قاعة الاستقبال. تمتم الرجل العجوز قائلاً: "سأرى إن كان بوسعي العثور على السيد ألفرد وزوجته". ثم أسرع خارجاً.

دخل هاري إلى الغرفة ثم توقف وهو يحدّق بالمرأة الجالسة على عتبة النافذة. جالت عيناه على الشعر الأسود والبشرة الشاحبة

الغريبة كمن لا يصدق ما يراه ثم قال: يا إلهي! ألأنت زوجة أبي السابعة والأكثر جمالاً؟

نزلت بيلار عن العتبة واقتربت منه. قالت: أنا بيلار إيسترافادوس، ولابد أنك خالي هاري.

قال هاري دَهِشاً: إذن هذا أنت؟ ابنة جينفر.

- لماذا سألتني إن كنت زوجة أبيك السابعة؟ هل كانت له حقاً ست زوجات؟

ضحك هاري وقال: لا، لم تكن له سوى زوجة واحدة رسمياً كما أظن. حسناً يا بيل... ما اسمك؟

- بيلار، نعم.

- حسناً يا بيلار، إنه لمما يسعدني حقاً أن أرى وردة مثلك تزهر في هذا القبر.

- هل هذا... قبر؟

- هذا متحف للتماثيل المحنطة! كنت دائماً أرى هذا البيت قذراً، والآن أراه مرة أخرى وقد أصبح أقذر من قبل!

قالت بيلار مصدومة: آه، لا، المكان جميل جداً هنا! الأثاث جيد والسجاد... سجاد سميك في كل مكان، ويوجد الكثير من التحف. كل شيء من نوعية فاخرة وثمينة جداً!

قال هاري مبتسماً: "أنت على حق في هذا". ثم نظر إليها ضاحكاً وقال: لا أملك إلا أن أشعر بالإثارة وأنا أراك في وسط...

سكت عندما دخلت ليديا إلى الغرفة بسرعة.

- كيف حالك يا هاري؟ أنا ليديا... زوجة ألفرد.

- كيف حالك يا ليديا؟

صافحها وهو يمعن النظر في وجهها الذكي متقلب التعابير، وبنظرة سريعة أعجبته طريقة مشيها. إن قلة قليلة من النساء فقط يتحركن بطريقة جيدة.

نظرت ليديا -بدورها- إليه نظرة سريعة، وفكرت في نفسها: "إنه يبدو بالغ القوة وجذاباً، ومع ذلك ما كنت لأثق به لحظة واحدة".

قالت وهي تبتسم: كيف يبدو البيت بعد كل هذه السنين؟ مختلفاً تماماً أم على حاله؟

نظر حوله وقال: على حاله تماماً، ولكن هذه الغرفة تغير ديكورها.

- آه، عدة مرات.

- عنيت أنها تغيرت على يديك. أنت التي جعلتِها مختلفة.

- نعم، أظن ذلك.

ابتسم لها ابتسامة شيطانية مفاجئة ذكّرتها بالرجل العجوز في الطابق الأعلى.

- إن بها الآن ذوقاً أكثر! أتذكر أنني سمعت أن ألفرد قد تزوج

فتاة كان أجدادها من النورمانديين الذين جاؤوا إلى هذا البلد مع ويليم الفاتح.

ابتسمت ليديا وقالت: لعلهم كذلك، ولكنهم ضعفوا بمرور القرون.

- كيف أحوال ألفرد؟ أما يزال على عقليته الجامدة كما كان دوماً؟

- لا أعرف إن كنت ستجده قد تغير أم لا.

- وكيف حال الآخرين؟ هل تفرقوا في جميع أنحاء إنكلترا؟

- لا. إنهم هنا جميعاً لقضاء عيد الميلاد.

فتح هاري عينيه وقال: عيد ميلاد رائع للمّ شمل العائلة، أليس كذلك؟ ما الذي أصاب الرجل العجوز؟ لقد اعتاد أن لا يلتفت إلى العواطف أبداً. كما أنني لا أذكره بالغَ الاهتمام بالعائلة. لابد أنه تغير!

- ربما.

كان صوت ليديا جافاً. وكانت بيلار تحدّق وقد اتسعت عيناها وبدا فيهما الاهتمام.

قال هاري: وكيف حال جورج؟ أما زال بخيلاً كما كان؟ كان يولول إذا اضطر لصرف قرش من مصروفه!

قالت ليديا: جورج في البرلمان؛ إنه عضو عن ويسترنغهام.

- ماذا؟ الجاحظ في البرلمان؟! يا إلهي، هذا رائع!

ألقى هاري برأسه إلى الوراء وضحك. كانت ضحكة عالية قوية بدت منفلتة قاسية في الحيز المحدود للغرفة. سحبت بيلار أنفاسها بشهقة، فيما انكمشت ليديا قليلاً.

ثم توقف هاري عن الضحك عندما سمع حركة وراءه والتفت بحدّة. لم يكن قد سمع صوت أحدٍ يدخل، ولكن ألفرد كان يقف هناك بهدوء وينظر إلى هاري وعلى وجهه تعبير غريب.

وقف هاري دقيقة، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة بطيئة. تقدم خطوة وقال: آه، إنه ألفرد!

أومأ ألفرد برأسه وقال: مرحباً يا هاري.

وقف كل منهما يحدق بأخيه، وحبست ليديا أنفاسها وهي تفكر في نفسها: كم هو موقف سخيف! مثل كلبين... يتبادلان النظرات بكل تأهب.

اتسعت عينا بيلار أكثر. فكرت في نفسها: كم يبدو سخيفاً أن يقفا هكذا هناك. لماذا لا يتعانقان؟ لا، فالإنكليز -بالطبع- لا يفعلون ذلك. ولكن بوسعهم أن يقولوا شيئاً، لماذا يكتفيان بمجرد النظر؟

قال هاري أخيراً: حسناً، حسناً. أشعر أن من الغريب أن أكون هنا مرة أخرى!

- أعتقد ذلك. نعم؛ فقد مضت سنوات طويلة منذ أن... خرجت.

رفع هاري رأسه ومرّر إصبعه على طرف خدّه. كانت هذه حركة

معتادة منه توحي بالعدائية، ثم قال: نعم، أنا مسرور بعودتي... للبيت.

نطق تلك الكلمة الأخيرة بعد لحظة صمت حاول فيها شحن الكلمة بأكبر الدلالات.

* * *

قال سيميون لي: أحسب أنني كنت شريراً جداً.

كان يجلس مستنداً بارتياح إلى مسند كرسيه، مرفوع الذقن، يربت بإصبعه على خده متأملاً، وأمامه اشتعلت نار كبيرة تتأجج وتتراقص. جلست بيلار إلى جانب النار وهي تحمل بيدها قطعة من الورق المقوى تحجب بها وجهها عن لهب النار، وكانت تستخدمها كمروحة من وقت لآخر. ونظر سيميون إليها برضا.

واصل حديثه، وربما كان يتحدث مع نفسه أكثر من حديثه مع الفتاة وقد حفَّزه وجودها: نعم، كنت رجلاً شريراً. ماذا تقولين عن هذا يا بيلار؟

رفعت بيلار كتفيها لامبالية وقالت: جميع الرجال أشرار.

ضحك سيميون وقال: آه، لكنني كنت أكثرهم شراً، وأنا لا أندم على ذلك. نعم، لا أندمُ على أي شيء. لقد متّعت نفسي... في كل دقيقة! يقولون إن الإنسان يتوب عندما يشيخ، وهذا هراء. أنا لم أتُب. وكما قلت لك؛ فقد ارتكبتُ معظمَ الخطايا... جميع الآثام القديمة! لقد غششت وسرقت وكذبت، نعم! والنساء... دائماً نساء!

أخبرني أحدهم -قبل أيام- عن زعيم قبيلة أفريقي لديه أربعون مرافقاً حارساً كلهم أبناؤه، وكلهم من نفس العمر تقريباً! آها! أربعون! لن أدعي تحقيق مثل هذا الرقم، ولكني واثق أن باستطاعتي أن أشكل حاشية كبيرة جداً لو ذهبت بحثاً عن ثمار أخطائي مع النساء. ما رأيك بهذا يا بيلار؟ صُدمت؟

حدقت به بيلار وقالت: لا، ولماذا أُصدَم؟ الرجال يخونون النساء دائماً؛ لذلك غالباً ما ترى الزوجات بائسات.

بدا العجوز سيميون عابساً، ثم قال: لقد سببت لأديليد الحزن.

كان يتكلم بصوت منخفض ومع نفسه تقريباً: يا إلهي، يا لها من امرأة! كانت بيضاء متوردة الخدين جميلة عندما تزوجتها، وبعد ذلك كانت تولول وتبكي دائماً. عندما تكون المرأة دائمة البكاء تثير في زوجها حنقاً وغضباً رهيبين. لم تملك الشجاعة، وتلك كانت مشكلة أديليد. لو أنها وقفت وواجهتني! لكنها لم تواجهني أبداً... ولا حتى مرة واحدة. عندما تزوجتها تصورتُ أنني سأتمكن من الاستقرار وإنشاء عائلة والابتعاد عن الحياة القديمة...

تلاشى صوته، وظلّ يحدّق وسط النار المضطرمة: إنشاء عائلة... يا إلهي، أية عائلة هذه!

ضحك ضحكة ساخرة غاضبة مفاجئة ثم قال: انظري إليهم؛ ليس بينهم طفل يحمل اسم العائلة! ما بالهم؟ أليس في عروقهم بعض من دمائي؟ ليس فيهم من أنجب طفلاً... شرعياً أو غير شرعي. ألفرد على سبيل المثال... يا إلهي! كم أشعر بالضجر من ألفرد وهو

ينظر إليّ بعينيه اللتين تشبهان عيني الكلب، مستعداً لأن يفعل أي شيء أطلبه منه. ياله من أحمق! أما زوجته، ليديا، فأنا أحبها. إنها شجاعة، رغم أنها لا تحبني. نعم، إنها لا تحبني، ولكن عليها أن تتحملني من أجل ذلك المغفل ألفرد.

نظر إلى الفتاة الجالسة بجانب النار وقال: تذكّري يا بيلار، ما من شيء يبعث على الملل مثل الحب والتعلق.

ابتسمت له، فاستمر في حديثه وقد تحمس بوجودها إلى جانبه: أما جورج، فمن هو جورج؟ أحمق ثقيل الظل، ومغفل بدين! متبجح مغرور لا عقل له ولا جرأة... وفوق ذلك بخيل أيضاً! وديفيد؟ كان ديفيد أحمق دائماً... أحمق وحالماً. إنه ابن أمه، هكذا كان ديفيد دائماً. التصرف العاقل الوحيد الذي فعله في حياته هو زواجه بتلك المرأة القديرة ذات المظهر المريح.

ضرب يده بقوة على ذراع الكرسي وقال: هاري هو أفضلهم! هاري المسكين، الولد السيء. ولكنه -على أية حال- يشعرك بالحيوية!

وافقته بيلار: نعم، إنه لطيف. إنه يضحك، يضحك عالياً. وعندما يضحك يلقي برأسه إلى الوراء. آه، نعم، أنا أحبه كثيراً.

نظر العجوز إليها وقال: نعم، إنك تحبينه، أليس كذلك يا بيلار؟ لقد كانت لهاري دوماً جاذبية لدى النساء؛ لقد ورث ذلك عني.

بدأ يضحك ضحكة بطيئة أشبه بالصفير، ثم قال: لقد عشتُ

حياة رائعة... حياة رائعة جداً، ونلت الكثير من كل شيء.

- عندنا في إسبانيا مثل معناه: "خذ ما تحب وادفع ثمنه".

ضرب سيميون على ذراع كرسيه بإعجاب وقال: هذا جيد؛ تلك هي الحكمة. خذ ما تحب... لقد فعلت ذلك طوال حياتي. أخذت ما أريده.

قالت بيلار وقد ارتفع صوتها ووضح وأصبح فجأة ملفتاً للنظر: وهل دفعت ثمن ذلك؟

توقف سيميون عن الضحك. انتصب في جلسته وحدق فيها قائلاً: ماذا قلت؟

- قلت: هل دفعت ثمن ذلك يا جدي؟

قال سيميون لي ببطء: "إني... لا أعرف..."، ثم صاح فجأة صيحة غضب مفاجئ وهو يضرب بقبضته على ذراع الكرسي: ما الذي جعلك تقولين هذا أيتها البنت؟ ما الذي جعلك تقولين هذا؟

- كنت... أتساءل.

توقفت يدها التي تحمل الورقة عن الحركة. كانت عيناها داكنتين غامضتين، وجلست وقد ألقت برأسها إلى الوراء.

قال سيميون: يا ابنة الشيطان!

قالت بهدوء: لكنك تحبني يا جدي، وتحب أن أجلس هنا معك.

- نعم، أحب ذلك. لم أر فتاة شابة ذات حيوية منذ زمن طويل. هذا يجعلني أشعر بتحسن، وأنت من لحمي ودمي. لقد أحسنت جينفر صنعاً؛ لقد تبين أنها أفضل الأولاد!

جلست بيلار هناك تبتسم. فقال لها: ولكنك لا تستطيعين خداعي. أعرف لماذا تجلسين هنا صابرة وتستمعين إلي وأنا أثرثر. إنه المال... الأمر كله يرجع إلى المال. أم أنك تتظاهرين بأنك تحبين جدك العجوز؟

- لا، لا أحبك، ولكنك تعجبني، تعجبني كثيراً. يجب أن تصدق هذا لأنه صحيح. أظنك كنت شريراً، لكن ذلك يعجبني أيضاً. أنت أكثر واقعية من الآخرين في هذا البيت، ولديك أشياء مشوقة تقولها. لقد سافرتَ وعشت حياة كلها مغامرات. لو كنتُ رجلا لكنت مثلك أيضاً.

أومأ سيميون برأسه وقال: نعم، أظنك كذلك... إن في عروقنا دماء غجرية، هكذا يقولون دائماً. لم يظهر ذلك كثيراً على أطفالي (ما عدا هاري) ولكني أعتقد أنه ظاهر عليك. أنبهك إلى أني أستطيع أن أكون صبوراً عندما يكون ذلك ضرورياً. لقد انتظرت -ذات مرة- خمس عشرة سنة حتى أنتقم من رجل آذاني. هذه صفة أخرى في عائلة لي... إنهم لا ينسون! سينتقمون لظلم أصابهم حتى لو احتاج الأمر انتظار سنوات للقيام بذلك. لقد خدعني رجل فانتظرت خمسة عشر عاماً إلى أن وجدت فرصتي... ثم قمت بالضربة. لقد حطمته؛ أزلته من الوجود!

ضحك بهدوء. فقالت بيلار: أكان ذلك في جنوب أفريقيا؟

- نعم، إنها بلاد عظيمة.

- هل عدت إلى هناك؟

- عدت إلى هناك بعد زواجي وبقيت خمس سنوات، وكانت تلك آخر مرة.

- ولكن قبل ذلك؟ هل عشت هناك عدة سنوات؟

- نعم.

بدأ يتحدث، وأصغت بيلار وهي تستر وجهها. تباطأ صوته وسئم إلى أن قال: انتظري، سأريك شيئاً.

نهض بحذر، ثم سار في الغرفة ببطء مستنداً على عكازته. فتح الخزنة الكبيرة، والتفت مشيراً إليها بأن تأتي إليه: انظري إلى هذه. تحسسيها، دعيها تجري بين أصابعك.

نظر إلى وجهها المدهوش وقال: هل تعرفين ما هذه؟ ألماسات يا طفلتي، ألماسات.

فتحت بيلار عينيها. قالت وهي تنحني فوقها: ولكنها مجرد مجموعة من الحصى البلورية فقط.

ضحك سيميون: إنها أحجار الماس غير مصقولة. هكذا تُكتشف أساساً... على هذه الحالة.

سألته بيلار غير مصدقة: وهل ستكون أحجار الماس حقيقية إذا صُقلت؟

- بالتأكيد.

- هل ستومض وتتلألأ؟

- ستومض وتتلألأ.

قالت بيلار بأسلوب طفولي: أوووه، لا أصدق ذلك!

قال مستمتعاً: إنه صحيح تماماً.

- وهل هي ثمينة؟

- غالية جداً. من الصعب القول قبل صقلها. على أية حال فهذه المجموعة الصغيرة تقدّر بعدة آلاف من الجنيهات.

قالت بيلار بكلمات متقطعة: عدة... آلاف... من... الجنيهات؟

- ربما تسعة آلاف أو عشرة؛ إنها أحجار كبيرة نسبياً كما ترين.

سألته بيلار وقد فتحت عينيها: ولكن لِمَ لا تبيعها إذن؟

- لأني أحب وجودها معي هنا.

- ولكن كل هذه الأموال؟

- لا أحتاج إلى الأموال.

قالت بيلار متأثرة: آه! فهمت. ولكن لماذا لا تصقلها وتجعلها جميلة؟

- لأني أفضّلها هكذا.

تجهم وجهه والتفت بعيداً وبدأ يحدث نفسه: إنها تعيدني إلى الماضي... لمْسُها، تحسّسُها وهي بين أصابعي... كل هذا يعيدني

إلى أشعة الشمس، ورائحة المرج، والثيران، والعجوز إيب وجميع الأولاد، والأمسيات...

سُمِعَ طرقٌ خفيف على الباب فقال سيميون: "أعيديها إلى الخزنة وأغلقيها بقوة". ثم نادى: ادخل.

دخل هوربري هادئاً مؤدباً وقال: الشاي جاهز في الطابق الأسفل.

* * *

قالت هيلدا: إذن أنت هنا يا ديفيد. كنت أبحث عنك في كل مكان. دعنا نغادر هذه الغرفة؛ فالجو فيها بارد جداً.

لم يردّ ديفيد عليها للحظات. كان واقفاً ينظر إلى كرسي، كرسي منخفض منجّد بقماش الساتان الباهت اللون. قال فجأة: هذا كرسيها، الكرسي الذي كانت تجلس عليه دائماً، باقٍ كما هو... كما هو تماماً. ولكنه باهت بالطبع.

ظهر العبوس على جبين هيلدا وقالت: فهمت. دعنا نخرج من هنا يا ديفيد؛ إن الجو بارد كثيراً.

لم يلتفت ديفيد إليها، بل قال وهو ينظر حوله: كانت تجلس هنا معظم الوقت. أتذكّر أنني كنت أجلس على ذلك الكرسي حينما كانت تقرأ لي قصة «جاك القاتل العملاق» نعم، كانت تلك هي القصة... «جاك القاتل العملاق». لابد أنني كنت في السادسة من عمري في ذلك الوقت.

أدخلت هيلدا يدها القوية تحت ذراعه وقالت: لنعُدْ إلى غرفة الاستقبال يا عزيزي؛ لا توجد تدفئة في هذه الغرفة.

استدار طائعاً، ولكنها أحست برعشة خفيفة تسري في جسده، ثم تمتم قائلاً: كل شيء على حاله تماماً... كل شيء على حاله، وكأنّ الزمن قد توقف.

بدا القلق على هيلدا وقالت بصوت حازم مبتهج: ترى أين الآخرون؟ لا بد أن وقت الشاي قد اقترب.

حرّر ديفيد ذراعه وفتح باباً آخر: كان يوجد بيانو هنا عادة... آه، نعم، ها هو! ترى أما زال يعمل؟

جلس وفتح غطاء البيانو ثم مرّر أصابعه على مفاتيحه بحركات خفيفة وقال: نعم، من الواضح أنه في حالة جيدة.

بدأ يعزف. كان عزفه جيداً والنغمات تتدفق من تحت أصابعه، وسألته هيلدا: ما هذا اللحن؟ يبدو أنني أعرفه ولا أستطيع تذكره تماماً.

- لم أعزفه منذ سنوات. كانت هي تعزفه باستمرار. إنه مقطع من «أغانٍ دون كلمات» للموسيقي ميندلسُن.

ملأت الأنغام العذبة، العذبة جداً، جو الغرفة. قالت هيلدا: اعزف شيئاً لموزارت.

هز ديفيد رأسه بالرفض، ثم بدأ يعزف مقطوعة أخرى لميندلسن. ثم ضرب بيديه فجأة على مفاتيح البيانو محدثاً صوتاً

نشازاً عالياً ونهض. كان جسمه يرتجف كله، فذهبت هيلدا إليه وقالت: ديفيد... ديفيد.

- لا شيء... لا شيء.

* * *

رن الجرس بقوة، فنهض تريسليان عن مقعده في حجرة الأواني وذهب بطيئاً صوب الباب.

رن الجرس ثانية. قطب تريسليان جبينه، ورأى من خلال الزجاج المحجَّر للباب شبحاً يلبس قبعة أُنزلت حوافُّها للأسفل. مسح تريسليان بيده على جبهته وقد أقلقه شيء ما؛ بدا وكأنه شيء يتكرر حدوثه. لقد حدث هذا من قبل بالتأكيد، بالتأكيد!

أزاح المزلاج ثم فتح الباب، وهنا انتهى تشابه الأحداث. قال الرجل الواقف هناك: أهذا هو بيت السيد سيميون لي؟

- نعم يا سيدي.

- أريد أن أراه من فضلك.

استيقظ في تريسليان صدى ذكرى ضعيفة. كانت تلك نبرة صوت تذكرها من قديمٍ عندما جاء السيد لي إلى إنكلترا أول مرة.

هز تريسليان رأسه متردداً وقال: السيد لي مريض يا سيدي. إنه لا يرى كثيراً من الناس الآن. لو أنك...

قاطعه الغريب إذ أخرج ظرفاً وسلّمه للخادم قائلاً: أرجو أن تعطي هذا للسيد لي.

- حاضر يا سيدي.

* * *

أخذ سيميون لي الظرف، وأخرج منه الورقة الوحيدة التي فيه. بدا مدهوشاً، ثم ارتفع حاجباه، لكنه ابتسم وقال: أليس هذا عجيباً!

ثم قال للخادم: أحضر السيد فار إلى هنا يا تريسليان.

- حاضر يا سيدي.

قال سيميون: كنت -لتوي- أفكّر في العجوز إيبنزر فار. كان شريكي هناك في كيمبرلي، والآن، ها هو ابنه قد جاء!

وسرعان ما عاد تريسليان وقال: السيد فار.

دخل ستيفن فار وقد بدا عليه أثر من الارتباك، وقد أخفاه بتصنع الأهمية والتبجح. قال بلهجة جنوب أفريقيا التي بدت للحظة أكثر بروزاً من المعتاد: السيد لي؟

- أنا مسرور لرؤيتك. أنت ابن إيب إذن؟

ابتسم ستيفن فار بتكشيرة توحي بالخنوع، وقال: إنها زيارتي الأولى للبلد الأم. كان أبي يوصيني دائماً أن أزورك إذا جئت إلى هنا.

- حسن جداً.

نظر العجوز حوله وقال: هذه حفيدتي، بيلار إيسترافادوس.

قالت بيلار باحتشام: تشرفنا.

فكر ستيفن فار بشيء من الإعجاب: "يا للشيطانة وبرودها! لقد فوجئتْ برؤيتي، ولكن ذلك لم يظهر إلاّ كلمحة سريعة". ثم خاطبها قائلاً: أنا مسرور جداً بالتعرف إليك يا آنسة إيسترافادوس.

- شكراً لك.

قال سيميون لي: اجلس وأخبرني بكل شيء عن نفسك. هل ستبقى في إنكلترا فترة طويلة؟

- آه، لن أستعجل الآن وقد وصلت إلى هنا.

ضحك وهو يلقي برأسه إلى الوراء. فقال سيميون لي: حسناً، يجب أن تبقى هنا معنا لفترة.

- أرجوك يا سيدي، لا أستطيع التطفل عليكم هكذا. لم يبقَ لعيد الميلاد إلا يومان فقط.

- يجب أن تقضي عيد الميلاد معنا... إلاّ إذا كانت لديك خطط أخرى؟

- لا، في الواقع ليست عندي خطط أخرى، لكني لا أحب...

قال العجوز: "انتهينا إذن". ثم التفت وقال: بيلار؟

- نعم يا جدي.

- اذهبي وأخبري ليديا بأن لدينا ضيفاً آخر، واطلبي منها أن تأتي إلى هنا.

غادرت بيلار الغرفة، وتبعها ستيفن بنظراته. لاحظ سيميون ذلك ثم قال: هل جئت إلى هنا من جنوب أفريقيا مباشرة؟

- تماماً.

أخذا يتحدثان عن ذلك البلد. ودخلت ليديا بعد بضع دقائق فقال لها سيميون: هذا ستيفن فار، ابن صديقي القديم وشريكي إيبنزر فار، وسيقضي معنا عيد الميلاد. أرجو أن تجدي له غرفة.

ابتسمت ليديا وقالت: بالطبع.

تأملت مظهر الرجل الغريب، وجهه البرونزي وعينيه الزرقاوين ورأسه الذي يرتد إلى الخلف بحركة طبيعية. قال سيميون: إنها زوجة ابني.

قال ستيفن: إنني أشعر بالحرج لتطفلي على حفلة عائلية كهذه.

قال سيميون: أنت من العائلة يا ولدي، اعتبر نفسك هكذا.

أنت لطيف جداً يا سيدي.

دخلت بيلار الغرفة ثانية وجلست بهدوء بجانب النار، ثم أخذت الورق المقوى وراحت تستخدمه كمروحة محرّكةً رسغها ببطء جيئة وذهاباً، وهي تنظر إلى الأسفل بعينين خفرتين.

* * *

الفصل الثالث

الرابع والعشرون من كانون الأول

سأل هاري: "أتريدني -حقاً- أن أبقى هنا يا أبي؟"، ثم رفع رأسه إلى الوراء وقال: إن وجودي يثير متاعب ومعارضة شديدة كما تعلم.

سأله سيميون بحدة: ماذا تقصد؟

- أخي ألفرد، أخي الطيب ألفرد! إنه يستاء من وجودي هنا، إن جاز لي القول.

صاح سيميون غاضباً: فليشرب البحر! أنا السيد في هذا البيت.

- ومع ذلك يا سيدي، أظن أنك تعتمد كثيراً على ألفرد. لا أريد أن أضايق...

قال والده محتداً: ستفعل ما أقوله لك.

تثاءب هاري وقال: لا أعرف إن كنت سأتمكن من تحمّل حياة

تُقضى في المنزل؛ فذلك أمر خانق بالنسبة لرجل طاف العالم كله.

- من الأفضل أن تتزوج وتستقر.

- مَن عساني أتزوج. من المؤسف أن لا يستطيع المرء الزواج بابنة أخته؛ إن الصغيرة بيلار شديدة الجاذبية.

- هل لاحظتَ هذا؟

- بمناسبة الحديث عن الاستقرار، فإن جورج البدين قد فعل جيداً كما يبدو. من هي زوجته؟

رفع سيميون كتفيه بلا مبالاة وقال: كيف لي أن أعرف؟ أظن أن جورج التقطها من عرضٍ للأزياء. إنها تقول إن والدها ضابط بحرية متقاعد.

- ربما كان مساعد قبطان في سفينة تجارية صغيرة. سيجد جورج معها بعض المتاعب إن لم يكن حذراً.

- إن جورج مغفل.

- ما الذي دفعها للزواج به؟ ماله؟

رفع سيميون كتفيه بلامبالاة مرة أخرى، فقال هاري: حسناً، هل تعتقد أنك تستطيع تسوية الأمر مع ألفرد؟

قال سيميون عابساً: سنسوي هذا في الحال.

ضغط على الجرس الموجود على طاولة مجاورة له، فظهر هوربري على الفور. قال سيميون: اطلب من السيد ألفرد أن يأتي إلى هنا.

خرج هوربري، فقال هاري: هذا الرجل يتنصت على الأبواب!

رفع سيميون كتفيه وقال: ربما.

جاء ألفرد مسرعاً، وانقبض وجهه عندما رأى أخاه. قال وهو يدخل في الموضوع مباشرة متجاهلاً هاري: هل أردتني يا أبي؟

- نعم، اجلس. كنت أفكر بأن علينا الآن أن نعيد تنظيم الأمور قليلاً إذ أصبح لدينا شخصان آخران يعيشان في هذا البيت.

- شخصان؟

- من الطبيعي أن بيلار ستعيش هنا، وهاري سيعيش هنا إلى الأبد.

- هاري سيأتي ليعيش هنا؟

سأله هاري: و لِمَ لا يا أخي؟

التفت ألفرد إليه بحدة وقال: أظن أن من شأنك أنت أن تعرف لماذا!

- حسناً، إني آسف... ولكني لا أعرف ذلك.

- بعد كل ما حدث؟ والطريقة المخزية التي تصرفت بها. الفضيحة...

نحّى هاري ذلك بإشارة من يده وقال: كان ذلك كله في الماضي يا أخي.

- لقد تصرفتَ مع والدي بطريقة بغيضة رغم كل ما عمله لك.

- اسمع يا ألفرد، يبدو لي أن هذا من شأن والدي وليس من شأنك. إن كان مستعداً لأن يسامح وينسى...

قال سيميون: أنا مستعد لذلك؛ فهاري ابني رغم كل شيء يا ألفرد.

- نعم، ولكن... إني أكره ذلك... من أجل أبي.

قال سيميون: "هاري سيأتي هنا، وأنا راغب بذلك!". ثم وضع يده على كتف هاري بلطف وقال: إنني أحب هاري كثيراً.

نهض ألفرد وترك الغرفة بوجهٍ شاحب، ونهض هاري أيضاً وذهب وراءه وهو يضحك.

جلس سيميون يضحك مع نفسه، ثم جفل ونظر حوله قائلاً: مَن هذا بربكم؟ آه، هذا هوربري. كُفَّ عن التسلل في البيت بهذا الشكل.

- ماذا قلت يا سيدي؟

- لا عليك. اسمع، عندي لك بعض التعليمات. أريد من الجميع أن يصعدوا إلى هنا بعد الغداء... الجميع.

- نعم، يا سيدي.

- وشيء آخر: عندما يأتون تعال معهم، وعندما تصل إلى

منتصف الممر ارفع صوتك بحيث أسمعك. التمس لذلك أي عذر. هل فهمت؟

- نعم، يا سيدي.

نزل هوربري إلى الطابق السفلي، وهناك قال مخاطباً تريسليان: إن أردت رأيي فإننا سنقضي عيد ميلاد سعيداً حقاً.

قال تريسليان بحدة: ماذا تقصد؟

- انتظر وسترى يا سيد تريسليان. اليوم ليلة عيد الميلاد، وفي الجو روح عيد رائعة كما أرى.

* * *

دخلوا الغرفة وتوقفوا عند الباب. كان سيميون يتكلم على الهاتف، لوَّح لهم بيده وقال: اجلسوا جميعكم، سأكون معكم بعد دقيقة.

ثم واصل حديثه على الهاتف: أهذه شركة تشارلتون وبروس؟ أهذا أنت يا تشارلتون؟ سيميون لي يتكلم معك. نعم، أليس كذلك؟... نعم... لا، أردت منك أن تكتب وصية جديدة لي... نعم، لقد مضى وقت طويل على الوصية الحالية... لقد تغيرت الظروف... آه، لا، لا توجد عجلة؛ لا أريد أن أفسد عليك عيد الميلاد. ليكن ذلك بعد العيد مباشرة. تعال وسوف أقول لك ما الذي أريد عمله. لا، لا بأس بذلك؛ لن أموت قبل ذلك الموعد.

وضع السماعة ونظر حوله إلى أفراد عائلته الثمانية، ثم قهقه وقال: أنتم جميعاً تبدون مكتئبين كثيراً. ما الأمر؟

قال ألفرد: لقد أرسلت في طلبنا...

قال سيميون بسرعة: آه، آسف. لم تكن دعوتي لأمر خطير. أظننتم أنه سيكون مجلس عائلة؟ لا، إنني متعب قليلاً هذا اليوم، هذا كل ما هنالك. لا حاجة لأن يصعد أيٌّ منكم إليّ بعد العشاء. سوف أذهب للنوم؛ فأنا أريد أن أكون نشيطاً ليوم عيد الميلاد.

ابتسم لهم جميعاً. وقال جورج جاداً: بالطبع... بالطبع.

قال سيميون: إن عيد الميلاد تقليد قديم عظيم؛ فهو يعزز شعور التضامن بين أفراد العائلة. ما رأيك أنت يا عزيزتي ماغدالين؟

جفلت ماغدالين، وانفتح فمها السخيف الصغير ثم عاد وانغلق، ثم قالت: آه، نعم!

قال سيميون: دعيني أتذكر، لقد عشتِ مع ضابط بحرية متقاعد... مع أبيك. لا أعتقد أنك استمتعت كثيراً بأعياد الميلاد، فهذا يتطلب عائلة كبيرة!

- حسناً. نعم، قد يكون هذا صحيحاً.

صرف سيميون نظره عنها وقال: لا أريد أن أتكلم بكلام مزعج في هذا الوقت من العام، ولكنك تعرف يا جورج، أخشى أنني مضطر لتخفيض راتبك قليلاً. إن إدارة مؤسستي هنا ستكلفني المزيد من المال في المستقبل.

احمرّ وجه جورج كثيراً وقال: ولكن يا أبي، لا يمكنك أن تفعل ذلك!

قال سيميون بهدوء: آه، حقاً؟!

- إن مصاريفي كبيرة جداً أساساً... كبيرة جداً، وأنا لا أعرف -حتى براتبي الحالي- كيف أفي بمتطلبات الحياة، ويتطلب الأمر مني تقشفاً صارماً جداً.

قال سيميون: دع زوجتك تمارس المزيد من التقشف. النساء جيدات في مثل هذا الأمر؛ إنهن يفكرن غالباً في الاقتصاد في بنودٍ ما كان الرجال ليحلموا بها، والمرأة الذكية تستطيع أن تصنع ملابسها بنفسها. أتذكّر أن زوجتي كانت بارعة في عمل الصنارة، رغم أنها لم تحسن شيئاً غير ذلك. كانت امرأة طيبة، لكنها كانت مملّة كثيراً!

قفز ديفيد من مقعده، فقال والده: اجلس يا ولد، إنك تكاد تكسر شيئاً.

قال ديفيد: إن أمي...

قاطعه سيميون قائلاً: إن أمك كانت ذات عقل تافه، ويبدو لي أنها نقلت هذا العقل لأولادها.

نهض فجأة عن مقعده وقد احمرّ خداه، وعلا صوته وهو يصرخ: إنكم لا تساوون فلساً واحداً، كلكم! لقد سئمت منكم جميعاً؛ أنتم لستم رجالاً! إنكم مجموعة من الضعفاء المخنثين. إن بيلار تساوي اثنين منكم معاً! أقسم أن لديّ ابناً أفضل منكم في مكان ما من العالم، حتى لو كنتم ولدتم شرعيين!

صاح هاري: هيا يا أبي، كفّ عن هذا.

كان قد قفز ووقف هناك وقد غمر العبوس وجهه المرح.
قال سيميون بحدّة: نفس الشيء ينطبق عليك! ما الذي فعلته طوال حياتك؟ تتوسل إليّ طلباً للمال من جميع أنحاء العالم. لقد سئمت من منظركم جميعاً... اخرجوا!

أسند ظهره إلى الكرسي وهو يلهث قليلاً. وببطء، خرج أفراد عائلته واحداً تلو الآخر. كان جورج محمرّ الوجه ساخطاً، فيما بدت ماغدالين خائفة، وكان ديفيد شاحباً يرتعش، وخرج هاري من الغرفة يدمدم ويتوعد، أما ألفرد فقد خرج كرجلٍ يحلم، وتبعته ليديا مرفوعة الرأس. هيلدا وحدها وقفت عند مدخل الباب ثم عادت إلى الوراء ببطء.

وقفت فوقه فجفل عندما فتح عينيه ووجدها تقف هناك. كان ثمة شيء ينذر بالخطر من طريقة وقوفها الصلبة دون حراك. قال غاضباً: ماذا في الأمر؟

قالت: عندما وصلت رسالتك صدّقتُ ما قلتَه؛ صدّقتُ أنك تريد جمع عائلتك حولك من أجل عيد الميلاد، وقد أقنعتُ ديفيد بالمجيء.

- حسناً، وماذا في هذا؟

قالت هيلدا ببطء: كنت فعلاً تريد عائلتك حولك... ولكن ليس من أجل الغرض الذي قلته! لقد أردتهم هنا لكي توبخهم وتزدريهم جميعاً، أليس كذلك؟ فليساعدك الله، فهذا ما تجد فيه متعتك!

قهقه سيميون وقال: كانت عندي دائماً روح دعابة خاصة فريدة. لا أتوقع لأحد آخر أن يقدّر النكتة. إنني أستمتع بهذا!

لم تقل هيلدا شيئاً. وغمر سيميون لي إحساس غامض بالخوف. قال بحدة: ما الذي تفكرين فيه؟

قالت هيلدا ببطء: إنّي خائفة...

- أنت خائفة... منّي؟

- ليس منك. إنّي خائفة... عليك!

استدارت كقاضٍ أصدر حكمه، ثم سارت خارج الغرفة ببطء وتثاقل.

جلس سيميون يحدّق بالباب، ثم نهض على قدميه واتجه ناحية الخزنة وهو يتمتم قائلاً: لنلقِ نظرة على جميلاتي.

* * *

دقّ جرس الباب في نحو الثامنة إلا ربعاً.

ذهب تريسليان إلى الباب، ثم عاد إلى حجرة التموين ليجد هوربري هناك يرفع فناجين القهوة عن الصينية وينظر إلى العلامة المنقوشة عليها.

قال هوربري: من كان على الباب؟

- ضابط الشرطة، السيد ساغدين... انتبه لما تفعله!

كان هوربري قد أسقط أحد الفناجين فانكسر. وصاح تريسليان منزعجاً: انظر إلى ما فعلت. إنني أغسل هذه الفناجين منذ أحد عشر عاماً ولم أكسر واحداً منها أبداً، والآن تأتي وتلمس أشياء ليست من شأنك، انظر إلى ما حدث!

قال هوربري معتذراً والعرق يغطي وجهه: آسف فعلاً، لا أعرف كيف حدث هذا. هل قلت إن ضابط الشرطة قد جاء؟

- نعم. السيد ساغدين.

مرّر الخادم لسانه فوق شفاهه الشاحبة وقال: ماذا... ماذا أراد؟

- إنه يجمع الأموال لملجأ أيتام تشرف عليه الشرطة.

- آه!

عدّل الخادم كتفيه، ثم قال بصوت أكثر طبيعية: وهل حصل على شيء؟

- صعدتُ بالخبر إلى السيد لي فطلب مني أن أُحضر له ضابط الشرطة وأن أضع الشراب على الطاولة.

- لا يعدو ذلك أن يكون تسولاً في مثل هذا الوقت من العام. وعجوزنا سخي كريم، أعترف له بذلك، رغم مساوئه الأخرى.

قال تريسليان بوقار: لقد كان السيد لي دائماً رجلاً سخياً.

أومأ هوربري برأسه وقال: هذا أفضل ما فيه! حسناً، سأخرج الآن.

- هل ستذهب إلى السينما؟

- أظن ذلك. وداعاً يا سيد تريسليان.

ذهب من الباب المؤدي إلى قاعة الخدم. ورفع تريسليان بصره إلى الساعة المعلقة على الحائط، ثم ذهب إلى قاعة الطعام ولفّ قطع الخبز بالمناديل، وبعد أن تأكد من أن كل شيء كما يجب، قرع الجرس الموجود في الصالة.

وعند آخر رنة للجرس مباشرة كان ضابط الشرطة ينزل الدرج. كان ضابط الشرطة ساغدين رجلاً وسيماً ضخم الجسم يرتدي بدلة زرقاء أحكم إغلاق أزرارها، وهو يتحرك بطريقة توحي بشعوره بأهميته. قال بشكل ودي: أظننا سنشهد صقيعاً الليلة. وهو أمر جيد، فالطقس لم يكن مؤخراً كما ينبغي له في هذا الوقت من العام.

قال تريسليان وهو يهز رأسه: الرطوبة تؤثر على الروماتيزم عندي.

علّق ضابط الشرطة بأن الروماتيزم مرض مؤلم، ثم ودّعه تريسليان من الباب الأمامي وأقفل الباب مرة أخرى وعاد إلى الصالة ببطء. مرّر يديه على عينيه وتنهد، ثم انتصب عندما رأى ليديا تعبر إلى قاعة الاستقبال. وكان جورج ينزل الدرج لتوّه. واستعدّ تريسليان، وعندما دخلت الضيفة الأخيرة، ماغدالين، قاعة الاستقبال تقدم تريسليان وتمتم قائلاً: العشاء جاهز.

كان تريسليان -بطريقته الخاصة- خبيراً في ملابس النساء. كان دائماً يلاحظ وينتقد ملابس السيدات وهو يدور حول الطاولة وبيده أواني الخدمة.

لاحظ أن زوجة السيد ألفرد كانت تلبس ثوبها الجديد الأبيض والأسود والمزين بالورود، تصميم ملفت جداً للنظر، ولكنه يناسبها رغم أنه قد لا يناسب الكثير من النساء. كان ثوب زوجة السيد جورج ثوباً رائعاً يصلح للعرض، كان متأكداً جداً من ذلك، لا بد أنه كلفها مبلغاً كبيراً من المال. تعجّب كيف وافق السيد جورج على دفع ثمنه؛ إذ أن جورج لا يحب إنفاق المال... كان ذلك رأيه دوماً! أما زوجة السيد ديفيد فسيدة لطيفة، ولكنها لا تملك أية فكرة عن أصول الأزياء. كان من شأن المخمل الأسود أن يكون أقرب ما يناسب جسمها، أما المخمل المشجّر (والمشجّر -فوق ذلك- باللون القرمزي) فقد كان خياراً سيئاً منها. والآن، الآنسة بيلار، لم يكن يهم ما تلبسه، فبمثل هذا الجسم وهذا الشعر من شأنها أن تبدو جميلة كيفما لبست. ومع ذلك كان ما ترتديه ثوباً رديئاً رخيصاً أبيض اللون.

همس تريسليان بأدب في أذن زوجة السيد جورج: "ماذا أقدّم لك يا سيدتي؟"، ولاحظ بطرف عينه بأن وُلتر (الصبي الخادم) كان يخطئ مرة أخرى بتقديم الخضار قبل صلصة مرق اللحم... بعد كل التوصيات التي أوصاه بها!

مضى تريسليان يدور بأوانيه حول المائدة. والآن -وقد تجاوز اهتماماته بملابس السيدات وتناسى لومه لعيوب الصبي وُلتر- انتبه

إلى أن الصمت يسود الجميع هذه الليلة. ولكنهم لم يكونوا صامتين تماماً؛ فالسيد هاري كان يتحدث بما فيه الكفاية... لا، ليس السيد هاري، إنه الرجل القادم من جنوب أفريقيا. وكان الآخرون يتحدثون أيضاً، ولكن حديثهم بدا -نوعاً ما- وكأنه على شكل عبارات قصيرة مفاجئة... أشبه بنوبات. وكان ثمة شيء... غريب قليلاً في سلوكهم.

السيد ألفرد -على سبيل المثال- كان يبدو محبطاً تماماً، كما لو أنه تعرض لصدمة أو ما شابه ذلك. كان يبدو مذهولاً تماماً، وكان يكتفي بتقليب الطعام في طبقه دون أن يأكله. أما السيدة زوجته فكانت قلقة عليه، كان بوسع تريسليان أن يلاحظ ذلك. بقي ينظر صوبه على الطاولة (ليس بصورة ملفتة للنظر بالطبع، وإنما بهدوء). كان وجه السيد جورج محمرّاً كثيراً، وكان يزدرد طعامه دون أن يتذوقه. ستداهمه سكتة دماغية إن لم ينتبه لنفسه. السيدة زوجته لم تكن تأكل؛ لا شك أنها تتبع حمية معينة. بدا أن الآنسة بيلار كانت تستمتع بالأكل تماماً وتتكلم وتضحك مع الرجل القادم من جنوب أفريقيا. كان منجذباً إليها تماماً، ولم يبدُ في عقليْ هذين الاثنين ما يعكّر صفوهما!

أما السيد ديفيد، فقد أحس تريسليان بالقلق على السيد ديفيد. كان مثل أمه تماماً لمن ينظر إليه، كما أنه بدا محافظاً على شبابه بشكل يلفت النظر. ولكنه عصبي... ها قد قلب كأسه!

أزاح تريسليان الكأس ومسح الشراب المنسكب ببراعة، وانتهى كل شيء بسرعة. لم يكد السيد ديفيد يبدو منتبهاً لما فعله،

وإنما جلس يحدّق أمامه بوجه شاحب. وبمناسبة الوجوه الشاحبة... غريب كيف بدا هوربري في حجرة الأواني قبل قليل عندما سمع أن ضابط شرطة قد جاء إلى البيت، وكأنه...

توقف عقل تريسليان مرتعداً؛ فقد أسقط ولتر الطبق الذي كان يحمله. لا خير في خدم الموائد هذه الأيام؛ إن طريقة تصرفهم تجعلهم أقرب إلى عمال الإسطبلات!

دار حول المائدة دورة أخرى. يبدو السيد هاري شارد الذهن قليلاً هذه الليلة، وهو لا ينفك ينظر إلى السيد ألفرد. لم تكن بين هذين الاثنين أية مودة أبداً، حتى عندما كانا صبيين. كان السيد هاري -بالطبع- هو الابن المفضل عند والده دائماً، وقد اعتمل ذلك في صدر السيد ألفرد. لم يهتم السيد لي أبداً بالسيد ألفرد كثيراً، وهذا أمر مؤسف لأن السيد ألفرد بدا دوماً شديد التعلق بأبيه.

ها هي زوجة السيد ألفرد تنهض الآن. دارت حول الطاولة. تلك النقشة على فستانها جميلة جداً، وذلك الوشاح على كتفيها مناسب تماماً. إنها سيدة بالغة الفخامة.

خرج إلى حجرة الأواني وأغلق باب حجرة الاستقبال تاركاً بها الرجال يتناولون مرطباتهم، ثم أخذ صينية القهوة إلى قاعة الاستقبال. كانت السيدات الأربع يجلسن هناك بشيء من عدم الارتياح كما رأى، ولم يكنّ يتكلمن.

قدّم لهن القهوة بصمت، ثم خرج ثانية. وفيما هو يدخل إلى غرفة الأواني سمع باب غرفة الطعام يفتح. خرج ديفيد وسار عبر الصالة متوجهاً إلى غرفة الاستقبال.

عاد تريسليان ليدخل حجرة الأواني، وقرأ على ولتر ما تيسر له من دروس التوبيخ. وكان ولتر أقرب إلى الوقاحة، إن لم يكن وقحاً حقاً!

والآن، إذ أصبح وحيداً في حجرة أوانيه، جلس تريسليان بشيء من السأم. كان يشعر ببعض الاكتئاب. أمسية عيد الميلاد وكل هذا التوتر والتعب... لم يعجبه ذلك! نهض بصعوبة، فذهب إلى غرفة الاستقبال وجمع فناجين القهوة. كانت الغرفة خالية إلاّ من ليديا التي وقفت بشكل تكاد تختفي فيه وراء ستارة النافذة من الطرف البعيد من الغرفة. كانت تقف هناك تنظر من النافذة إلى الليل.

ارتفع صوت البيانو من الغرفة المجاورة. كان السيد ديفيد يعزف، وسأل تريسليان نفسه: 'ولكن لماذا يعزف السيد ديفيد معزوفة الموت؟!'. كان ذلك هو ما يعزفه. آه، إن الأمور حقاً غير طبيعية أبداً!

مضى عبر الصالة بطيئاً وعاد إلى حجرة أوانيه، وفي ذلك الوقت سمع -لأول مرة- الضجة فوقه: تحطم خزف صيني وإلقاء أثاث وسلسلة من أعمال الكسر والارتطام. فكر تريسليان: يا إلهي! ما الذي يعمله السيد؟ ما الذي يحدث فوق؟

وبعد ذلك جاءت صيحة واضحة وعالية... صرخة رهيبة عالية مولولة ما لبثت أن تلاشت لتصبح صوتاً مخنوقاً أو غرغرة.

وقف تريسليان هناك لحظة مشلولاً، ثم خرج مسرعاً إلى الصالة وارتقى الدرج العريض. كان الآخرون معه؛ فقد دوّت تلك الصيحة في جميع أرجاء البيت. تسابقوا صعوداً على الدرج ثم استداروا

وعبروا كوّة واسعة بها تماثيل بيضاء لامعة، ثم توجهوا مباشرة عبر الممر المؤدي إلى غرفة السيد لي. كان السيد فار قد سبقهم إلى هناك ومعه زوجة السيد ديفيد، وكانت تستند بظهرها على الحائط وكان هو يدير مقبض الباب ويقول: الباب مُقفل، الباب مقفل!

تقدم هاري وأخذ مقبض الباب منه، وراح هو الآخر يديره ويهزه وهو يصيح: أبي، أبي، دعنا ندخل.

أمسك يده عن محاولة فتح الباب وأنصت الجميع بصمت. لم تكن هناك إجابة... لا صوت من داخل الغرفة.

رنّ جرس الباب الخارجي ولكن أحداً لم يلتفت إليه. قال ستيفن فار: علينا أن نكسر الباب؛ إنها الوسيلة الوحيدة أمامنا.

قال هاري: سيكون هذا عملاً صعباً؛ فهذه الأبواب متينة جداً وقوية. تعال يا ستيفن.

دفع الاثنان الباب وأجهدا نفسيهما، وأخيراً ذهبا فأحضرا قطعة خشب كبيرة من خشب البلوط واستعملاها لدكّ الباب. وانهار الباب أخيراً؛ خُلعت مفاصله وسقط خارج إطاره.

وقف الجميع هناك دقيقة يحتشدون وينظرون إلى الداخل. وكان ما رأوه منظراً لن ينساه أيٌّ منهم...

من الواضح أنه كان هناك صراع رهيب. كان الأثاث الثقيل مقلوباً، ومزهريات الخزف الصيني محطمة على الأرض، وأمام موقد النار المشتعلة كان سيميون لي يتمدد وسط بركة كبيرة من الدماء. كانت الدماء تلطخ الغرفة كلها، وبدت الغرفة كمسلخ!

صدرت شهقات مرتعدة، ثم تكلم اثنان الواحد تلو الآخر، والغريب أن الكلمات التي نطقا بها كانت عبارات مقتبسة.

قال ديفيد: "**يمهل ولا يهمل**".

وجاء صوت ليديا كأنه همس مرتجف: "**من كان يظن أن في العجوز كل هذه الدماء؟!**".

* * *

كان ضابط الشرطة ساغدين قد قرع الجرس ثلاث مرات، وفي النهاية -بعد أن يئس- قرع مطرقة الباب. وبعد طول انتظار فتح ولتر الخائف الباب وقال: "آه..."، ثم بدا الارتياح على وجهه وقال: كنت أتصل بالشرطة لتوي.

قال ضابط الشرطة ساغدين بحدة: لماذا؟ ما الذي يجري هنا؟

- إنه السيد لي العجوز. لقد قُتل...

اندفع ضابط الشرطة متجاوزاً الخادم وأسرع يصعد الدرج. دخل إلى الغرفة دون أن يشعر أحد بدخوله، ولدى دخوله رأى بيلار تنحني إلى الأمام وتلتقط شيئاً عن الأرض، ورأى ديفيد لي يقف ويداه تغطيان عينيه.

رأى الآخرين متجمعين على شكل مجموعة صغيرة. كان ألفرد لي الوحيد الذي تقدم إلى جانب جثة أبيه، وقد وقف الآن قريباً جداً ينظر إلى أسفل ووجهه خال من أي تعبير.

وكان جورج لي يقول بجدية: يجب عدم لمس أي شيء. تذكروا هذا... لا شيء... إلى أن يصل الشرطة. هذا مهم جداً.

قال ساغدين: "اسمحوا لي"، وشقّ طريقه إلى الأمام ودفع السيدات جانباً بلطف.

عرفه ألفرد فقال: آه! أهذا أنت أيها الضابط ساغدين؟ لقد وصلت إلى هنا بسرعة كبيرة.

لم يضيع الضابط ساغدين أي وقت في التفسيرات وإنما قال: نعم يا سيد لي. ما كل هذا؟

قال ألفرد لي: لقد قُتل أبي... قُتل!

انقطع صوته. وبدأت ماغدالين تنتحب فجأة بطريقة هستيرية، فرفع الضابط ساغدين يداً ضخمة آمرة وقال بحزم: أرجو من الجميع مغادرة الغرفة ما عدا السيد لي... والسيد... جورج لي.

تحركوا جميعاً ناحية الباب مترددين كمجموعة من الأغنام. قطع الضابط الطريق على بيلار فجأة وقال بمرح: عفواً يا آنسة، يجب عدم لمس أي شيء أو نقله من مكانه.

حدقت به، فقال ستيفن فار بنفاد صبر: بالطبع؛ إنها تفهم ذلك.

قال الضابط ساغدين دون أن يتخلى عن أسلوبه المرح: لقد رفعتِ شيئاً عن الأرض الآن، أليس كذلك؟

فتحت بيلار عينيها وحدقت به قائلة بارتياب: أنا فعلت؟

حافظ ساغدين على مرحه، ولكن صوته كان أكثر حزماً بعض الشيء: نعم، لقد رأيتك.

- آه!

- ولذلك أرجو أن تعطيني إياه. إنه الآن في يدك.

فتحت بيلار يدها ببطء. كان فيها قطعة من المطاط وشيء صغير مصنوع من الخشب. أخذهما ساغدين منها، ووضعهما في مغلف ثم في جيب معطفه، قائلاً: شكراً لك.

استدار الضابط فيما أظهرت عينا ستيفن فار -للحظات- احتراماً ودهشة، وبدا الأمر وكأن ستيفن لم يقدّر ضابط الشرطة الضخم الوسيم حق قدره.

خرجوا من الغرفة ببطء. وسمعوا ضابط الشرطة وهو يقول وراءهم بطريقة رسمية: والآن، إذا سمحتما...

* * *

قال الكولونيل جونسُن وهو يلقي قطعة إضافية من الخشب في النار: "لا شيء كنار الخشب"، ثم سحب كرسيه مقترباً من النار أكثر وأضاف مخاطباً ضيفه الجالس بجانبه وهو يشير إلى طبق من الشكلاتة: تفضل.

رفع الضيف يده رافضاً بأدب، ثم قرّب كرسيه بحذر إلى الأخشاب المشتعلة (رغم أنه كان يرى أن تحميص المرء قدميه بالنار -كعمليات التعذيب في القرون الوسطى- لم يكن ليوازن ما يشعره

المرء من تيارات البرد التي تضرب ظهر كتفيه).

ربما كان الكولونيل جونسُن، رئيس شرطة ميلشاير، يرى أن شيئاً لا يمكنه قهر نار الخشب، لكن هيركيول بوارو كان يرى أن التدفئة المركزية يمكنها ذلك دائماً!

قال المضيف متذكراً: "كانت قضية كارترايت تلك قضية مذهلة، وكان هو رجلاً مذهلاً! كان أسلوبه ساحراً جداً. عندما جاء إلى هنا معك جعلنا جميعاً ننقاد له". ثم هز رأسه وقال: لن نشهد قضية مثلها أبداً؛ إن التسميم بالنيكوتين نادر لحسن الحظ.

قال هيركيول بوارو: لقد مرّ وقت كنتم فيه تنظرون إلى جميع قضايا التسمم باعتبارها ممارسة غير إنكليزية، أسلوب أجانب يفتقر إلى الروح الرياضية!

- لا نكاد نستطيع قول ذلك؛ إذ توجد الكثير من عمليات التسميم بالزرنيخ. ربما كانت أكثر حدوثاً مما يظن الجميع.

- هذا ممكن، نعم.

- إن قضايا التسميم تلك فظيعة دوماً. شهادات الخبراء المتضاربة، والأطباء الذين يكونون في العادة حذرين إلى أبعد حد فيما يقولونه. إنها دوماً من أصعب القضايا التي تطرح أمام المحاكم، ولئن لم يكن بدٌّ من حدوث جرائم قتل فإنني أفضل التعامل -لا سمح الله- مع جريمة قتل واضحة مباشرة؛ جريمة ليس في سبب الوفاة فيها أي غموض أو لبس.

أومأ بوارو برأسه وقال: نعم، أنت تعني ثغرة من رصاصة، أو ذبحاً بخنجر، أو جمجمة مهشمة. أهذا ما تفضله إذن؟

- آه، لا تُسمّه تفضيلاً يا زميلي العزيز. لا يراودنّك ظنٌّ أنني أحب قضايا القتل! فأنا أرجو ألاّ تحدث جريمة أخرى أبداً. على أية حال لا بد أن تشعر بالأمان أثناء زيارتك.

بدأ بوارو يتكلم بتواضع: إن سمعتي...

لكن جونسُن واصل حديثه قائلاً: هذه أيام عيد الميلاد؛ موسم السلام والنوايا الطيبة وكل هذه الأشياء. النوايا الطيبة تملأ الأجواء.

استند بوارو إلى ظهر كرسيه وشبك أصابعه. أخذ يدرس مضيفه بإمعان ثم تمتم قائلاً: أنت ترى -إذن- أن عيد الميلاد هو موسم لا يُرجَّح فيه حدوث الجرائم؟

- هذا ما قلتُه.

- لماذا؟

- لماذا؟!

بدا وكأن السؤال قد فاجأ جونسُن، فقال: حسناً، كما قلت لتوي... إنه موسم البهجة وما إلى ذلك!

- يا للبريطانيين! إنهم عاطفيون جداً.

قال جونسُن بحماسة: وماذا في ذلك؟ ماذا لو كنّا فعلاً نحب الأساليب القديمة والاحتفالات التقليدية؟ ما هو الضرر؟

- لا يوجد أي ضرر. إنه أمر رائع جداً! ولكن دعنا ندرس الحقائق لحظة واحدة: قلتَ إن عيد الميلاد هو موسم البهجة، ولكن ألا يعني هذا الكثير من الأكل والشرب؟ إنه -في الحقيقة- يعني الإسراف في الأكل، ومع الإسراف في الأكل يأتي عسر الهضم، ومع عسر الهضم تزداد الانفعالات!

- الجرائم لا تُرتكَب بسبب زيادة الانفعالات.

- لستُ متأكداً كثيراً من ذلك! خذ مثالاً آخر: تسود في عيد الميلاد أجواء النوايا الطيبة والتغاضي، وهي -كما تقولون- أمر واجب، حيث يتم حل النزاعات القديمة على عجل، ويتفق المتنازعون مرة أخرى، وإن لم يكن اتفاقهم إلاّ مؤقّتاً.

أومأ جونسُن برأسه موافقاً وقال: يدفنون خلافاتهم، هذا صحيح.

تابع بوارو موضوعه: والعائلات التي انفصل أعضاؤها بعضهم عن بعض طوال العام يلتئم شملها مرة أخرى. والآن عليك أن تعترف -يا صديقي- بأن الكثير من التوتر سيحدث في ظل مثل تلك الظروف؛ فالأشخاص الذين لا يشعرون بالمودة يضغطون على أنفسهم كثيراً حتى يبدوا ودودين! إن في عيد الميلاد قدراً كبيراً من النفاق، نفاق خيّر -إذا جاز التعبير- إذ أنّه مدفوع بدوافع خيّرة، ولكنه -رغم ذلك- نفاق!

قال الكولونيل جونسُن بارتياب: حسناً، ما كنت أنا لأضع الأمر على هذا النحو.

ابتسم له بوارو وقال: نعم، نعم. أنا الذي أضع الأمر هكذا وليس أنت. إنني أشير إلى أن من المحتمل جداً -في ظل مثل هذه الظروف من التوتر الذهني والجسمي- أن تكتسب الكراهية والنزاعات فجأة صفة أكثر خطورة، وهي التي كانت تعتبر من قبل مجرد كراهية عابرة أو نزاعات تافهة. إن ادعاء المرء وتظاهره بأنه أكثر وداً وغفراناً وتغاضياً مما هو حقيقة لن يلبث أن يفضي به -عاجلاً أو آجلاً- إلى التصرف بطريقة أكثر بشاعة وقسوة وكراهية مما هو معهود منه! إنك إن كبحت سير السلوك الطبيعي -يا صديقي- فإن هذا الكبح سيتفجر عاجلاً أو آجلاً ويحدث الزلزال!

نظر الكولونيل جونسُن إليه بارتياب ثم تذمّر قائلاً: لا أعرف أبداً متى تكون جاداً ومتى تريد استدراجي.

ابتسم بوارو وقال: لست جاداً، لست جاداً أبداً! ولكن ما أقوله صحيح مع ذلك. إن الظروف المصطنعة تؤدي إلى ردود فعلها المعتادة.

دخل خادم الكولونيل جونسُن إلى الغرفة وقال: ضابط الشرطة يريدك على الهاتف يا سيدي.

- حسناً، سوف آتي.

اعتذر رئيس الشرطة وغادر الغرفة، ثم عاد بعد ثلاث دقائق تقريباً مهموم الوجه منزعجاً وقال: تباً! إنها جريمة قتل! وفي ليلة عيد الميلاد أيضاً.

ارتفع حاجبا بوارو وقال: أهي كذلك دون شك؟ أعني جريمة قتل؟

- ماذا؟ آه، نعم، ما من تفسير آخر لها! إنها قضية واضحة تماماً. جريمة قتل... وهي جريمة وحشية أيضاً!

- مَن الضحية؟

- العجوز سيميون لي؛ أحد أغنى الرجال عندنا! جمع ثروته في جنوب أفريقيا أساساً من الذهب... لا، أظنها من الألماس، فقد حصل على ثروة هائلة من صنع آلةٍ ما تستخدم في مجال المناجم. كانت من اختراعاته هو كما أظن. على أية حال فقد جلبت له ثروة سريعة! يقولون إنه يمتلك عدة ملايين.

- هل كان محبوباً؟

أجاب جونسُن ببطء: لا أظن أحداً أحبه. إنه شخص غريب الأطوار، وهو عاجز منذ بضع سنوات. أنا لا أعرف عنه الكثير شخصياً، ولكنه -بالطبع- أحد كبار الشخصيات في هذه المقاطعة.

- إذن فستحدث هذه القضية ضجة كبيرة، أليس كذلك؟

- بلى، يجب أن أذهب إلى لونغديل بأسرع ما يمكن.

تردد وهو ينظر إلى ضيفه، فأجابه بوارو على السؤال الذي بدا في عينيه قائلاً: أتريدني أن أصحبك؟

قال جونسُن مرتبكاً: يبدو من المعيب أن أطلب منك ذلك، لكنك تعرف الوضع! إن الضابط ساغدين رجل جيد، من أفضل ما يكون، وهو مجتهد وحريص وعاقل جداً. ولكن... ولكنه ليس شخصاً ذا خيال على الإطلاق. وبما أنك هنا فإنني أود كثيراً الاستفادة من مشورتك.

توقف قليلاً عند نهاية الجزء الأخير من كلامه ونطق به بأسلوب أقرب إلى أسلوب البرقيات.

أجابه بوارو بسرعة: سأكون مسروراً، يمكنك أن تعتمد عليّ في مساعدتك بأية طريقة كانت. يجب أن لا نجرح مشاعر الضابط الطيب. ستكون القضية قضيته وليست قضيتي، وما أنا إلا مستشار غير رسمي.

قال الكولونيل جونسُن بحماسة: أنت رجل رائع يا بوارو.

بكلمات الإطراء هذه خرج الرجلان إلى العمل.

* * *

فتح شرطيٌّ لهما الباب الأمامي وحيّاهما، فيما تقدم الضابط ساغدين من ورائه في الصالة وقال: أنا مسرور لقدومك يا سيدي. هل ندخل هذه الغرفة إلى اليسار؟ إنها مكتب السيد لي. أحب أن أسرد عليك الخطوط العريضة. إنها جريمة غريبة.

قادهما إلى غرفة صغيرة إلى يسار الصالة، وكان فيها هاتف ومكتب كبير مغطى بالأوراق، فيما غطت جدرانها خزائن المكتب.

قال رئيس الشرطة: "أعرّفك على السيد هيركيول بوارو يا ساغدين. ربما سمعتَ عنه. لقد صدف أنه كان موجوداً عندي". ثم التفت إلى بوارو وقال معرّفاً: ضابط الشرطة ساغدين.

انحنى بوارو قليلاً وتفحص الرجل الآخر. رأى رجلاً طويلاً

عريض المنكبين عسكريَّ الهيئة ذا أنف معقوف وفك بارز وشارب كثٌّ ضخم كستنائي اللون. حدّق ساغدين بهيركيول بوارو بإمعان بعد تحيته، فيما حدّق بوارو بشارب ساغدين بتأمل، وقد بدا أنه افتُتن بهذا الشارب الكث.

قال ساغدين: لقد سمعتُ عنك يا سيد بوارو. أنت تقيم في هذا البلد منذ بضع سنوات، إن لم تخنّي الذاكرة، منذ مقتل السير بارثولوميو ستريتج. كانت قضية تسمم بالنكوتين. لم تكن في مقاطعتي، ولكنّي سمعت كل شيء عنها بالطبع.

قال الكولونيل جونسُن بشيء من نفاد الصبر: والآن يا ساغدين، دعنا نعرف الحقائق. قلتَ إنها قضية واضحة.

– نعم يا سيدي، إنها جريمة قتل لا مراء فيها، لا شك في ذلك. لقد قُطعت حنجرة السيد لي... وقُطع الوريد الوداجي كما فهمت من الطبيب. لكن في الأمر شيئاً غريباً جداً.

– ماذا تعني؟

– أريدك أن تسمع مني الحكاية أولاً يا سيدي. إليك ظروف الحادث. في نحو الساعة الخامسة من عصر هذا اليوم اتصل بي السيد لي هاتفياً في مركز شرطة أديلزفيلد. بدا غريباً بعض الشيء عبر الهاتف، وطلب مني أن آتي لأراه في الساعة الثامنة هذا المساء. وقد ركز على مسألة الوقت تركيزاً خاصاً، كما أنه طلب مني أن أقول للخادم إنني أجمع تبرعات لإحدى الجمعيات الخيرية التابعة للشرطة.

رفع رئيس الشرطة بصره بحدة وقال: أراد منك حجة مقبولة حتى يُدخلك البيت؟

-هذا صحيح يا سيدي. ولأن السيد لي شخصية مهمة كان من الطبيعي أن أستجيب لطلبه. وصلت إلى هنا قبل الثامنة بقليل وقدمت نفسي على أنني أجمع تبرعات لملجأ أيتام الشرطة. ذهب الخادم ثم عاد ليخبرني بأن السيد لي سيقابلني، ثم أخذني إلى غرفته التي توجد في الطابق الأول فوق غرفة الطعام مباشرة.

توقف ساغدين وسحب نفساً ثم تابع تقريره بطريقة رسمية بعض الشيء. كان السيد لي يجلس على كرسي قرب الموقد مرتدياً رداء منزلياً، وبعد أن غادر الخادم الغرفة وأغلق الباب طلب مني أن أجلس بجانبه، ثم قال متردداً إنه يريد أن يُبلغني عن عملية سطو. سألته عن المسروقات فقال إنه يظن أن أحجاراً من الألماس (أظنه قال إنها غير مصقولة) تساوي آلاف الجنيهات سُرقت من خزنته.

قال رئيس الشرطة: أحجار من الألماس؟!

– نعم يا سيدي. سألته عدة أسئلة روتينية ولكن أسلوبه اتّسم بعدم الجزم، وكانت إجاباته غامضة بعض الشيء. وأخيراً قال: "يجب أن تفهم أيها الضابط أنني قد أكون مخطئاً في هذا الأمر". قلت له: "أنا لا أفهمك تماماً يا سيدي. إما أن تكون أحجار الألماس مفقودة أو تكون غير مفقودة... لا يوجد احتمال آخر". أجابني: "بل إن أحجار الألماس مفقودة بالتأكيد، ولكن من الممكن -يا حضرة الضابط- أن يكون اختفاؤها مجرد مزحة حمقاء".

بدا ذلك غريباً بالنسبة لي، ولكني لم أقل شيئاً. ثم واصل حديثه قائلاً: "من الصعب -بالنسبة لي- أن أشرح ذلك بالتفصيل، ولكن الأمر -حسب ظني- كالتالي: يوجد شخصان كان بوسعهما أخذ الأحجار. أحدهما قد يكون فعلها على سبيل المزاح، أما إن كان الشخص الآخر هو الذي أخذها فإنها سرقة بالتأكيد". قلت له: "ما الذي تريد مني أن أفعله بالضبط ياسيدي؟"، فقال بسرعة: "أريدك -أيها الضابط- أن تعود إلى هنا بعد نحو ساعة... لا، اجعلها بعد ذلك بقليل، لتقل في الساعة التاسعة والربع. في ذلك الوقت سأكون قادراً على أن أخبرك جازماً إن كانت قد سرقت أم لا". كنت متحيراً قليلاً، ولكني وافقت وذهبت.

علّق الكولونيل جونسُن: أمر غريب... غريب جداً. ما رأيك يا بوارو؟

قال هركيول بوارو: هل لي أن أسألك -يا حضرة الضابط- ماذا استنتجت أنت شخصياً؟

ربت الضابط بيده على خده وهو يرد بحذر: لقد خطرت لي أفكار مختلفة، ولكني -عموماً- تخيلت الأمر كالتالي: لم يكن في الأمر أية مزحة، وأحجار الألماس قد سُرقت بالتأكيد، ولكن العجوز لم يكن متأكداً من الفاعل. أرى أنه كان صادقاً عندما قال إن الفاعل قد يكون واحداً من اثنين... ومن هذين الاثنين خادم، وفرد من أفراد العائلة.

أومأ بوارو بإعجاب وقال: رائع. نعم، هذا يوضح موقفه جيداً.

- لهذا السبب كانت رغبته أن أعود إليه فيما بعد؛ فقد كان ينوي مقابلة الشخص المعني خلال هذه الفترة، وكان سيخبره بأنه قد تحدث مع الشرطة في هذا الأمر ولكن إن تمت إعادة المسروقات على الفور فبإمكانه طيّ الأمر وكتمانه.

قال الكولونيل جونسُن: وإذا لم يستجب المشتبه به؟

- في هذه الحالة كان ينوي الطلب منّا التحقيق في هذا الأمر.

قطب الكولونيل جونسُن جبينه وفتل شاربه. تردد وقال: لماذا لم يتخذ مثل هذا الإجراء قبل استدعائك؟

قال ساغدين: لا، لا يا سيدي.

وجواباً على تساؤل رئيسه هز رأسه وقال: ألا ترى أنه إن فعل ذلك ظن الفاعل أنها خدعة منه؟ ما كان تهديده ليكون مقنعاً؛ فربما قال ذلك الشخص في نفسه: "لن يستدعي العجوز الشرطة بغض النظر عن شكوكه!". ولكن إن قال له العجوز: "لقد تكلمتُ -بالفعل- مع الشرطة، وقد غادر ضابط الشرطة البيت لتوه" فإن السارق سوف يسأل الخادم عن ذلك وهو ما سيؤكده هذا الخادم. سوف يقول: "نعم، كان ضابط الشرطة هنا قبل العشاء"، وعندها سيقنع اللص بأن العجوز يقصد ما يقوله ويصبح لزاماً عليه أن يعيد الألماسات مرغماً.

قال الكولونيل جونسُن: نعم، فهمت. هل لديك أية فكرة -يا ساغدين- مَن يمكن أن يكون هذا الفرد من أفراد العائلة؟

- لا يا سيدي.

- أما من مؤشرات أبداً؟

- نعم؛ لا توجد أية مؤشرات.

هز جونثُن رأسه. ثم قال: حسناً، دعنا نواصل الاستماع إلى الرواية.

استعاد الضابط ساغدين أسلوبه الرسمي وقال: عدت إلى البيت في التاسعة والربع بالضبط، وعندما كنت على وشك أن أدق جرس الباب الأمامي سمعت صرخة من داخل البيت، ثم سمعت أصوات صرخات مرتبكة وفوضى عامة. قرعت الجرس عدة مرات كما ضربت مطرقة الباب أيضاً، وقد مضت ثلاث دقائق أو أربع قبل أن يُفتح الباب، وعندما فتح الغلام الباب أخيراً أدركت أن شيئاً خطيراً قد حدث. كان كل جسمه يرتعش وبدا وكأنه سيغمى عليه، وقال لاهثاً إن السيد لي قد قُتل. ركضت إلى الطابق العلوي مسرعاً، فوجدت غرفة السيد لي في حالة فوضى شديدة. كان واضحاً أن صراعاً شديداً قد حدث، وكان السيد لي نفسه ممدداً أمام الموقد مذبوحاً ذبح النعاج يسبح في بركة من الدماء.

قال رئيس الشرطة بحدة: أيمكن أن يكون قد فعل هذا بنفسه؟

هز ساغدين رأسه نافياً وقال: مستحيل يا سيدي؛ فقد كانت هناك -بداية- الكراسي والطاولات المقلوبة والآنية والتحفيات المكسورة، وفوق ذلك لم يكن هناك أي أثر للموسى أو السكين التي ارتُكبت بها الجريمة.

قال رئيس الشرطة متأملاً: نعم، هذا يبدو مقنعاً. أكان في الغرفة أحد؟

- معظم أفراد العائلة كانوا هناك يا سيدي، كانوا واقفين هناك.

قال رئيس الشرطة بتركيز: هل لديك أية أفكار يا ساغدين؟

أجابه ضابط الشرطة ببطء: إنه عمل شرير يا سيدي. يبدو لي وكأن واحداً منهم هو الذي فعل ذلك؛ فلا أرى كيف يمكن لأحد من الخارج أن يفعل ذلك ويهرب في الوقت المناسب.

- ماذا عن النافذة؟ أكانت مغلقة أم مفتوحة؟

- في الغرفة نافذتان يا سيدي. إحداهما كانت مغلقة ومقفلة، أما الأخرى فكانت مفتوحة بمقدار عشرة سنتيمترات من الأسفل، لكنها كانت مثبتة في ذلك الموضع بواسطة برغي الأمان، وقد حاولت فتحها فوجدتها ثابتة لا تتحرك، وأظنها لم تفتح منذ سنوات. كما أن الحائط أملس لا ثغرات فيه... ولا توجد أية نباتات متسلقة أو لبلاب. لا أرى كيف يمكن لأحد أن يخرج من هذا الطريق.

- كم باباً في الغرفة؟

- باب واحد فقط. الغرفة في نهاية الممر، وكان الباب مقفلاً من الداخل. عندما سمعوا صوت العراك وصرخة العجوز اليائسة وأسرعوا إلى الطابق العلوي اضطروا لتحطيم الباب حتى يدخلوا.

قال جونثُن بحدة: ومن كان موجوداً في الغرفة؟

رد الضابط ساغدين بتجهم: لم يكن في الغرفة أحد يا سيدي، ما عدا العجوز الذي قُتل قبل بضع دقائق فقط.

* * *

حدّق الكولونيل جونسُن بساغدين بضع دقائق قبل أن يغمغم قائلاً: أتريد أن تقول لي -أيها الضابط- أن هذه واحدة من تلك القضايا السخيفة التي توجد في الروايات البوليسية حيث يُقتل رجل في غرفة مغلقة بواسطة قوة خارقة؟

حرّكت ابتسامة باهتة جداً شارب الضابط وهو يجيب بهدوء: لا أظن الأمر سيئاً إلى هذا الحد يا سيدي.

- إذن فهو انتحار... لا بد أنه انتحار!

- إن كان كذلك فأين السلاح؟ لا يا سيدي، الانتحار لا يشكل جواباً مقنعاً.

- إذن كيف هرب القاتل؟ من النافذة؟

هز ساغدين رأسه بالنفي وقال: أنا متأكد أنه لم يفعل ذلك.

- ولكنك تقول إن الباب كان مقفلاً من الداخل.

أومأ ضابط الشرطة برأسه، ثم أخرج من جيبه مفتاحاً فوضعه على الطاولة وقال: لا توجد بصمات أصابع، ولكن انظر إلى المفتاح يا سيدي. انظر إليه باستخدام تلك العدسة المكبرة هناك.

انحنى بوارو إلى الأمام فتفحص هو وجونسُن المفتاح معاً، ثم

صاح رئيس الشرطة مدهوشاً: يا إلهي! لقد فهمتك. هذه الخدوش الخفيفة عند نهاية قصبة المفتاح. هل تراها يا بوارو؟

- نعم، أراها. هذا يعني أن المفتاح أُدير من خارج الباب... أُدير بواسطة آلة خاصة أدخلت من فتحة القفل وأمسكت بقصبة المفتاح. ربما من شأن كماشة ذات رأس دقيق أن تفعل ذلك.

أومأ ضابط الشرطة برأسه وقال: يمكن فعل ذلك دون شك.

قال بوارو: إذن فإن الفكرة هي الإيحاء بأن الأمر كان انتحاراً، طالما كان الباب مغلقاً، ولم يكن أحد داخل الغرفة، أليس كذلك؟

- كانت هذه الفكرة يا سيد بوارو، ولا أحسب أن في ذلك شكاً.

هز بوارو رأسه بارتياب وقال: ولكن ماذا عن هذه الفوضى في الغرفة؟ إن الفوضى بحد ذاتها تستبعد -كما أشرت أنت- فكرة الانتحار. لقد كان من شأن القاتل أن يعيد ترتيب الغرفة بالتأكيد.

قال الضابط ساغدين: ولكن لم يكن عنده وقت يا سيد بوارو. هذا هو صلب القضية، لم يكن عنده وقت. دعنا نفترض أن حساباته كانت أن يأخذ الرجل العجوز على حين غرة. ولكن ذلك لم يحدث. نشأ صراع... صراع سُمع بوضوح في الطابق الأرضي، والأنكى أن العجوز صرخ طالباً النجدة. الكل جاء مسرعاً، ولم يكن وقت القاتل يسمح بأكثر من التسلل من الغرفة وإدارة المفتاح من الخارج.

اعترف بوارو قائلاً: هذا صحيح. ربما وقع قاتلك في كل هذا الارتباك. ولكن لماذا، لماذا لم يترك السلاح على الأقل؟ لأن من

الطبيعي أن لا يكون انتحار عندما لا يوجد سلاح الانتحار! كانت تلك غلطة خطيرة جداً.

قال ضابط الشرطة ساغدين ببرود: يخطئ المجرمون في العادة. هذه خبرتنا بهم.

تنهد بوارو وتمتم قائلا: ولكن مع ذلك، فقد هرب هذا المجرم رغم أخطائه.

- لا أعتقد أنه هرب تماماً.

- أتقصد أنه ما يزال في البيت؟

- لا أرى مكاناً آخر يمكن أن يكون فيه؛ فقد كان عملاً من داخل البيت.

- ولكنه هرب بمعنى أنك لا تعرف من هو.

قال الضابط ساغدين بلطف ولكن بحزم: أظن أننا سنعرف ذلك قريباً. نحن لم نستجوب أهل البيت بعد.

تدخل الكولونيل جونسُن: شيء واحد يحيرني يا ساغدين. أيّاً كان ذلك الذي أدار المفتاح من الخارج لا بد أنه يعرف شيئاً عن مثل هذا العمل، أي أنه ربما كان ذا خبرة إجرامية. إن مثل هذه الأدوات ليس من السهل استخدامها.

- هل تقصد يا سيدي أنها عمل محترف؟

- هذا ما أعنيه.

اعترف الآخر قائلاً: يبدو أن الأمر هكذا، وما يترتب على ذلك هو إمكانية وجود لص محترف بين الخدم. ذلك سيفسر سرقة الألماس، وجريمة القتل ستتبع ذلك بطريقة منطقية.

- حسناً، هل في هذه النظرية شيء غير صحيح؟

- هذا ما اعتقدته عند البداية، لكنه أمر صعب. يوجد من الخدم في البيت ست نساء، خمس منهن يعملن هنا منذ أربع سنوات أو أكثر. ولدينا كبير الخدم والصبي الخادم، وقد قضى كبير الخدم في هذا البيت ما يقرب من أربعين عاماً... وأظن أن ذلك يكاد يكون رقماً قياسياً، والصبي الخادم من المنطقة، وهو ابن البستاني وقد نشأ هنا، ولا أرى كيف يمكن أن يكون محترفاً. أما الشخص الأخير لدينا فهو الخادم الخاص للسيد لي، وهو جديد نسبياً، ولكنه كان خارج البيت... وما زال في الخارج. وقد خرج قبل الساعة الثامنة تماماً.

قال الكولونيل جونسُن: هل لديك قائمة مضبوطة بالأشخاص الذين كانوا في البيت حصراً؟

قال ساغدين: "نعم يا سيدي، لقد حصلت عليها من كبير الخدم". ثم أخرج دفتر ملاحظاته وقال: هل أقرؤها عليك؟

- أرجوك يا ساغدين.

- السيد ألفرد لي وزوجته. السيد جورج لي عضو البرلمان وزوجته. السيد هاري لي. السيد ديفيد لي وزوجته. الآنسة... بيلار إيسترافادوس. السيد ستيفن فار. أما بالنسبة للخدم فهم: كبير الخدم إدوارد تريسليان. الصبي ولتر تشامبيون. إيميلي ريفز الطاهية.

كويني جونز خادمة المطبخ. غلاديس سبينت كبيرة الخادمات. غريس بست المساعدة الثانية لكبيرة الخادمات. بياتريس موسكوم المساعدة الثالثة. جوان كينش الخادمة الوسيطة. سيدني هوربري الخادم الخاص للعجوز.

- هذه هي المجموعة إذن؟

- هذه هي المجموعة يا سيدي.

- هل تعرف أين كان كل واحد منهم وقت وقوع الجريمة؟

- بشكلٍ عام فقط. أنا لم أستجوب أحداً بعد كما أسلفت، وقد كان الرجال -وفق شهادة تريسليان- ما زالوا في غرفة الطعام، أما السيدات فقد ذهبن إلى غرفة الاستقبال. وقد قدّم تريسليان لهن القهوة، ووفق شهادته كان قد عاد لتوه إلى حجرة الأواني عندما سمع جلبة في الطابق العلوي. وقد تبع ذلك صرخة، فخرج إلى الصالة مسرعاً وصعد الدرج على إثر الآخرين.

قال الكولونيل جونسُن: كم واحداً من العائلة يعيشون في هذا البيت، ومن هم الذين أتوا زائرين فقط؟

- السيد ألفرد وزوجته يعيشان هنا، أمّا الآخرون فقدموا للزيارة.

أومأ جونسُن برأسه وقال: أين هم جميعاً؟

- طلبت منهم البقاء في غرفة الاستقبال حتى أكون مستعداً لسماع شهاداتهم.

- فهمت. حسناً، من الأفضل أن نذهب إلى الطابق العلوي ونلقي نظرة على الأمور.

تقدم ضابط الشرطة الطريق صعوداً على الدرج العريض ثم عبر الممر. أخذ جونسُن نفساً عميقاً لدى دخوله الغرفة التي وقعت فيها الجريمة وقال معلقاً: رهيب جداً.

وقف دقيقة يتفحص الكراسي المقلوبة والفخار المهشم والحطام الذي لطخته الدماء. ووقف رجل كهل نحيف كان يجثو على ركبته قرب الجثة وأومأ برأسه ثم قال: مساء الخير يا جونسُن. إنها مجزرة، أليس كذلك؟

- أعتقد ذلك. ألديك ما تخبرنا به أيها الطبيب؟

رفع الطبيب كتفيه حيرة وقال مكشراً: سأتجاوز اللغة العلمية المتخصصة وأتركها للتحقيق! ولن يكون الشرح معقداً على أية حال. لقد ذُبح ذبح النعاج، وقد نزف حتى الموت في أقل من دقيقة. ولا يوجد أثر للسلاح.

عبر بوارو الغرفة إلى ناحية النافذتين. كانت إحداهما -كما قال ضابط الشرطة- مغلقة ومقفلة، أما الأخرى فكانت مفتوحة بمقدار عشرة سنتيمترات تقريباً من الأسفل ومثبتة هناك ببرغي كبير من تلك الأنواع المتينة التي ابتكرت منذ عدة سنوات لمكافحة أعمال السطو.

قال ساغدين: يؤكد كبير الخدم أن هذه النافذة لم تغلق أبداً في كل الظروف الجوية، وقد وضعت تحتها قطعة من المشمع تحسباً

من دخول شيء من المطر إلى الغرفة، لكن المطر لا يدخل إليها كثيراً لأن في أعلى الشباك من الخارج سقفاً يحول دون دخول المطر إلى الداخل.

أومأ بوارو برأسه، ثم عاد إلى الجثة وحدّق بالعجوز. كانت الشفتان قد تراجعتا لتُظهرا اللثة التي خلت من الدم في منظر بدا أقرب إلى التكشيرة، وكانت أصابعه معقوفة كأنها مخالب.

قال بوارو: لا... إنه لا يبدو رجلاً قوياً.

قال الطبيب: بل إنه كان قوياً صحيح الجسم. لقد نجا من أمراضٍ عديدةٍ انتابته وكان من شأنها أن تقتل معظم الرجال.

قال بوارو: لم أقصد هذا؛ أقصد أنه لم يكن ضخماً ولا قوياً من الناحية الجسدية.

- نعم، كان ضئيل الجسم هزيلاً.

أبعد بوارو نظره عن الرجل القتيل وانحنى ليتفحص أحد الكراسي المقلوبة، وكان كرسياً كبيراً من الخشب الأحمر وإلى جانبه طاولة مستديرة من الخشب الأحمر وشظايا مصباح كبير من الفخار الصيني. وكان كرسيان آخران أصغر حجماً مقلوبين قريباً من ذلك بالإضافة إلى شظايا زجاجة وكأسين، وكانت هناك ثقالة ورق زجاجية غير مكسورة، وبعض الكتب المتنوعة، ومزهرية يابانية كبيرة محطمة إلى قطع، وتمثال لفتاة من البرونز.

انكبّ بوارو على جميع الأشياء يتفحصها باهتمام، ولكن دون

أن يلمسها، وكان مقطب الجبين وكأنه محتار. قال رئيس الشرطة: هل لفت انتباهك شيء يا بوارو؟

تنهد هيركيول بوارو وتمتم قائلاً: رجل عجوز ضعيف كهذا. ومع ذلك... كل هذه الأشياء.

بدا جونسُن متحيراً، التفت وقال مخاطباً الرقيب الذي كان مشغولاً في عمله: ماذا عن بصمات الأصابع؟

- يوجد الكثير منها يا سيدي في جميع أرجاء الغرفة.

- ماذا عن الخزنة؟

- لا فائدة منها. البصمات الموجودة عليها هي بصمات العجوز نفسه.

التفت جونسُن إلى الطبيب وسأله: ماذا عن بقع الدم؟ لا بد أن من قتله قد وقع عليه شيء من دمه.

قال الطبيب مرتاباً: ليس بالضرورة. كان النزيف كله تقريباً من الوريد الوداجي، وهذا الوريد لا يتدفق منه الدم بقوة كالشريان.

- صحيح، صحيح. ومع ذلك يبدو أن في المكان الكثير من الدماء.

قال بوارو: نعم، الكثير من الدماء... وهذا يلفت الانتباه. دماء كثيرة!

قال ضابط الشرطة ساغدين باحترام: هل يوحي لك ذلك بشيء يا سيد بوارو؟

نظر بوارو حوله وهز رأسه متحيراً وقال: "يوجد شيء ما هنا... شيء من العنف". وسكت دقيقة ثم تابع: نعم، هذا هو الملفت للانتباه... **العنف والدماء**... إصرار على الدماء! توجد... ماذا أسمّي ذلك؟ **دماء كثيرة جداً**. دماء على الكراسي وعلى الطاولات وعلى السجاد. أهو طقس دموي؟ دماء القرابين؟ هل الأمر كذلك؟ ربما. مثل هذا العجوز الواهن الذاوي... **ومع ذلك نجد عند موته كل هذه الدماء!**

تلاشى صوته. وقال الضابط ساغدين وهو يحدق به بعينين مذعورتين مستديرتين وقد ملأت الخشية صوته: غريب. هذا ما قالته السيدة...

قال بوارو بحدة: أية سيدة؟ وما الذي قالته؟

- السيدة زوجة ألفرد لي. وقفت هناك بجانب الباب وهمست بهذه الكلمات بصوت خافت، ولم تعنِ الكلمات لي شيئاً.

- ما الذي قالته؟

- قالت شيئاً عمّن عساه يظن بأن هذا العجوز فيه كل هذا القدر من الدماء...

قال بوارو بهدوء: "من كان يظن أن في العجوز كل هذه الدماء؟". إنها كلمات الليدي ماكبث في مسرحية شيكسبير. هي التي قالت ذلك... آه، هذا مثير للاهتمام.

* * *

دخل ألفرد لي وزوجته إلى المكتب الصغير حيث كان بوارو وساغدين ورئيس الشرطة يقفون في الانتظار.

تقدم الكولونيل جونسن وقال: كيف حالك يا سيد لي؟ نحن لم نلتقِ أبداً من قبل ولكن -كما تعرف- فأنا رئيس شرطة المقاطعة. اسمي جونسن، ولا أستطيع أن أصف لك مدى الحزن الذي أصابني من جراء هذا.

قال ألفرد بصوت أجش وعيناه البنيتان كأنهما عينا كلب معذَّب: شكراً لك. إنه فظيع، فظيع تماماً. إنني... هذه زوجتي.

قالت ليديا بصوتها الهادئ ويدها على كتف زوجها: كان هذا صدمة مخيفة لزوجي... لنا جميعاً، ولكن له على نحو خاص.

قال الكولونيل جونسن: ألا تجلسان؟ أقدم لكما السيد هيركيول بوارو.

انحنى بوارو لهما، وقلّب بصره باهتمام بين الزوج وزوجته. ضغطت ليديا ضغطة خفيفة على كتف ألفرد وقالت: اجلس يا ألفرد.

جلس ألفرد وتمتم قائلاً: هيركيول بوارو. الذي... الذي...؟

مرّر يده على جبهته بشيء من الذهول، وقالت ليديا: الكولونيل جونسن يريد أن يسألك كثيراً من الأسئلة يا ألفرد.

نظر رئيس الشرطة إليها باستحسان. كان مسروراً لأن السيدة ألفرد أظهرت قدراً كبيراً من الحكمة والكفاءة.

قال ألفرد: بالطبع، بالطبع.

قال جونسُن في نفسه: "يبدو أن الصدمة قد أذهلته تماماً. أرجو أن يستطيع تمالك نفسه قليلاً". ثم قال بصوت مرتفع: عندي قائمة هنا بجميع من كان موجوداً في البيت هذه الليلة. ربما استطعتَ أن تخبرني -يا سيد لي- إن كانت صحيحة.

ثم أومأ بيده لساغدين بإشارة خفيفة فأخرج الأخير دفتر ملاحظاته ثم قرأ قائمة الأسماء مرة ثانية.

بدا أن هذا الإجراء العملي قد أعاد ألفرد إلى شيء من طبيعته، فقد استعاد سيطرته على نفسه، ولم تعد عيناه مبهورتين تحدقان في الفراغ. عندما أنهى ساغدين سرده أومأ ألفرد برأسه موافقاً وقال: هذا صحيح تماماً.

- هلا أخبرتني قليلاً عن ضيوفك؟ فهمت أن السيد جورج وزوجته والسيد ديفيد وزوجته أقارب لك؟

- إنهما شقيقاي الأصغران وزوجتاهما.

- هل هم هنا للزيارة فقط؟

- نعم، جاؤوا إلى هنا لقضاء عيد الميلاد.

- وهل السيد هتري شقيقك هو الآخر؟

- نعم.

- وضيفاك الآخران؟ الآنسة إيسترافادوس والسيد فار؟

- الآنسة إيسترافادوس ابنة أختي، والسيد فار هو ابن أحد شركاء أبي السابقين في جنوب أفريقيا.

- آه، صديق قديم.

تدخلت ليديا: لا؛ نحن لم نره أبداً من قبل في الواقع.

- فهمت، ولكنكم دعوتموه لقضاء عيد الميلاد عندكم؟

تردد ألفرد ثم قال: لقد ظهر السيد فار بالأمس على نحو غير متوقع. حدث أن كان موجوداً في المنطقة وجاء لزيارة أبي، وعندما عرف أبي أنه ابن صديقه وشريكه القديم أصر على أن يبقى معنا لقضاء عيد الميلاد.

قال الكولونيل جونسُن: فهمت، هذا يفسر موضوع أهل البيت. وبالنسبة للخدم يا سيدة لي، هل تعتبرينهم جميعاً موضع ثقة؟

فكرت ليديا قليلاً قبل أن تجيب، ثم قالت: نعم، أنا متأكدة أنهم جميعاً موثوقون تماماً ومعظمهم يعمل عندنا منذ عدة سنوات. إن تريسليان، كبير الخدم، يعمل هنا منذ أن كان زوجي طفلاً صغيراً. الخادمان الجديدان الوحيدان هما الخادمة الوسيطة جوان والخادم الخاص للرجل العجوز.

- ماذا بخصوصهما؟

- جوان مجرد فتاة سخيفة بعض الشيء، هذا أسوأ ما يمكن أن يقال عنها. ولا أعرف الكثير عن هوربري. إنه يعمل هنا منذ سنة أو تزيد، وهو خادم قدير في عمله ويبدو أن العجوز راضٍ عنه.

قال بوارو بذكاء: لكنك -يا سيدتي- ثم تكوني راضية كثيراً؟

رفعت ليديا كتفيها بلامبالاة وقالت: لم يكن هذا الأمر من شأني أنا.

- لكنك سيدة البيت يا مدام، والخدم من شأنك؟

- آه، نعم، بالطبع. لكن هوربري كان الخادم الخاص لأبي زوجي ولم يكن خاضعاً لإمرتي.

- فهمت.

قال الكولونيل جونسُن: نأتي الآن إلى أحداث هذه الليلة. أخشى أن يكون ذلك مؤلماً لك يا سيد لي، ولكني أريد سماع روايتك لما حدث.

قال ألفرد بصوت منخفض: بالطبع.

قال الكولونيل جونسُن يحثه: على سبيل المثال، متى كانت آخر مرة رأيت فيها والدك؟

ظهرت على وجه ألفرد مسحة خفيفة من الألم وهو يجيب بصوت منخفض: كان ذلك بعد تناول الشاي. كنت معه لوقت قصير، ثم قلت له: "طابت ليلتك" وتركته الساعة... دعني أتذكر، نحو السادسة إلاّ ربعاً.

قال بوارو: هل قلت له: "طابت ليلتك"؟ إذن لم تكن تتوقع رؤيته ثانية ذلك المساء؟

- نعم. كانت وجبة عشاء والدي تُقدم له الساعة السابعة دائماً

وهي وجبة خفيفة، وبعد ذلك كان يذهب أحياناً إلى النوم مبكراً، أو كان يجلس على كرسيه، ولكنه لم يكن يرى أي فرد من العائلة ثانية إلاّ إذا أرسل هو في طلب ذلك الشخص.

- أكان يرسل في طلب أحد كثيراً؟

- أحياناً، إن أحس برغبة في ذلك.

- لكنه لم يكن الإجراء المعتاد، أليس كذلك؟

- بلى.

- واصل كلامك يا سيد لي، أرجوك.

واصل ألفرد حديثه: تناولنا عشاءنا في الساعة الثامنة. انتهى العشاء وذهبت زوجتي والسيدات الأخريات إلى غرفة الاستقبال.

اضطرب صوته وبدأت عيناه تشردان ثانية: كنا نجلس هناك، على الطاولة... وفجأة سمعنا فوقنا ضجة تبعث على الاستغراب الشديد؛ انقلاب كراسي وتحطم أثاث وتهشم زجاج وفخار، ثم... آه، يا إلهي!

ارتعد ثم أضاف: ما زال بوسعي سماع ذلك. صرخ أبي... صرخة طويلة مرعبة... صرخة رجل يعاني من ألم قاتل!

رفع يديه المرتجفتين ليخفي وجهه، ومدّت ليديا يدها ولمست كمه. قال الكولونيل جونسُن بهدوء: وبعد ذلك؟

قال ألفرد بصوت متقطع: أحسب... أحسب أننا صُعقنا للحظات، ثم قفزنا جميعاً فغادرنا الغرفة وأسرعنا إلى الدرج ثم

إلى غرفة والدي. كان الباب مقفلاً بالمفتاح فلم نستطع الدخول. واضطررنا لكسره حتى ندخل، وعندما دخلنا رأينا...

تلاشى صوته. قال جونسُن بسرعة: لا حاجة لإكمال هذا الجزء من الحادث يا سيد لي. لنعد قليلاً إلى الوقت الذي كنتم فيه في قاعة الطعام. مَن كان هناك معك عندما سمعت الصرخة؟

- مَن كان هناك؟ كنّا جميعاً هناك. لا، دعني أتذكر. أخي كان هناك... أخي هاري.

-لا أحد غيره؟

- لا أحد غيره.

- أين كان الرجال الآخرون؟

تنهد ألفرد وعبس في محاولة جاهدة للتذكر، ثم قال: دعني أتذكر. يبدو وكأن الأمر حدث منذ وقت طويل... نعم، كأنه حدث منذ سنوات. ماذا حدث؟ آه، بالطبع. لقد ذهب جورج إلى الهاتف، ثم بدأنا نتحدث في الأمور العائلية، وقال ستيفن إنه يرى أننا نريد التحدث في أمور خاصة ولذلك خرج، وقد قام بذلك بطريقة لطيفة ولبقة.

- وماذا عن أخيك ديفيد؟

قطّب ألفرد جبينه.

- ديفيد؟ ألم يكن هناك؟ نعم؛ إنه لم يكن هناك بالطبع. لا أعرف تماماً متى خرج من الغرفة.

قال بوارو بلطف: إذن كانت أمامكم أمور عائلية تناقشونها؟

- نـ... نعم.

- أي أنه كانت لديك أمور تناقشها مع واحد من أفراد العائلة؟

قالت ليديا: ماذا تقصد يا سيد بوارو؟

التفت إليها بسرعة وقال: يقول زوجك -يا سيدتي- إن السيد فار تركهم لأنه رأى أنهم كانوا يناقشون أموراً عائلية، لكنه لم يكن اجتماعاً عائلياً، لأن السيد ديفيد لم يكن هناك والسيد جورج لم يكن هناك؛ إذن فقد كان نقاشاً بين اثنين من أفراد العائلة فقط.

قالت ليديا: كان هاري، شقيق زوجي، يعيش في الخارج منذ سنوات عديدة، وكان أمراً طبيعياً وجود أمور يتحدث بها مع زوجي.

- آه! فهمت، إذن فالأمر كذلك.

نظرت إليه نظرة سريعة ثم أبعدت نظرها عنه. قال جونسُن: حسناً، هذا يبدو واضحاً بما فيه الكفاية. هل لاحظتم أي شخص آخر وأنتم مسرعون على الدرج إلى غرفة والدك؟

- إنني... لا أعرف في الحقيقة. أظن ذلك. كلنا جئنا من اتجاهات مختلفة، لكنني لم ألاحظ... فقد كنت مذعوراً. إن تلك الصرخة الرهيبة...

انتقل الكولونيل جونسُن إلى موضوع آخر بسرعة: شكراً لك يا سيد لي. سأسألك عن نقطة أخرى. علمت أن والدك كان يحتفظ ببعض أحجار الألماس القيّمة لديه.

فوجئ ألفرد بعض الشيء وقال: نعم، هذا صحيح.

- أين كان يحتفظ بها؟

- في الخزنة في غرفته.

- هل يمكنك أن تصف الألماسات؟

- كانت أحجار ألماس خام؛ أي أنها أحجار غير مصقولة.

- لماذا كان والدك يحتفظ بها هناك؟

- كانت نزوة منه. كانت أحجاراً أحضرها معه من جنوب أفريقيا ولم يصقلها أبداً، وكان يحب الاحتفاظ بها في حوزته فقط. كما قلت: كانت نزوة من نزواته.

قال رئيس الشرطة: "فهمت". ولكن بدا واضحاً من نبرة صوته أنه لم يفهم. مضى قائلاً: أكانت ذات قيمة كبيرة؟

- كان والدي يقدر قيمتها بنحو عشرة آلاف جنيه.

- وهل كانت -في الحقيقة- بالغة القيمة؟

- نعم.

- يبدو غريباً الاحتفاظ بمثل هذه الأحجار في خزنة غرفة النوم.

تدخلت ليديا: كان حمي -يا حضرة الكولونيل جونسُن- رجلاً غريب الأطوار نوعاً ما، وكان الإمساك بتلك الأحجار وتقليبها يعطيه متعة كبيرة بالتأكيد.

قال بوارو: ربما كانت تذكّره بالماضي.

نظرت إليه المرأة نظرة إعجاب سريعة وقالت: نعم، أظن ذلك.

قال رئيس الشرطة: هل كان مُؤمَّناً عليها؟

- لا أظن ذلك.

مال جونسُن إلى الأمام وسأل بهدوء: هل عرفت -يا سيد لي- أن تلك الأحجار قد سُرقت؟

حدّق به ألفرد لي وهتف: ماذا؟!

- ألم يخبرك والدك شيئاً عن اختفائها؟

- أبداً.

- ألم تعرف أنه أرسل في طلب الضابط ساغدين وأبلغه بفقدها؟

- لم تكن عندي أي فكرة عن ذلك!

تحوّل رئيس الشرطه إلى المرأة وقال: وماذا عنك يا سيدة لي؟

هزت ليديا رأسها وقالت: لم أسمع شيئاً عن ذلك.

- إذن فالأحجار باقية في الخزنة حسب ظنك؟

- نعم.

ترددت ثم سألت: أهذا هو سبب قتله؟ من أجل تلك الأحجار؟

قال الكولونيل جونسُن: "هذا ما سنكتشفه". ثم واصل حديثه: هل لديكِ أية فكرة -يا سيدة لي- عمَّن دبَّر مثل هذه السرقة؟

هزت رأسها بالنفي وقالت: لا، أنا متأكدة من أن جميع الخدم أمناء. وعلى أية حال من الصعب بالنسبة لهم الوصول إلى الخزنة؛ فقد كان العجوز في غرفته دائماً ولم يكن ينزل إلى الطابق الأسفل أبداً.

- من الذي كان يرتب الغرفة؟

- هوربري. كان يرتب السرير وينظف الغرفة، وكانت الخادمة المساعدة تدخل لإشعال النار كل صباح، وفيما عدا ذلك كان هوربري يفعل كل شيء.

قال بوارو: إذن كان هوربري صاحب أفضل فرصة؟

- نعم.

- هل تظنين -إذن- أنه الذي سرق الألماسات؟

- هذا ممكن. أحسب... أنه كانت لديه أفضل فرصة لذلك. آه، لا أعرف بماذا أفكر!

قال الكولونيل جونسُن: لقد قدّم زوجك وصفاً لأحداث هذا المساء. هل تعطينا وصفك أنت يا سيدة لي؟ متى كانت آخر مرة رأيتِ فيها القتيل؟

- كنا جميعاً في غرفته بعد الظهر... قبل موعد الشاي، وكانت تلك آخر مرة أراه فيها.

- ألم تريه بعد ذلك لإلقاء تحية المساء؟

- نعم؛ لم أرَه.

قال بوارو: هل تذهبين في العادة لتُلقي عليه تحية المساء؟

أجابت بحدة: كلا.

واصل رئيس الشرطة استجوابه: أين كنتِ وقت الجريمة؟

- في غرفة الاستقبال.

- هل سمعت صوت الصراع؟

- أعتقد أنني سمعت صوت سقوط شيء ثقيل. إن غرفة السيد لي تقع فوق غرفة الطعام وليست فوق غرفة الاستقبال؛ ولذلك ما كان لي أن أسمع كثيراً.

- لكنك سمعت الصرخة؟

ارتعشت ليديا وقالت: نعم، سمعت ذلك... كانت رهيبة كصرخة روح في الجحيم. عرفت فوراً أن شيئاً فظيعاً قد حدث، فخرجت مسرعة وتبعت زوجي وهاري إلى الطابق العلوي.

- من غيرك كان موجوداً في غرفة الاستقبال وقتها؟

قطبت ليديا جبينها وقالت: لا أذكر. كان ديفيد في غرفة الموسيقى المجاورة يعزف مقطوعة ميندلسن، وأظن أن هيلدا ذهبت عنده.

- والسيدتان الباقيتان؟

قالت ليديا ببطء: ذهبت ماغدالين لتستخدم الهاتف، ولا أذكر إن كانت قد عادت أم لا. ولا أعرف أين كانت بيلار.

قال بوارو بلطف: لقد أوشكت أن تكوني وحيدة تماماً في غرفة الاستقبال؟

- نعم... نعم... أظن أنني كنت كذلك في الواقع.

قال الكولونيل جونسُن: بالنسبة لأحجار الألماس هذه، أظن أن علينا التأكد تماماً من أمرها. هل تعرف الأرقام السرية لخزنة والدك يا سيد لي؟ أرى أنها خزنة قديمة الطراز.

- ستجد ذلك مكتوباً في دفتر ملاحظات صغير يحمله في جيب رداء النوم الذي يلبسه.

- جيد، سنذهب لنرى في الحال. ولكن ربما من الأفضل لنا أن نقابل أولاً أهل البيت الآخرين؛ فربما أرادت السيدات الذهاب للنوم.

وقفت ليديا وقالت: "هيا يا ألفرد". ثم التفتت إلى الآخرين وقالت: هل أرسلهم إليكم هنا؟

- واحداً واحداً لو سمحت يا سيدة لي.

- بالتأكيد.

تحركت نحو الباب، وتبعها ألفرد. وفجأة، وفي اللحظة الأخيرة، استدار ألفرد مسرعاً نحو بوارو قائلاً: بالطبع، أنت هيركيول بوارو! لا أعرف أين كان عقلي. كان عليّ أن أدرك ذلك على الفور.

تكلم بسرعة وبصوت منخفض منفعل: إنها نعمة إلهية أن تكون هنا دون شك! يجب أن تكتشف الحقيقة يا سيد بوارو. لا تلقِ بالاً لأية تكاليف؛ سأكون مسؤولاً عن أية نفقات، ولكن اكتشف الحقيقة. أبي المسكين... قتله أحدهم، قتله بمنتهى الوحشية! يجب أن تكتشف الحقيقة يا سيد بوارو... لا بد من الثأر لوالدي.

أجابه بوارو بهدوء: بإمكاني أن أؤكد لك -يا سيد لي- أنني على استعداد لبذل أقصى جهدي لمساعدة الكولونيل جونسُن والضابط ساغدين.

قال ألفرد: أريدك أن تعمل لحسابي أنا... يجب الانتقام لوالدي.

بدأ يرتعش بعنف. وكانت ليديا قد عادت فذهبت ناحيته وأمسكت بذراعه قائلة: هيا يا ألفرد، يجب أن نُحضر الآخرين.

التقت عيناها بعيني بوارو. كانت عينان تحتفظان بأسرارهما، ولم تضطربا. قال بوارو بهدوء: من كان يظن أن الرجل العجوز...

قاطعته: توقف! لا تقل ذلك!

تمتم بوارو قائلاً: أنتِ مَن قال ذلك يا سيدتي.

تنفست بهدوء: أعرف، أتذكر. كان أمراً... رهيباً جداً.

ثم خرجت من الغرفة مسرعة، وزوجها بجانبها.

* * *

كان جورج لي حاسماً ودقيقاً. قال وهو يهز رأسه: أمر فظيع... فظيع جداً. لا أملك إلاّ الاعتقاد بأن من فعل ذلك شخص مجنون بلا ريب!

قال الكولونيل جونسُن بأدب: أهذا رأيك؟

- نعم، نعم. ربما كان رجلاً مصاباً بهوس القتل وقد هرب من أحد المصحات العقلية في المنطقة.

تدخل الضابط ساغدين قائلاً: و كيف ترى أن هذا الـ... هذا المجنون استطاع دخول البيت يا سيد لي؟ وكيف غادر؟

هز جورج رأسه وقال بحزم: هذا ما على الشرطة اكتشافه.

قال ساغدين: لقد فتشنا ما حول البيت على الفور. جميع النوافذ مغلقة أو كانت مجهزة بشبك حديدي، وكان الباب الجانبي مقفلاً بالمفتاح، وكذلك الباب الأمامي. وما كان بوسع أحدٍ المغادرة عن طريق المطبخ دون أن يراه خدم المطبخ.

صاح جورج: لكن هذا سخف! لن تلبث أن تقول إن أبي لم يقتل على الاطلاق!

قال ساغدين: لقد قُتل دون شك؛ لا يوجد أي شك في ذلك.

تنحنح رئيس الشرطة وتولى الاستجواب: أين كنت وقت وقوع الجريمة؟

- كنت في قاعة الطعام، فقد كان ذلك بعد العشاء مباشرة. لا، أظن أنني كنت في هذه الغرفة، وكنت قد أنهيت -لتوي- حديثاً هاتفياً.

- كنت تتحدث بالهاتف.

- نعم، لقد اتصلت بوكيل حزب المحافظين في ويسترينغهام (وهي دائرتي الانتخابية) لبعض الأمور الملحة.

- وهل كان سماعك للصرخة مباشرة بعد ذلك؟

ارتعش جورج قليلاً وقال: نعم، كانت فظيعة جداً. لقد جمّدت الدم في عروقي، وقد تلاشت الصرخة بنوع من الاختناق أو الغرغرة.

أخرج منديلاً ومسح جبينه الذي غطاه العرق، ثم دمدم قائلاً: عمل فظيع.

- وهل أسرعت إلى الطابق الأعلى بعد ذلك؟

- نعم.

- هل رأيت أخويك ألفرد وهاري؟

- لا، أظنهما سبقاني مباشرة إلى الأعلى.

- متى كانت آخر مرة رأيت فيها والدك يا سيد لي؟

- بعد ظهر هذا اليوم. كنّا جميعاً عنده هناك.

- ولم تره بعد ذلك؟

- نعم.

سكت رئيس الشرطة ثم قال: هل كنت تعرف أن أباك يحتفظ بكمية من أحجار الألماس القيمة غير المصقولة في الخزنة الموجودة في غرفة نومه؟

أومأ جورج برأسه وقال بشيء من التفاخر: وهو عمل يفتقر تماماً إلى الحكمة. لقد قلت له ذلك مراراً، وربما قُتل من أجلها... أقصد أن هذا يعني...

قاطعه الكولونيل جونسُن: هل تعرف أن هذه الأحجار قد اختفت؟

فتح جورج فمه، وحدق بعينيه الجاحظتين: لقد قتل بسببها إذن؟

قال رئيس الشرطة ببطء: كان يعرف أنها فُقدت، وقد أبلغ الشرطة بذلك قبل وفاته ببضع ساعات.

قال جورج: و لكن، إذن... لا أفهم. إنني...

قال بوارو بهدوء: نحن أيضاً لا نفهم!

* * *

دخل هاري لي الغرفة بشكل يوحي بالثقة والغرور. حدّق بوارو به عابساً لبعض الوقت، وتملكه إحساس بأنه رأى ذلك الرجل في مكان ما من قبل. لاحظ أوصافه: الأنف المرتفع، والرأس المرتد إلى الخلف باعتداد، وخط الفك. ورغم أن هاري كان رجلاً ضخماً بينما كان والده متوسط الطول إلاّ أن بوارو أدرك -مع ذلك- أن بينهما شبهاً كبيراً.

ولاحظ شيئاً آخر أيضاً، فرغم كل ثقته الظاهرة، كان هاري لي عصبياً. كان يتقن إخفاء ارتباكه تحت ستار من خفة الحركة والتلقائية، ولكن القلق تحت ذلك الستار كان حقيقياً تماماً.

قال: حسناً أيها السادة، ماذا يمكنني أن أقول لكم؟

قال الكولونيل جونسُن: سنكون مسرورين بأي ضوء يمكن أن تلقيه على أحداث هذا المساء.

هز هاري لي رأسه وقال: لا أعرف شيئاً على الاطلاق. الأمر كله مرعب جداً وغير متوقع إطلاقاً.

قال بوارو: أظن أنك عدت من الخارج مؤخراً يا سيد لي؟

التفت هاري إليه بسرعة وقال: نعم، جئت إلى إنكلترا قبل أسبوع.

قال بوارو: هل كنت غائباً منذ فترة طويلة؟

رفع هاري ذقنه إلى أعلى وضحك قائلاً: الأفضل أن تسمعوا ذلك مباشرة مني؛ إذ لن يلبث أحدهم أن يخبركم! إنني الابن الضال

أيها السادة! وقد مضى ما يقرب من عشرين سنة على خروجي من هذا البيت.

سأله بوارو: لكنك عدت... والآن. هلاّ أخبرتنا لماذا؟

و بنفس مظاهر الصراحة كان هاري مستعداً للإجابة: حدث لي ما حدث للابن الضال في الحكاية القديمة. سئمت حياة عدم الاستقرار التي عشتها، وقلت لنفسي إن العجل السمين الذي ينتظر عودتي سيكون تغييراً مرغوباً. وقد استلمت رسالة من أبي يطلب مني فيها المجيء إلى البيت، فأطعت الأوامر وجئت. هذا كل ما في الأمر.

قال بوارو: هل جئت في زيارة قصيرة... أم طويلة؟

قال هاري: عدت إلى البيت... إلى الأبد!

- هل كان والدك راغباً بذلك؟

ضحك ثانية وقد التمعت عيناه بشكل محبب وقال: كان العجوز مسروراً. كان العيش هنا مع ألفرد مملاً كثيراً بالنسبة له! إن ألفرد رجل ممل، وهو عمليّ ومفيد جداً، ولكن رفقته لا تُحتمَل. لقد كان أبي مستهتراً بعض الشيء في أيامه القديمة، وكان يتطلع إلى رفقتي أنا.

- هل كان أخوك وزوجته مسرورَين بمجيئك للعيش هنا؟

سأله بوارو هذا السؤال وقد رفع حاجبيه قليلاً، فقال هاري: ألفرد؟ كان ألفرد يموج غضباً. لا أعرف شعور ليديا، فربما كانت منزعجة حرصاً منها على ألفرد، ولكني لا أشك في أنها ستكون

مسرورة تماماً في النهاية وأن علاقتي معها ستنجح، أما ألفرد فكان من نوع مختلف تماماً.

ثم ضحك ثانية وقال: لقد كان ألفرد دوماً شديد الغيرة مني. كان دائماً الابن المطيع القابع في البيت والقائم بما يُطلَب منه. وماذا كان يكسب في النهاية؟ ما يكسبه دائماً الولد الطيب في العائلة... ركلة على مؤخرته. خذوها منّي أيها السادة: لا ربح من الفضيلة!

قلّب بصره من رجل لآخر ثم قال: أرجو أن لا تكونوا قد صُدمتم بصراحتي. إنكم -في نهاية الأمر- تبحثون عن الحقيقة، وستنشرون في النهاية كل الغسيل القذر للعائلة في وضح النهار، ولذلك فالأفضل أن أنشر غسيلي مباشرة. لم يتفطر فؤادي بشكل استثنائي بسبب وفاة أبي؛ إذ أنني لم أرَ ذلك العجوز منذ أن كنت صبياً... ولكنه كان أبي مع ذلك، وقد قُتل. وأنا شديد اللهفة على الانتقام من القاتل.

ضرب يداً بيد وهو يراقبهم ثم قال: إننا في عائلتنا نتحمس كثيراً للانتقام. لا أحد من عائلة «لي» ينسى بسهولة. إنني حريص على أن يتم إمساك قاتل أبي وشنقه.

قال ساغدين: أظن أن بإمكانك أن تثق في بذلنا لكل جهد في هذا المجال يا سيد لي.

قال هاري: إن لم تفعلوا فسوف أتولى الأمر بنفسي.

قال رئيس الشرطة بحدة: هل لديك -إذن- أية أفكار عن هوية

القاتل يا سيد لي؟

هز هاري رأسه بالنفي وقال ببطء: لا، لا... ليس عندي. تعرفون أن الأمر كله صدمة. ولكني كنت أفكر في الأمر، ولا أرى احتمالاً لأن يكون عملاً خارجياً.

قال ساغدين وهو يومئ برأسه: آه...

قال هاري: وإن كان الأمر كذلك، فلا بد أن أحداً في البيت هنا هو الذي قتله. ولكن مَن يمكنه أن يفعل ذلك؟ لا نستطيع الاشتباه بالخدم؛ فتريسليان موجود هنا منذ وقت قديم. والخادم الصبي الأبله؟ هذا مستحيل. أما هوربري فهو رجل يخفي جرأة بالغة، ولكن تريسليان أخبرني بأنه كان في الخارج في السينما. إذن ما الذي نصل إليه؟ فإذا ما تجاوزنا ستيفين فار (إذ لماذا يكلف ستيفن نفسه مشقة الطريق من جنوب أفريقيا ليقتل رجلاً غريباً تماماً؟) تبقى العائلة فقط. وإنني لا أرى أحداً منا يمكنه أن يفعل ذلك والله. ألفرد؟ كان متيماً بوالدي. جورج؟ ليست لديه الشجاعة لفعل ذلك. ديفيد؟ كان ديفيد دوماً رجلاً حالماً، يُغمى عليه إن رأى أصبعه مجروحاً. الزوجات؟ لا يمكن أن يذهبن ويقطعن حنجرة رجل بدم بارد. إذن مَن فعل ذلك؟ لا أعرف. ولكنه أمر يبعث على أشد القلق.

تنحنح الكولونيل جونسُن (وهي عادة رسمية فيه) وقال: متى كانت آخر مرة رأيت فيها والدك هذا المساء؟

- بعد تناول الشاي. كان قد تشاجر لتوه مع ألفرد... بسببي أنا... خادمكم المتواضع. كان العجوز مبتهجاً بنفسه إلى أبعد حد، وهو يحب إثارة المتاعب دائماً. هذا برأيي هو سبب كتمان مسألة

وصولي عن الآخرين. كان يحب رؤية سَوْرة الغضب عندما أصل على نحو غير متوقع! وهذا هو -أيضاً- سبب حديثه عن تبديل وصيته أيضاً.

تململ بوارو وتمتم قائلاً: إذن فقد ذكر والدك موضوع وصيته؟

- نعم، أمامنا جميعاً، وكان يراقبنا كأنه قطة ليرى ردود فعلنا. وقد طلب من محاميه أن يأتي ليراه بشأن الوصية بعد عيد الميلاد.

سأله بوارو: ما هي التغييرات التي كان يفكر في إجرائها؟

ابتسم هاري وقال: لم يخبرنا بذلك؛ إنه ثعلب عجوز! أتخيّل (أو لنقل إنني كنت آمل) بأن يكون التغيير لصالح خادمكم المتواضع! أتصور أنني كنت قد حُرمت من الميراث في الوصية السابقة، وأظن أنه رأى الآن أن يدرج اسمي مجدداً، وتلك ضربة عنيفة للآخرين. وبيلار أيضاً... لقد تعلق بها، وأعتقد أنها كانت ستحصل على نصيب أيضاً. ألم تروها بعد؟ إنها ابنة أختي وهي إسبانية.

- هل قلت إن والدك تعلق بها؟

أومأ هاري برأسه وقال: لقد عرفَتْ كيف تكسب وِدَّ العجوز وأمضتْ بالجلوس معه فترة طويلة. أنا واثق أنها عرفت تماماً ما تريده! حسناً، إنه ميت الآن، ولا توجد وصايا يمكن تبديلها لصالح بيلار ولا حتى لصالحي، حظ سيء.

عبس وسكت لحظة ثم واصل كلامه بعد أن غيّر نبرته: ولكنني ابتعدت عن الموضوع. لقد أردتم معرفة آخر مرة رأيت فيها والدي!

كما قلت لكم، كان ذلك بعد تناول الشاي... قد يكون بعد السادسة بقليل. كانت معنويات العجوز وقتها جيدة، وربما كان متعباً قليلاً. ذهبتُ وتركته مع هوربري، ولم أره بعدها أبداً.

- أين كنت وقت وفاته؟

- في قاعة الطعام مع أخي ألفرد. لم تكن رفقة مسائية سعيدة؛ فقد كنّا منخرطَيْن في جدال حاد جداً عندما سمعنا الجلبة فوقنا. بدا الأمر وكأن عشرة رجال كانوا يتصارعون هناك، ثم صرخ العجوز المسكين. بدا الأمر أشبه بقتل ثور هائج... وقد شلّت الصرخة ألفرد. جلس هناك فاغراً فاه، فهززته بقوة لأعيده إلى وعيه، ثم صعدنا الدرج. وكان الباب مقفلاً فاضطررنا لكسره، وقد تطلب ذلك جهداً أيضاً. لا أستطيع أن أتصور كيف قُفِل ذلك الباب؛ فلم يكن في الغرفة أحدٌ سوى والدي، وأراهن أن أحداً لم يكن بوسعه الهروب من النوافذ!

قال الضابط ساغدين: كان الباب مقفلاً من الخارج.

حدّق هاري وقال: ماذا؟ لكنني أقسم بأن المفتاح كان موجوداً في الباب من الداخل.

همس بوارو: إذن فقد لاحظت ذلك؟

قال هاري بحدة: "أنا ألاحظ الأمور فعلاً؛ إنها عادتي". ثم نظر في وجوه الحاضرين وقال: أتريدون معرفة أي شيء آخر أيها السادة؟

هز جونسُن رأسه بالنفي وقال: شكراً لك يا سيد لي، ليس الآن. أرجو أن تطلب ممّن بعدك أن يأتي.

- سأفعل ذلك بالتأكيد.

سار نحو الباب وخرج دون أن ينظر وراءه. وتبادل الرجال الثلاثة النظرات، ثم قال الكولونيل جونسُن: ما رأيك يا ساغدين؟

هز ضابط الشرطة رأسه بارتياب وقال: إنه خائف من شيء ما. وليتني أعرف ما هو!

* * *

توقفت ماغدالين عند مدخل الباب بشكل مؤثر، وارتفعت يدها النحيلة الطويلة لتلامس شعرها اللامع، وبدت صغيرة جداً وخائفة قليلاً.

تعلقت أنظار الرجال الثلاثة بها لبعض الوقت. أظهرت عينا جونسُن إعجاباً مفاجئاً، أما الضابط ساغدين فلم يظهر أي انفعال باستثناء نفاد الصبر الذي يظهره رجل حريص على إكمال مهمته. كانت عينا هيركيول بوارو تنظران إليها بإعجاب (كما لاحظت هي)، ولكن الإعجاب لم يكن بجمالها، بل بالطريقة الفعالة التي كانت تستغل بها هذا الجمال. لم تعرف أنه كان يفكر في نفسه قائلاً: إنها تصلح عارضة أزياء جميلة، ولكن لها عينين قاسيتين.

كان الكولونيل جونسُن يفكر: "فتاة جميلة جداً. سيواجه جورج لي المتاعب معها إن لم يحذر. إنها تُحسن تقويم الرجال تماماً".

الضابط ساغدين فكان يفكر: "امرأة تافهة فارغة العقل. أرجو أن ننجز عملنا معها بسرعة".

- هلاّ جلستِ يا سيدة لي؟

جلست على الكرسي بابتسامة شكر دافئة. كانت نظرتها تقول: "رغم أنك رجل وشرطي إلاّ أنك لست فظيعاً في نهاية الأمر!". واشتمل طرف ابتسامتها على بوارو أيضاً، فالأجانب بالغو التأثر عندما يتعلق الأمر بالنساء. أما بالنسبة للضابط ساغدين فلم تلقِ له بالاً.

تمتمت قائلة وهي تعصر يديها بحزن جميل: أمر رهيب جداً. إنني أشعر بالخوف الشديد.

قال الكولونيل جونسُن بلطف ولكن بسرعة: لا عليك يا سيدة لي. أعرف أنها كان صدمة لكنها انتهت الآن. نريد فقط أن نسمع منك وصفاً لما حدث هذا المساء.

صاحت: ولكني لا أعرف شيئاً عن هذا الأمر... لا أعرف حقاً.

ضاقت عينا رئيس الشرطة لحظة، ثم قال بلطف: نعم، بالطبع لا تعرفين.

- لقد وصلنا إلى هنا بالأمس فقط. أراد مني جورج الحضور إلى هنا من أجل عيد الميلاد. ليتنا لم نحضر! أنا متأكدة من أن أعصابي لن تعود إلى طبيعتها مرة أخرى!

- إنه أمر مزعج جداً... نعم.

- أنا لا أكاد أعرف عائلة جورج. لم أرَ السيد لي إلاّ مرة واحدة أو مرتين فقط؛ مرة في حفل زفافنا، ثم مرة واحدة بعدها. وقد رأيت ألفرد وليديا مراتٍ أكثر بالطبع، ولكنهم جميعاً غرباء تماماً بالنسبة لي.

مرة أخرى ظهرت في عينيها الواسعتين نظرة الطفل المرعوب، ومرة أخرى نظر هيركيول بوارو إليها بإعجاب... ومرة أخرى فكر في نفسه قائلاً: إنها تتقن تمثيل الكوميديا، هذه الطفلة.

قال الكولونيل جونسُن: نعم، نعم. والآن أخبريني فقط عن آخر مرة رأيت فيها حماك، السيد لي، وهو على قيد الحياة.

- آه، تريد ذلك! كان ذلك بعد ظهر هذا اليوم، وكان أمراً فظيعاً!

قال جونسُن بسرعة: فظيعاً؟ لماذا؟

- كانوا غاضبين جداً!

- مَن كان غاضباً؟

- آه، جميعهم. لا أقصد جورج؛ إذ لم يقل والده أي شيء له، ولكني أعني الآخرين جميعاً.

- ما الذي حدث بالضبط؟

- عندما دخلنا هناك (وكان قد طلبنا جميعاً) كان يتحدث

بالهاتف مع محاميه بخصوص وصيته، ثم قال لألفرد إنه (أي ألفرد) يبدو كئيباً جداً، وأظن أن ألفرد كان كذلك لأن هاري جاء ليعيش في البيت. أظنه كان منزعجاً جداً من هذا الأمر؛ فقد سبق لهاري أن فعل بعض الأشياء الفظيعة. ثم قال العجوز شيئاً عن زوجته (وهي ميتة منذ فترة طويلة)؛ قال إنها كانت صغيرة العقل، وقفز ديفيد وبدا وكأنه يريد قتله... آه!

سكتت فجأة وعيناها مذعورتان، ثم قالت: لم أقصد هذا... لم أقصده على الإطلاق!

قال الكولونيل جونسُن مهدئاً: تماماً... تماماً، إنها مجرد عبارة مجازية، هذا كل ما في الأمر. ماذا حصل بعد ذلك؟

- هدأته هيلدا، وأعتقد أن هذا كل ما حدث. قال السيد لي إنه لا يريد أن يرى أحداً مرة أخرى ذلك المساء؛ لذلك خرجنا جميعاً.

- هل كانت هذه آخر مرة ترينه فيها؟

قالت: "نعم. إلى أن... أن..."، ثم ارتجفت.

قال الكولونيل جونسُن: نعم، صحيح تماماً. أين كنتِ وقت وقوع الجريمة؟

- آه، دعني أتذكر. أظنني كنت في غرفة الاستقبال.

- ألست متأكدة؟

طرفت عينا ماغدالين قليلاً وانسدل جفناها وقالت: بالطبع،

يا لي من غبية! لقد ذهبت لإجراء مكالمة بالهاتف. إن المرء يختلط عليه الأمر كثيراً.

- قلت إنك كنت تهاتفين، في هذه الغرفة؟

- نعم، فهذا هو الهاتف الوحيد، باستثناء الهاتف الموجود في غرفة السيد لي في الطابق العلوي.

قال ساغدين: هل كان معك في الغرفة أحد آخر؟

اتسعت عيناها وقالت: لا؛ كنت وحيدة تماماً.

- هل بقيت هنا فترة طويلة؟

- بعض الوقت. يحتاج الأمر لبعض الوقت حتى تحصل على مكالمة في المساء.

- إذن، فقد كانت مخابرة هاتفية بعيدة، أليس كذلك؟

- بلى؛ مع ويسترنغهام.

- فهمت.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك سمعنا تلك الصرخة الرهيبة. وكان الجميع يركضون، وكان الباب مقفلاً بحيث توجب كسره. آه! كان ذلك أشبه بكابوس. سأتذكره دوماً!

قال الكولونيل جونسُن بنبرة لطف آلية: "لا، لا". ثم أضاف

قائلاً: أكنت تعرفين أن حماك كان يحتفظ بكمية من أحجار الألماس الثمينة في خزنته؟

- لا، هل كان يحتفظ بذلك حقاً؟ ألماسات حقيقية؟

قال هيركيول بوارو: ألماسات تساوي عشرة آلاف جنيه تقريباً.

- آه!

كانت تلك شهقة ناعمة أطلقتها تحمل في طياتها الجشع الأنثوي.

قال الكولونيل جونسُن: حسناً، أظن أن هذا يكفي في الوقت الحالي. لا حاجة لأن نزعجك أكثر من هذا يا سيدة لي.

- آه، شكراً لكم.

نهضت وابتسمت لجونسُن ثم لبوارو ابتسامة فتاة صغيرة شاكرة، ثم خرجت تسير ورأسها مرفوع للأعلى.

صاح الكولونيل جونسُن: هلاّ طلبت من السيد ديفيد لي أن يأتي إلى هنا؟

ثم عاد إلى الطاولة بعد أن أغلق الباب وراءها وقال: حسناً، ما رأيكما؟ إننا نتقدم قليلاً الآن! لاحظنا شيئاً واحداً الآن: كان جورج لي يتصل هاتفياً عندما سمع الصرخة، وزوجته كانت تتصل هاتفياً عندما سمعتها! إن هذا لا يتطابق... لا يتطابق على الإطلاق.

ثم أضاف: ما رأيك يا ساغدين؟

قال الضابط ببطء: لا أريد أن أتحدث ضد السيدة، ولكن -رغم كونها من اللائي يُتقِنَّ انتزاع المال من الرجال- إلاّ أنني لا أظن أنها من النوع الذي يمكن أن يذبح رجلاً، فذلك لا يناسب شخصيتها أبداً.

تمتم بوارو: آه، لكن المرء لا يدري يا صديقي.

التفت رئيس الشرطة ناحيته: وأنت يا بوارو، ما رأيك؟

مال هيركيول بوارو إلى الأمام وعدّل من وضع نشافة الحبر أمامه ونفض بأصبعه ذرة غبار عن الشمعدان ثم أجاب: أظن أن شخصية الراحل السيد سيميون لي بدأت تظهر لنا، وأرى أن الأهمية الكلية تكمن هناك... في شخصية الرجل القتيل.

التفت الضابط ساغدين إليه متحيراً وقال: لا أظنني فهمتك تماماً يا سيد بوارو. ما علاقة شخصيته القتيل بمقتله بالضبط؟

قال بوارو حالماً: إن لشخصية القتيل دوماً علاقة بمقتله. لقد كان عقل دزدمونة الواضح الذي لا تراوده الشكوك هو سبب موتها؛ إذ كان من شأن امرأة أكثر ارتياباً وحذراً أن ترى مكائد أياغو وتتجنبها في وقت مبكر. وإن قذارة مارات هي التي أدت مباشرة إلى مقتله في حمّام. ومن مزاجية عقل ميركوشيو جاء مقتله بحدّ السيف.

شدّ الكولونيل جونسُن شاربه وقال: ما الذي تريد الوصول إليه بالضبط يا بوارو؟

- إنني أقول لكما إن سيميون لي -نتيجةَ كونه من نوع معيَّن

من الرجال- قد حرّك قوى معينة، وهذه القوى هي التي تسببت في مقتله في النهاية.

- إذن فأنت لا ترى أن لأحجار الألماس علاقة بهذا؟

ابتسم بوارو للحيرة الصادقة على وجه جونسُن وقال: يا عزيزي، لقد كانت شخصية سيميون لي غريبةُ الأطوار هي التي جعلته يحتفظ بأحجار ألماس مصقولة تبلغ قيمتها عشرة آلاف جنيه في خزينته! ليس هذا بالتصرف الذي يقدم عليه أي رجل.

قال الضابط ساغدين وهو يومئ برأسه بأسلوب من فهم أخيراً ما يقصده محدثه: هذا صحيح تماماً يا سيد بوارو. كان السيد لي رجلاً غريب الأطوار. كان يحتفظ بهذه الأحجار هناك حتى يُخرجها ويمسكها بيديه ويستعيد الماضي من خلالها. أنا متأكد أن هذا هو سبب عدم صقله لهذه الأحجار.

أومأ بوارو بحماسة وقال: بالضبط... بالضبط. أرى أنك ذو فطنة كبيرة أيها الضابط.

بدا الضابط مرتاباً بعض الشيء من هذا الإطراء، ولكن الكولونيل جونسُن تدخل قائلاً: يوجد شيء آخر يا بوارو، لا أعرف إن كان قد أثار انتباهك...

قال بوارو: نعم، أعرف ما تقصده. لقد كشفت لنا السيدة جورج لي -عن غير إدراك- أكثر مما أرادت كشفه! لقد أعطتنا صورة ممتازة عن ذلك الاجتماع الأخير للعائلة. لقد أشارت -بكل سذاجة- إلى أن ألفرد كان غاضباً من والده... وأن ديفيد بدا وكأنه

يريد قتله. وأظن أن كلا هذين القولين صحيحان، ونحن نستطيع من خلالهما إعادة بناء استنتاجنا الخاص. لماذا جمع سيميون لي عائلته؟ لماذا كان يجب عليهم أن يصلوا في وقت يسمعونه فيه وهو يهاتف محاميه؟ بالطبع، لم يكن ذلك مجرد مصادفة. لقد أراد لهم أن يسمعوه. لقد كان العجوز المسكين يجلس في كرسيه طوال الوقت بعد أن فقد كل وسائل اللهو التي اعتادها في صباه، ولذلك اخترع وسيلة لهو جديدة لنفسه، فأصبح يسلّي نفسه باللعب على أوتار الجشع والطمع في الطبيعة البشرية. نعم، وباللعب بعواطفها وشهواتها أيضاً! ولكن من هذا ينشأ استنتاج آخر: ففي لعبته في إثارة جشع وعواطف أولاده لم يكن ليُغفل أحداً منهم، ولا بد أنه أبدى -منطقياً وبالضرورة- ملاحظات سخر فيها من السيد جورج لي، بالإضافة إلى الآخرين! وقد حرصت زوجته على أن لا تشير إلى هذا الأمر، وربما كان قد أطلق عليها هي الأخرى سهماً أو أكثر من سهامه المسمومة. أظن أننا سوف نكتشف من الآخرين ما قاله سيميون لي لجورج لي ولزوجة جورج لي...

سكت، وفُتح الباب ودخل ديفيد لي.

* * *

بدا ديفيد لي مسيطراً على نفسه تماماً. كان هادئ السمت إلى حدٍّ يكاد يكون غير طبيعي، وجاء إليهم فسحب كرسياً وجلس عليه وهو ينظر باستفهام إلى الكولونيل جونسُن. انعكس الضوء على شعره الأشقر النامي على جبينه وأظهر تصميم عظام وجنتيه الذي يوحي بالحساسية، وبدا أصغر بكثير من أن يكون ابن ذلك العجوز الذاوي

الممدد قليلاً في الطابق العلوي.

قال ديفيد: نعم يا سادة، ماذا يمكنني أن أخبركم؟

قال الكولونيل جونسُن: لقد فهمتُ -يا سيد لي- أن اجتماعاً قد عقد في غرفة والدك بعد ظهر هذا اليوم؟

- نعم، لكنه لم يكن اجتماعاً رسمياً تماماً. أقصد أنه لم يكن مجلس عائلة أو شيئاً من ذلك.

- ما الذي حدث فيه؟

أجابه ديفيد بهدوء: كان أبي في مزاج صعب. كان رجلاً عجوزاً مقعداً، وبالتالي لا بد لنا أن نلتمس له الأعذار. بدا وكأنه قد جمعنا هناك من أجل.. حسناً، من أجل أن ينفس غيظه فينا.

- هل يمكنك أن تتذكر ما قاله؟

قال ديفيد بهدوء: كان الكلام كله في الحقيقية سخيفاً. قال إننا جميعاً غير ذوي فائدة وإنه لا يوجد في العائلة رجل واحد، وقال إن بيلار (ابنة أختي الإسبانية) تساوي رجلين منّا. وقال...

ثم توقف، فقال بوارو: أرجوك -يا سيد لي- أن تخبرنا بالكلمات التي قالها بالضبط.

قال ديفيد بتردد: كان يتكلم بأسلوب فظ، وقال إنه يأمل أن يكون له -في مكان ما من العالم- أولاد أفضل منا... وإن كانوا قد ولدوا بطريقة غير شرعية!

أظهر وجهه الحساس استياء من الكلمات التي كان يكررها. رفع الضابط ساغدين بصره وقد انتبه فجأة، ثم قال وهو يميل إلى الأمام: هل قال والدك شيئاً لأخيك السيد جورج على وجه الخصوص؟

- لجورج؟ لا أتذكر. آه، نعم، أحسبه قال إنه مضطر لتخفيض مخصصاته وقال له إنه سيتعين عليه (أي جورج) أن يخفض نفقاته في المستقبل. وقد انزعج جورج كثيراً واحمرّ وجهه غضباً، وتلعثم وقال إنه لن يستطيع تدبير حياته إذا ما خُفضت مخصصاته. وقال والدي ببرود تام إن عليه أن يتدبر أمره. قال إن من الأفضل له أن يجعل زوجته تساعده في الاقتصاد في المصاريف. وكانت تلك ملاحظة لئيمة؛ فقد كان جورج -على الدوام- المقتصد الوحيد فينا... يوفر ويقتّر في كل فلس. أظن أن ماغدالين تسرف بعض الشيء. إن لها أذواقاً باهظة التكاليف.

قال بوارو: إذن فقد انزعجت هي الأخرى؟

- نعم. وإلى جانب ذلك، فقد تفوه والدي بشيء آخر لا يخلو من فظاظة... حيث ذكر أنها كانت تعيش مع ضابط بحرية. وكان يعني والدها بالطبع، ولكن بدا أن في العبارة شيئاً من اللبس. وقد احمرّ وجه ماغدالين غضباً. إنني لا ألومها.

قال بوارو: هل ذكر والدك زوجته الراحلة، والدتك؟

اندفع الدم الأحمر إلى وجه ديفيد. أمسكت يداه بالطاولة أمامه وهما ترتعشان قليلاً ثم قال بصوت منخفض مخنوق: نعم، ذكرها. لقد أهانها.

قال الكولونيل جونسُن: ما الذي قاله؟

قال ديفيد بسرعة: لا أتذكر، مجرد إشارة استهانة.

قال بوارو بهدوء: هل ماتت والدتك منذ زمن؟

قال ديفيد باقتضاب: لقد ماتت عندما كنتُ صبياً.

- ربما لم تكن سعيدة في حياتها هنا، أليس كذلك؟

ضحك ديفيد ضحكة ازدراء وقال: ومَنْذا يسعد مع رجل مثل أبي؟ كانت أمي قديسة، ولقد ماتت مكسورة الفؤاد.

واصل بوارو كلامه: ربما حزن والدك لوفاتها، أليس كذلك؟

قال ديفيد بسرعة: لا أعرف؛ لقد تركتُ البيت بعدها.

سكت ثم قال: ربما لا تعرفون حقيقة أنني -عندما جئت في هذه الزيارة- لم أكن قد رأيت والدي لمدة عشرين عاماً تقريباً، لذلك لا أستطيع أن أخبركم بالكثير عن عاداته أو أعدائه أو ما يجري هنا.

سأله الكولونيل جونسُن: هل كنت تعرف أن والدك كان يحتفظ بكثير من أحجار الألماس الثمينة في خزنة غرفة نومه؟

قال ديفيد دون مبالاة: حقاً؟ يبدو ذلك تصرفاً غبياً.

قال جونسُن: هل يمكنك أن تصف -باختصار- تحركاتك في الليلة الماضية؟

- تحركاتي؟ آه، تركت مائدة الطعام بسرعة؛ فذلك الجلوس حول المائدة لاستكمال شرب المرطبات يشعرني بالملل، وبالإضافة

لذلك كنت أرى أن الوضع بين ألفرد وهاري يتفاقم باتجاه حدوث شجار بينهما، وأنا أكره المشاجرات. لذلك انسللت خارجاً وذهبت إلى غرفة الموسيقى وعزفت على البيانو.

سأله بوارو: غرفة الموسيقى؟ إنها الغرفة التي تلي قاعة الاستقبال، أليس كذلك؟

- بلى؛ عزفت هناك لبعض الوقت... إلى أن... إلى أن حدث ذلك الأمر.

- ما الذي سمعته بالضبط؟

- آه! صوتٌ بعيدٌ لِقِطَع أثاث تنقلب في مكان ما في الطابق العلوي، ثم بعد ذلك صرخة قوية مروعة، كصرخة روح تُعذَّب في جهنم. يا إلهي، لقد كانت فظيعة!

قال جونسُن: هل كنت وحيداً في غرفة الموسيقى؟

- إيه؟ لا، كانت زوجتي هيلدا هناك. كانت قد جاءت من قاعة الاستقبال. لقد... لقد صعدنا مع الآخرين.

أضاف مسرعاً وبعصبية: هل تريدني أن أصف الذي... الذي رأيته هناك؟

قال الكولونيل جونسُن: لا؛ هذا غير ضروري. شكراً لك يا سيد لي، ليس عندنا أسئلة أخرى. أظنك لا تستطيع أن تتخيل مَن عساه يرغب في قتل والدك، أليس كذلك؟

قال ديفيد بقسوة: أظن أنهم كثر، ولكن لا أعرف شخصاً محدداً!

ثم خرج مسرعاً وأغلق الباب وراءه بقوة.

* * *

لم يكد الكولونيل جونسُن يتنحنح استعداداً للكلام حتى فُتح الباب ثانية لتدخل هيلدا.

نظر هيركيول بوارو إليها باهتمام. كان عليه أن يقر في نفسه بأن الزوجات اللاتي تزوجهن أولاد سيميون لي يصلحن موضوعاً لدراسة ممتعة: الذكاء السريع ورشاقة كلب الصيد عند ليديا، وبهارج ماغدالين وحسنها، والآن قوة هيلدا الصلبة والمريحة. رأى أنها أصغر مما توحي به تسريحة شعرها القديمة وملابسها التي لا تجاري الأزياء الحديثة. لم يكن الشيب قد خالط شعرها البني فيما كانت عيناها العسليتان المركزتان في وجهها الممتلئ مثل منارتين تشعان عطفاً. ورأى فيها بوارو امرأة لطيفة.

تحدث الكولونيل جونسُن بألطف لهجة ممكنة: لقد سبب ذلك لكم التوتر. فهمت من زوجك -يا سيدة لي- أن هذه أول مرة تأتين بها إلى هذا المنزل، أليس كذلك؟

أومأت برأسها موافقة.

- هل تعرفت من قبل على والد زوجك، السيد لي؟

رددت هيلدا بصوتها المرح: لا؛ لقد تزوجنا بعد أن ترك ديفيد

بيته مباشرة. أراد دائماً أن يقطع علاقته بعائلته، وحتى هذه الزيارة لم نكن قد رأينا أياً منهم.

- إذن كيف حدثت هذه الزيارة؟

- كتب والد زوجي رسالة إلى ديفيد أكد فيها على سنّه ورغبته في أن يجتمع كل أولاده ليكونوا معه في عيد الميلاد هذا.

- وهكذا استجاب زوجك لهذا الالتماس، أليس كذلك؟

- أخشى أن موافقته كانت بتأثيري... لقد أسأت فهم الوضع.

قاطعها بوارو قائلاً: هل تتكرمين بتوضيح أكثر لأقوالك يا سيدتي؟ أظن أن ما يمكنك إخبارنا به قد يكون ذا قيمة.

التفتت إليه على الفور وقالت: في ذلك الوقت لم أكن قد رأيت والد زوجي أبداً. لم تكن عندي أية فكرة عن دافعه الحقيقي لهذه الدعوة، فافترضت أنه رجل كبير بالسن ووحيد وأنه أراد حقاً أن يتصالح مع جميع أبنائه.

- وماذا كان دافعه الحقيقي برأيك يا سيدتي؟

ترددت هيلدا لحظة، ثم قالت ببطء: ليس عندي شك... على الإطلاق... بأن ما كان يريده والد زوجي حقاً لم يكن إشاعة السلام، بل إثارة النزاع.

- كيف؟

قالت هيلدا بصوت منخفض: كان يسليه ويمتعه أن... أن يلجأ لإثارة أسوأ الغرائز في الطبيعة البشرية. كانت فيه... كيف يمكنني أن

أسميها؟ نزعة إيذاء ماكرة شيطانية. لقد رغب في وضع كل فرد من أفراد العائلة في نزاع مع الآخرين.

قال جونسُن بحدة: وهل نجح في ذلك؟

- آه، نعم؛ لقد نجح.

قال بوارو: لقد قيل لنا -يا سيدتي- إن مواجهة حدثت بعد ظهر هذا اليوم، وأظنها كانت مواجهة عنيفة.

أومأت برأسها موافقة.

- ألا تصفينها لنا؟ وأرجو أن يكون وصفاً حقيقياً قدر الإمكان.

فكرت دقيقة ثم قالت: عندما دخلنا كان السيد لي يتصل هاتفياً.

- بمحاميه كما فهمت؟

- نعم، كان يقترح على السيد... هل كان اسمه تشارلتون؟ لا أتذكّر الاسم تماماً... يقترح عليه بأن يأتي إليه، إذ أنه (أي السيد لي) يريد كتابة وصية جديدة، وقال إن وصيته القديمة قد تجاوزها الزمن.

قال بوارو: فكّري بروية يا سيدتي، هل ترين أن السيد لي كان يتعمد أن يجعلكم جميعاً تسمعون حديثه، أم أنكم سمعتموه بطريق الصدفة وحدها؟

- أنا متأكدة تقريباً أنه أرادنا أن نسمعه.

- هل كان ذلك بهدف إثارة الشكوك والريبة بينكم؟

- نعم.

- أي أنه ربما لم يكن ينوي حقاً تغيير وصيته إطلاقاً؟

اعترضت قائلة: بلى؛ أعتقد أن ذلك الجزء من الحديث كان حقيقياً. ربما أراد فعلاً كتابة وصية جديدة... ولكنه كان يستمتع في التشديد على ذلك أمامنا.

قال بوارو: ليست لي -يا سيدتي- صفة رسمية، وربما لم تكن أسئلتي مشابهة لما كان لأي مسؤول إنكليزي أن يطرحه، ولكن لي رغبة شديدة في معرفة رأيك بالصيغة التي كان يُحتمَل للوصية الجديدة أن تأخذها. ولعلك تدركين أن ما أطلبه ليس معلومات منك، بل مجرد رأيك؛ فالنساء -والحمد لله- سريعات في تكوين رأي.

ابتسمت هيلدا قليلاً وقالت: إنني لا أتردد في قول ما أراه. لقد تزوجت أخت زوجي، جينفر، رجلاً إسبانياً يدعى خوان إستِرافادوس، وقد وصلت ابنتها بيلار إلى هنا لتوها. إنها فتاة رائعة جداً، وهي الحفيدة الوحيدة في العائلة بالطبع. وكان العجوز، السيد لي، مسروراً بها، وقد أحبها حباً شديداً. وفي رأيي أنه رغب في ترك مبلغ كبير لها في وصيته الجديدة. ربما لم يكن قد ترك لها في الوصية القديمة إلاّ حصة صغيرة، أو حتى أغفلها تماماً في تلك الوصية.

- هل كنت تعرفين أخت زوجك؟

- لا، لم ألتق بها أبداً. أظن أن زوجها الإسباني قد مات في ظروف مأساوية بعد زواجه بها بوقت قصير، وجينفر نفسها ماتت قبل سنة وتركت بيلار يتيمة، ولذلك أرسل السيد لي في طلبها كي تأتي وتعيش معه في إنكلترا.

- وهل رحب أفراد العائلة الآخرون بقدومها؟

قالت هيلدا بهدوء: أعتقد أنهم أحبوها جميعاً. كان أمراً جميلاً أن تكون في البيت فتاة صغيرة تملأ البيت حيوية.

- وهي، هل يبدو أنها أحبت وجودها هنا؟

قالت هيلدا ببطء: لا أعرف. لا بد أن الجو هنا بارد وغريب على فتاة نشأت في الجنوب... في إسبانيا.

قال جونسن: لا يمكن أن يكون العيش في إسبانيا في أيام الحرب هذه أمراً مفرحاً. حسناً، نريد أن نسمع منك الآن - يا سيدة لي- سرداً للحديث الذي دار بعد ظهر اليوم.

تمتم بوارو: أعتذر لأني شغلتكم بهذه الاستطرادات.

قالت هيلدا: بعد أن أنهى السيد لي مكالمته الهاتفية نظر إلينا وضحك. قال إننا نبدو جميعاً متجهمين، ثم قال إنه متعب ويجب أن يذهب للنوم مبكراً، وطلب أن لا يأتي لرؤيته أحد في ذلك المساء. قال إنه يريد أن يكون في أحسن حالاته استعداداً لعيد الميلاد... شيئاً من هذا القبيل.

قطبت حاجبيها في محاولة للتذكر وقالت: بعدها أظنه قال شيئاً عن ضرورة أن ينتمي المرء لعائلة كبيرة حتى يقدّر عيد الميلاد، ثم

انتقل الحديث عن المال. قال إن إدارة هذا البيت ستكلفه مبالغ أكثر في المستقبل، وأخبر جورج وماغدالين بأن عليهما أن يقتصدا وأن على ماغدالين أن تخيط ملابسها بنفسها (وهي فكرة قد مضى زمانها، ولا أعجب من انزعاج ماغدالين منها). وقال إن زوجته كانت بارعة في أمور الخياطة والحياكة.

قال بوارو بلطف: أهذا كل ما قاله عنها؟

احمرّ وجه هيلدا وقالت: أشار باستهانة إلى قلّة عقلها. كان زوجي شديد التعلق بوالدته، وهذا ضايقه كثيراً. وبعد ذلك بدأ السيد لي فجأة بالصراخ فينا جميعاً، وقد جعل من الأمر قضية أثارت غضبه. إنني أفهم بالطبع كيف كان يشعر...

قال بورو بلطف مقاطعاً إياها: كيف كان يشعر؟

التفتت إليه بعينيها الهادئتين وقالت: كان يشعر -طبعاً- بخيبة أمل لعدم وجود أحفاد في العائلة، وأعني هنا أحفاداً ذكوراً يحملون اسم العائلة من بعده. إنني أدرك أن هذا الأمر كان يعتمل في صدره منذ زمن طويل دون شك، وفجأة لم يعد باستطاعته إخفاؤه فترة أطول، ولذلك نَفّس عن غضبه بأولاده قائلاً إنهم مجموعة من النساء العجائز المخنثين... شيئاً كهذا. أحسست عندها بالأسى على حاله، لأنني أدركت كيف جرح هذا الأمر كبرياءه.

- وبعد ذلك؟

قالت هيلدا ببطء: وبعد ذلك خرجنا كلنا.

- أكانت تلك آخر مرة رأيته فيها؟

أومأت برأسها بالإيجاب.

- أين كنت وقت وقوع الجريمة؟

- كنت مع زوجي في غرفة الموسيقى، وكان يعزف لي مقطوعة.

- وبعد ذلك؟

- سمعنا من الطابق العلوي أصوات مقاعد وطاولات تُقلب وفخار صيني يكسر... وأصوات قتال عنيف. ثم سمعنا تلك الصرخة الفظيعة عندما كانت حنجرته تقطع...

قال بوارو: أكانت صرخة شنيعة؟ هل كانت... مثل روح تُعذَّب في جهنم؟

قالت هيلدا: كانت أسوأ من ذلك!

- ماذا تقصدين يا سيدتي؟

- كانت أشبه بصرخة امرئ لا روح له... صرخة غير إنسانية، كوحش...

قال بوارو بهدوء: إذن... فقد حكمتِ عليه يا سيدتي؟

رفعت يدها بأسىً وخفضت عينيها وحدّقت إلى الأرض.

* * *

دخلت بيلار إلى الغرفة باحتراسِ حيوانٍ يرتاب بوجود مصيدة. جالت عيناها في الغرفة من جانب لآخر، ولم تبدُ خائفة بقدر ما بدت متشككة جداً.

نهض الكولونيل جونسُن وقدم لها كرسياً، ثم قال: أظنك تفهمين الإنكليزية يا آنسة إيسترافادوس؟

اتسعت عينا بيلار وقالت: بالطبع. أمي كانت إنكليزية؛ إنني إنكليزية جداً بالفعل.

ارتسمت على شفتي الكولونيل جونسُن ابتسامة باهتة وهو ينظر إلى التماعة شعرها الأسود وعينيها السوداوين المليئتين بالاعتداد وشفتيها الحمراوين المكوّرتين. إنكليزية جداً! عبارة أبعد ما تكون انطباقاً على بيلار إيسترافادوس. قال الكولونيل: كان السيد لي جدك، وقد أرسل في طلبك لتأتي من إسبانيا، وقد وصلتِ قبل بضعة أيام. هل هذا صحيح؟

أومأت بيلار برأسها وقالت: هذا صحيح. آه، ولقد اعترضتني الكثير من المجازفات حتى خرجت من إسبانيا. سقطت قنبلة من الجو وقتل السائق... وكانت هناك دماء كثيرة حيث عثروا على رأسه. وأنا لا أحسن قيادة السيارة، لذلك كان عليّ أن أمشي مسافة طويلة. إنني لا أحب المشي. لم أكن أمشي أبداً من قبل، وقد تورمت قدماي... تورمتا تماماً.

ابتسم الكولونيل جونسُن وقال: لقد وصلتِ إلى هنا على أية حال. هل حدَّثتْك والدتُك كثيراً عن جدك؟

أومأت بيلار برأسها مبتهجة وقالت: آه، نعم، قالت إنه كان شيطاناً عجوزاً.

ابتسم هيركيول بوارو وقال: وماذا كان رأيك فيه بعد أن وصلت إلى هنا يا آنسة؟

- كان بالطبع عجوزاً جداً، وكان مضطراً لملازمة الكرسي... ولكني أحببته رغم ذلك. أظنه كان رجلاً وسيماً في شبابه، وسيماً جداً. مثلك...

قالتها بيلار لضابط الشرطة ساغدين، واستقرت عيناها بسذاجة على وجهه الوسيم الذي احمرّ من هذا الإطراء. وكبح الكولونيل جونسُن ضحكة كادت تفلت منه، فقد كانت هذه واحدةً من المناسبات القليلة التي يرى فيها الضابطَ الباردَ الوقورَ وقد ذُهل.

أكملت بيلار بأسف: ولكن جسمه ما كان ليبلغ -طبعاً- ضخامة جسمك.

تنهد هيركيول بوارو وقال: إذن فأنت تحبين الرجال ضخام الأجسام يا آنسة؟

وافقته بيلار بحماسة قائلة: آه، نعم. أحب أن يكون الرجل ضخماً، طويلاً وعريض المنكبين وقوياً جداً جداً.

قال الكولونيل جونسُن بحدة: هل رأيت جدك كثيراً بعد وصولك إلى هنا؟

- نعم. وأخبرني أشياء... منها أنه كان رجلاً شريراً جداً، وحدثني عن جميع الأشياء التي فعلها في جنوب أفريقيا.

- هل أخبرك أنه يحتفظ بأحجار ألماس في خزنة غرفته؟

- نعم، أراني إياها. لكنها لم تكن كالألماس، بل كانت أقرب إلى الحصى. بدت قبيحة جداً، قبيحة جداً فعلاً.

قال الضابط ساغدين باقتضاب: إذن فقد أراك إياها، أليس كذلك؟

- بلى.

- ألم يعطِكِ أياً منها؟

هزت بيلار رأسها وقالت: نعم، لم يفعل. فكرت أنه ربما أعطاني إياها في يوم من الأيام إن كنت لطيفة معه وجلست معه أكثر، لأن الشيوخ -من أمثاله- يحبون الفتيات الصغيرات كثيراً.

قال الكولونيل جونسُن: هل تعرفين أن تلك الأحجار قد سُرقت؟

فتحت بيلار عينيها على اتساعهما وقالت: سرقت؟!

- نعم، ألديك أية فكرة عمّن عساه سرقها؟

أومأت بيلار برأسها وقالت: آه، نعم. لا بد أنه هوربري.

- هوربري؟ أتقصدين خادمه الخاص؟

- نعم.

- لماذا تظنين ذلك؟

- لأن له وجه لص. عيناه تزوغان من جهة لأخرى، وهو يمشي بهدوء ويتنصت وراء الأبواب. إنه كالقطة، وجميع القطط تسرق.

قال الكولونيل جونسُن: حسناً، سنترك الأمر عند هذا الحد. لقد فهمتُ أن جميع أفراد العائلة كانوا في غرفة جدك بعد ظهر هذا اليوم، وأن كلماتٍ غاضبة قد قيلت.

ابتسمت بيلار وأومأت برأسها قائلة: نعم، كانت متعة كبرى. آه! لقد جعلهم جدي غاضبين جداً!

- هل استمتعت بذلك؟

- نعم، أحب رؤية الناس غاضبين، أحب ذلك كثيراً. ولكنهم هنا -في إنكلترا- لا يغضبون كغضب الإسبان. في إسبانيا يُخرجون سكاكينهم ويسبّون ويصرخون، أما في إنكلترا فإنهم لا يفعلون شيئاً، وإنما تحمرّ وجوههم فقط ويغلقون أفواههم.

- هل تتذكرين ما قيل؟

بدت بيلار متشككة بعض الشيء وقالت: لست متأكدة. قال جدي إنهم لا ينفعون... وإنهم لم ينجبوا أطفالاً، وقال إنني أفضل من أي واحد فيهم. لقد أحبني كثيراً.

- هل قال شيئاً يتعلق بمال أو وصية؟

- وصية... لا، لا أظن ذلك. لا أتذكّر.

- ما الذي حدث بعد ذلك؟

خرجوا جميعاً، ما عدا هيلدا... المرأة البدينة، زوجة ديفيد، فقد بقيت وراءهم.

- آه، هل فعلت ذلك؟

- نعم. بدا ديفيد مضحكاً جداً. كان جسمه يرتعش... آه، وكان شاحباً. بدا وكأنه سيغمى عليه.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- ثم ذهبتُ ووجدتُ ستيفن، وجلسنا نستمع لموسيقى الغراموفون.

- ستيفن فار؟

- نعم. إنه من جنوب أفريقيا... ابن شريك جدي السابق، وهو وسيم جداً أيضاً. أسمر وضخم الجسم، وله عينان جميلتان.

سألها جونسُن: أين كنت عندما وقعت الجريمة؟

- هل تسأل أين كنت؟

- نعم.

- كنت في غرفة الاستقبال مع ليديا. ثم صعدت إلى غرفتي وأصلحت من زينتي، وكنت عائدة إلى غرفة الاستقبال عندما سمعت صرخة من بعيد. وكان الجميع يركضون، ولذلك لحقت بهم أنا الأخرى. وكانوا يحاولون خلع باب غرفة جدي. هاري فعل ذلك مع ستيفن، فقد كان الاثنان قويين وضخمين.

- نعم؟

- وبعد ذلك تحطم الباب ووقع على الأرض، ونظرنا جميعاً إلى الداخل. آه، يا له من منظر! كل شيء كان محطماً ومقلوباً على

الأرض، وكان جدي يتمدد في بحر من الدماء، وقد ذُبح هكذا...

مرّرتْ يدها على رقبتها بحركة معبرة درامية وأضافت: حتى أسفل أذنيه تماماً.

سكتت وبدا من الواضح أنها استمتعت بقصتها.

قال جونسُن: ألم تتأثري من رؤية الدم؟

حدقت به وقالت: أبداً، ولماذا أتأثر؟ يكون دمٌ في العادة عندما يُقتل الناس. آه! كان هناك دم كثير في كل مكان!

قال بوارو: هل قال أحدٌ شيئاً؟

- قال ديفيد شيئاً غريباً... دعني أتذكر ما هو؟ آه، نعم. «يمهل ولا يهمل»... هذا ما قاله.

ثم رددتها وهي تشدد على العبارة: **يمهل ولا يهمل**... ماذا يعني هذا؟

قال الكولونيل جونسُن: حسناً، لا أظن أنه يوجد شيء آخر الآن يا آنسة إيسترافادوس.

نهضت بيلار بامتثال، فتبسمت في وجه كل رجل منهم ابتسامة سريعة ساحرة وقالت: إذن سأذهب.

ثم خرجت، فقال الكولونيل جونسُن: يمهل ولا يهمل... وهذا ما قاله ديفيد لي!

* * *

عندما فُتح الباب مرة أخرى رفع الكولونيل جونسُن بصره. ظن -في البداية- أن الداخل هو هاري لي ولكن عندما تقدم ستيفن فار إلى داخل الغرفة أدرك خطأه، وقال: اجلس يا سيد فار.

جلس ستيفن. كانت عيناه الذكيتان الباردتان تنتقلان من واحد لآخر، ثم ما لبث أن قال: أخشى أن لا أفيدكم كثيراً، ولكن أرجو أن تسألوني عن أي شيء ترونه مفيداً. ربما كان من الأفضل -بداية- أن أبين لكم هويتي. والدي هو إبينزر فار، كان شريك سيميون لي من جنوب أفريقيا... أي قبل أكثر من أربعين سنة.

سكت قليلاً ثم أكمل يقول: حدثني والدي كثيراً عن سيميون لي وعن شخصيته. وكان سيميون قد حقق ربحاً كبيراً مع أبي، ثم عاد إلى وطنه بثروة كبيرة، كما أن أرباح والدي لم تكن سيئة. كان أبي يوصيني دائماً بزيارة السيد لي عندما آتي إلى هذا البلد. قلت له ذات مرة إن هذا كان منذ فترة طويلة مضت، وربما لا يعرف الآن من أنا، لكن أبي سخر من الفكرة وقال: "عندما يمر رجلان بمثل ما مررنا به أنا وسيميون فإنهما لا ينسيان". وقد مات والدي قبل سنتين، وفي هذا العام جئت إلى إنكلترا لأول مرة، وفكرت أن أعمل بنصيحة والدي وأزور السيد لي.

أكمل حديثه وهو يبتسم ابتسامة خفيفة: كنت مرتبكاً بعض الشيء عندما جئت إلى هنا، ولكن تبين أنه لم تكن بي حاجة لذلك؛ فقد رحّب بي السيد لي ترحيباً حاراً وأصر كثيراً على أن أمكث مع العائلة في عيد الميلاد. كنت أخشى أن أكون متطفلاً على شؤون العائلة، ولكنه لم يقبل مني أي عذر.

ثم أضاف بخجل: كانوا جميعاً لطفاء معي... السيد ألفرد لي وزوجته... كانا كألطف ما يكون الناس. إنني آسف لحدوث هذا المصاب لهم.

- كم مضى على وجودك هنا يا سيد فار؟

- منذ الأمس.

- هل رأيت السيد لي اليوم؟

- نعم، تحادثت معه قليلاً هذا الصباح. كانت معنوياته جيدة وقتها، وكان مهتماً بسماع أحوال الكثير من الناس والأماكن.

- هل كانت تلك آخر مرة تراه فيها؟

- نعم.

- هل ذكر لك أنه كان يحتفظ بكمية من أحجار الألماس غير المصقولة في خزنته؟

قال: "لا"، ثم أضاف قبل أن يتكلم الآخر: هل تقصد أن هذا الأمر كان قتلاً وسرقة أيضاً؟

قال جونسُن: لسنا متأكدين بعد. والآن لنأتِ إلى أحداث هذه الأمسية، هلاً أخبرتني عما كنت تفعله؟

- بالتأكيد. بعد أن ترك النسوة قاعة الطعام بقيتُ فيها وتناولت كأساً من العصير، ثم أدركت أن الرجال يريدون مناقشة أمورهم العائلية وأن وجودي هناك يعيقهم، لذلك استأذنت وتركتهم.

- وماذا عملت بعد ذلك؟

اتكأ ستيفن فار على كرسيه، وربت بأصبعه على فكه ثم قال بملامح جامدة: لقد... لقد ذهبت إلى غرفة كبيرة ذات أرضية خشبية، وكان هناك غراموفون وأسطوانات فأدرت بعضاً منها.

قال بوارو: كان ممكناً أن يلحق بك شخصٌ هناك، أليس كذلك؟

ارتسمت على شفتي ستيفن فار ابتسامة باهتة جداً، وأجابه: "كان ذلك ممكناً، نعم؛ فالمرء لا ينفك يأمل". ثم ابتسم ابتسامة عريضة دون مواربة.

قال بوارو: الآنسة إيسترافادوس جميلة جداً.

أجابه ستيفن: إنها -ببساطة- أفضل ما نظرتُ إليه منذ أن جئت إلى إنكلترا.

سأله الكولونيل جونسُن: هل انضمت الآنسة إيسترافادوس إليك؟

هز ستيفن رأسه بالنفي وقال: كنت ما أزال هناك عندما سمعتُ الجلبة. خرجتُ إلى الصالة مسرعاً لأرى ما الأمر. ثم ساعدتُ هاري في كسر الباب.

- أهذا كل يمكنك أن تخبرنا به؟

- أخشى أن هذا هو كل ما لديّ.

مال هيركيول بوارو إلى الأمام وقال بهدوء: ولكني أظن -يا سيد فار- أن باستطاعتك أن تخبرنا بالكثير إن شئت.

قال فار بحدة: ماذا تقصد؟

- يمكنك أن تخبرنا بشيء مهم جداً في هذه القضية... شخصية السيد لي. قلتَ إن والدك حدثك كثيراً عنه. أي نوع من الرجال كان كما وصفه لك؟

قال ستيفن فار ببطء: أظنني فهمت ما ترمي إليه. كيف كان سيميون لي في شبابه؟ حسناً، أظنك تريدني أن أكون صريحاً؟

- من فضلك.

- حسناً، في البداية لا أظن أن سيميون لي كان فرداً رفيع الأخلاق من أفراد المجتمع. لا أعني بذلك أنه كان مجرماً محتالاً تماماً، ولكنه كان قريباً جداً من ذلك. لم تكن أخلاقه -باختصار- مما يمكن للمرء أن يتباهى به، ورغم ذلك فقد كان له سحره البالغ. وكان سخياً لدرجة غريبة، وما كان لمدّعي حاجة يقصده أن يعود من عنده خالي الوفاض. كان يشرب قليلاً، دون إسراف، كما كان جذاباً في أعين النساء وذا روح مرحة ساخرة. ومع ذلك كان به عِرقٌ غريب من حب الانتقام. وإن كانت الفيلة توصف بأنها لا تنسى فإن هذا الوصف ينطبق على سيميون لي أيضاً. حدثني أبي عن عدة حالات انتظر فيها سيميون لي سنوات حتى يثأر من شخص كان قد أساء إليه.

قال الضابط ساغدين: تلك لعبة تحتاج إلى لاعبين. ألا تعرف -يا سيد فار- أي شخص أساء له سيميون هناك؟ ألا تعرف شيئاً من

الماضي يمكن أن يوضح لنا الجريمة التي ارتُكبت هذا المساء؟

هز ستيفن فار رأسه وقال: "كان له أعداء بالطبع، هذا لا مفر منه بالنسبة لشخص مثله، ولكني لا أعرف أي حالة محددة". ثم قال وقد ضاقت عيناه: وإلى جانب ذلك فقد فهمتُ -إذ كنت أستجوبُ تريسليان في الواقع- أن أي شخص غريب لم يُشاهَد في البيت أو قريباً منه هذا المساء.

قال هيركيول بوارو: **باستثنائك أنت يا سيد فار.**

أدار ستيفن وجهه نحوه بسرعة وقال: آه، هكذا إذن؟ أسطوانة الغريب المشبوه داخل البيت! حسناً، لن تجد شيئاً من ذلك؛ فلا توجد سابقةٌ احتال فيها سيميون لي على إبينتزر فار حتى يأتي الابن لينتقم لوالده! ما من عداوة بين هذين الرجلين. لقد جئت إلى هنا -كما أخبرتكم- لا يدفعني سوى الفضول، كما أظن أن الغراموفون يصلح دليلاً على غيابي عن مكان الجريمة شأن أي دليل آخر؛ فأنا لم أتوقف عن وضع الأسطوانات فيه، ولا بد أن شخصاً قد سمعها. إن أسطوانة واحدة لم تكن لتعطيني وقتاً حتى أركض نحو الطابق العلوي وعبر تلك الممرات الطويلة جداً فأذبح الرجل العجوز وأغسل عني الدماء وأعود ثانية قبل أن يصعد الآخرون مسرعين. إن الفكرة سخيفة.

قال الكولونيل جونسُن: نحن لا نتهمك يا سيد فار.

قال ستيفن فار: أنا لم أهتم كثيراً بنبرة السيد هيركيول بوارو على أي حال.

قال هيركيول بوارو: "هذا مؤسف!"، ثم ابتسم له بلطف.

نظر ستيفن فار إليه غاضباً، فتدخل الكولونيل جونسُن بسرعة: شكراً لك يا سيد فار. هذا يكفي في الوقت الحالي. لن تغادر هذا البيت بالطبع.

أومأ ستيفن فار ونهض، ثم غادر الغرفة وهو يمشي بخطى لاهية متمايلة. وبعد أن أغلق الباب وراءه قال جونسُن: ها نحن أمام السيد «س»... العامل المجهول. تبدو روايته صريحة لا غبار عليها، ومع ذلك فإنني أرى فيه ما يسمى بالحصان الأسود. ربما جاء إلى هنا بقصة مزيفة لكي يدخل البيت، وربما قام بسرقة تلك الألماسات. من الأفضل أن تأخذ بصمات أصابعه -يا ساغدين- لترى إن كان معروفاً لدينا.

قال ضابط الشرطة بابتسامة برود: لقد أخذتها.

- نِعمَ الرجل أنت، لا يفوتك الشيء الكثير. أظنك قمت بكل الإجراءات المعهودة؟

قال ساغدين وهو يعدِّد على أصابعه: دققنا تلك المكالمات الهاتفية وأوقاتها وغير ذلك، ودققنا في أمر هوربري متى غادر ومَن رآه وهو يخرج، وفحصنا جميع المداخل والمخارج، ودققنا في العاملين بالبيت بشكل عام، وفي الوضع المالي لأفراد العائلة، واتصلنا بالمحامين وفحصنا الوصية، وفتشنا البيت بحثاً عن السلاح وعن بقع الدم على الملابس، وعن الألماسات التي يُحتمَل أن تكون مخبأة في مكان ما.

قال الكولونيل جونسُن باستحسان: أظن أن هذا يغطي كل شيء. هل تقترح شيئاً يا سيد بوارو؟

هز بوارو رأسه بالنفي وقال: لقد كان حضرة الضابط شاملاً في عمله لدرجة تثير الإعجاب.

قال ساغدين عابساً: لن يكون البحث في هذا البيت عن الألماسات المفقودة عملاً سهلاً؛ لم أر في حياتي مثل هذا القدر من التحفيات وأغراض الزينة المتنوعة.

وافقه بوارو قائلاً: المخابئ هنا كثيرة بالتأكيد.

- أليس لديك حقاً ما تقترحه يا بوارو؟

بدا رئيس الشرطة وقد خاب أمله قليلاً... كرجل رفض كلبه أن يؤدي حركته المبتكرة.

قال بوارو: هل تأذن لي بأن أتبع طريقاً خاصاً بي؟

قال جونسُن: بالتأكيد... بالتأكيد.

في نفس اللحظة كان الضابط ساغدين يقول بارتياب: أي طريق؟

قال هيركيول بوارو: أريد التحدث مع أفراد العائلة كثيراً ولعدة مرات.

سأله الكولونيل متحيراً قليلاً: أتعني أنك تريد أن تُجرّب فرصة أخرى في استجوابهم؟

- لا، لا، لا أريد استجوابهم... إنما التحدث معهم!

سأله ساغدين: لماذا؟

أشار بوارو بيده مؤكداً وقال: في الحديث تظهر المسائل! إذا تحدّث الإنسان كثيراً استحال عليه تجنب الحقيقة!

قال ساغدين: إذن فأنت تظن أن أحدهم يكذب؟

تنهد بوارو وقال: يا صديقي، الناس كلهم يكذبون! دون أن يعني ذلك -بالضرورة- سوء النية. من المفيد فصل الكذب الأبيض عن الكذب الحقيقي الخطير.

قال الكولونيل جونسُن بعصبية: ومع ذلك فالأمر لا يُصدَّق. لدينا هنا جريمة قتل وحشية واضحة... ومَن هم الذين نشتبه بهم؟ ألفرد لي وزوجته... كلاهما هادئان رائعان من أصول محترمة. جورج لي، وهو عضو برلمان ورمز للاحترام. زوجته؟ إنها مجرد حسناء عصرية عادية. ديفيد لي يبدو إنساناً لطيفاً، بالإضافة إلى شهادة أخيه هاري بأنه لا يتحمل رؤية الدم. امرأته تبدو إنسانة لطيفة وعاقلة، امرأة عادية تماماً. تبقى ابنة أختهم الاسبانية والرجل القادم من جنوب أفريقيا. إن الحسناوات الإسبانيات ذوات مزاج انفعالي، ولكني لا أرى أن بوسع هذه الإنسانة الفاتنة أن تقطع رقبة الرجل العجوز بدم بارد، خاصة وأننا فهمنا أن من مصلحتها أن يكون على قيد الحياة إلى أن يوقّع وصية جديدة على الأقل. ستيفن فار شخص محتمل... أي أنه قد يكون محتالاً محترفاً وقد جاء إلى هنا وراء أحجار الألماس، وربما اكتشف الرجل العجوز اختفاء الأحجار

فقتله فار ليُخرسه. قد يكون الأمر كذلك... إن قصة الغراموفون كدليل ليست حجة قوية.

هز بوارو رأسه معترضاً وقال: قارن -يا صديقي العزيز- بين البنية الجسمية للسيد ستيفن فار والعجوز سيميون لي. إذا أراد فار قتل العجوز لاستطاع ذلك خلال دقيقة... ما كان بإمكان سيميون لي إبداء كل هذه المقاومة. أيمكن لأحد أن يصدق أن ذلك الرجل العجوز الضعيف وذلك الرجل القوي النشط قد تصارعا لبضع دقائق وهما يُقلّبان الكراسي ويكسّران الفخار؟ إن تصور مثل هذا الأمر غريب بذاته!

ضاقت عينا الكولونيل جونسُن وقال: هل تقصد أن من قتل سيميون لي رجل ضعيف؟

قال ضابط الشرطة: أو امرأة!

* * *

نظر الكولونيل جونسُن إلى ساعته وقال: لم يبقَ لي عمل هنا؛ لقد قمتَ بالأمور خير قيام يا ساغدين. آه، بقي شيء واحد فقط؛ يجب أن نرى كبير الخدم. أعرف أنك استجوبته ولكننا نعرف الآن مزيداً من الأمور عن الأحداث، ومن الضروري أن نحصل على تأكيد على ادعاءات كل واحد عن مكان وجوده ساعة ارتكاب الجريمة.

دخل تربسليان ببطء، وطلب قائد الشرطة منه الجلوس.

- شكراً لك يا سيدي، سأجلس إن لم يكن لديكم مانع. إنني

أشعر بمشاعر غريبة... غريبة جداً في الواقع. رجلاي، ورأسي.

قال بوارو بلطف: لقد تعرضتَ لصدمة، نعم.

ارتعد كبير الخدم وقال: ما أغرب أن يحدث كل هذا الـ... هذا العنف، وفي هذا البيت! حيث كان كل شيء يجري دوماً بهدوء تام.

قال بوارو: كان بيتاً حسن التنظيم، أليس كذلك؟ ولكنه لم يكن بيتاً سعيداً؟

- ما كنت لأقول هذا يا سيدي.

- أكان البيت سعيداً إذن في الأيام الخوالي عندما كان جميع أفراد العائلة في البيت؟

قال تريسليان ببطء: ربما لم يكن بوسع المرء أن يصفه بأنه شديد الانسجام يا سيدي.

- كانت السيدة لي الراحلة امرأة مُقعَدة إلى حدٍّ ما، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي، كانت مريضة كثيراً.

- هل كان أولادها متعلقين بها؟

- كان السيد ديفيد متيماً بها، وكان -في ذلك- أشبه بابنةٍ منه بابنٍ ذكر. وبعد موتها رحل من البيت لأنه لم يعد يتحمل العيش هنا.

قال بوارو: والسيد هاري؟ كيف كان؟

- كان دائماً شاباً متهوراً يا سيدي، ولكنه طيب القلب. يا إلهي! لقد فاجأني كثيراً، عندما قُرِع جرس البيت... ثم قُرِع ثانية، وكأن الزائر كان نافد الصبر. وفتحت الباب فرأيت رجلاً غريباً، وإذا بصوت السيد هاري يقول: "مرحباً تريسليان، أما زلت هنا؟"... تماماً هو هو لم يتغير.

قال بوارو متعاطفاً: نعم، لا بد أن إحساساً غريباً قد انتابك... بالتأكيد.

قال تريسليان وقد احمرّ وجهه قليلاً: أحياناً -يا سيدي- يبدو الماضي وكأنه ليس الماضي! أظن أن مسرحية كانت تُعرض في لندن حول شيء كهذا (وهو أمر غريب، لا شك أن له سبباً) حيث ينتابك إحساس تشعر معه وكأنك فعلت كل شيء من قبل. يبدو لي وكأن الجرس يقرع، ثم أذهب لأفتح الباب فأرى السيد هاري... حتى لو كان القادم هو السيد فار أو شخصاً آخر... فأقول في نفسي: "ولكني فعلتُ هذا من قبل"!

قال بوارو: هذا مثير للاهتمام... مثيرٌ جداً.

نظر تريسليان إليه بامتنان فيما تنحنح جونسُن بنفاد صبر وتولى الحديث قائلاً: نريد أن ندقق فقط بصحة الأوقات المختلفة. عندما بدأ الصراخ في الطابق العلوي فهمتُ أن السيد ألفرد والسيد هاري هما اللذان كانا فقط في غرفة الطعام. هل هذا صحيح؟

- لا أستطيع أن أخبرك بذلك يا سيدي. كان جميع الرجال

هناك عندما قدمت لهم القهوة، ولكن ذلك كان قبل سماع الصراخ بربع ساعة تقريباً.

- كان السيد جورج يهاتف. هل يمكنك تأكيد ذلك؟

- أظن أن شخصاً ما كان يتصل بالهاتف يا سيدي، فقد دق الجرس في غرفة الأواني عندي، فعندما يرفع أحد السماعة لكي يتصل أسمع صوتاً خفيفاً للجرس. أتذكر أنني سمعت ذلك، ولكني لم أعِره أي اهتمام.

- هل تعرف متى كان ذلك بالضبط؟

- لا أستطيع الجزم يا سيدي. كان ذلك بعد أن أخذت القهوة إلى الرجال، هذا كل ما يمكنني قوله.

- هل تعرف أين كانت أية واحدة من السيدات في الوقت الذي ذكرته؟

- كانت زوجة السيد ألفرد في غرفة الاستقبال يا سيدي عندما ذهبتُ لأخذ صينية القهوة، وكان ذلك قبل دقيقة أو دقيقتين من سماعي للصرخة في الطابق العلوي.

- سأله بوارو: ماذا كانت تفعل؟

- كانت تقف بجانب النافذة البعيدة يا سيدي، وقد أزاحت الستارة قليلاً إلى الخلف وهي تنظر خارج الشباك.

- ألم تكن أية واحدة من السيدات الأخريات في الغرفة؟

- نعم يا سيدي، لم يكنّ فيها.

- ألا تعرف أين كُنّ؟

- لا أستطيع الجزم أبداً يا سيدي.

- ألا تعرف أين كان الآخرون؟

- أظن أن السيد ديفيد كان يعزف في غرفة الموسيقى المجاورة لغرفة الاستقبال.

- هل سمعته يعزف؟

ارتعش الخادم العجوز وقال: نعم، وقد كان الأمر أشبه بالنذير يا سيدي، هذا ما شعرت به بعد ذلك. لقد كان يعزف «المارش الجنائزي». وأتذكّر أن ذلك سبّب لي الخوف حتى في ذلك الوقت.

قال بوارو: هذا غريب، نعم.

قال رئيس الشرطة: والآن، بخصوص الخادم الخاص هوربري، هل أنت واثق تماماً أنه كان خارج البيت الساعة الثامنة مساءً؟

- نعم يا سيدي. كان ذلك بعد وصول السيد ساغدين مباشرة. أذكر ذلك على وجه الخصوص لأنه كسر فنجان قهوة.

قال بوارو: هوربري كسر فنجان قهوة؟

- نعم يا سيدي... فنجاناً من مجموعة فناجين وورشستر

القديمة. لقد غسلت تلك الفناجين إحدى عشرة سنة ولم ينكسر أي منها حتى مساء هذا اليوم.

قال بوارو: ماذا كان يفعل هوربري بفناجين القهوة؟

- ليس من شأنه طبعاً أن يقترب منها أبداً يا سيدي. كان يرفع أحدها وكأنه معجب به، ثم حدث أن ذكرتُ له أن السيد ساغدين قد جاء إلى البيت فأسقطه على الأرض.

- هل ذكرت اسم السيد ساغدين أم ذكرت له كلمة الشرطة؟

بدا تريسليان وكأنه قد جفل قليلاً، ثم قال: تذكرت الآن يا سيدي، فقد قلت له إن ضابط الشرطة جاء إلى البيت.

- ثم أسقط هوربري فنجان القهوة.

قال قائد الشرطة: يبدو موقفاً له دلالته. هل سألك هوربري أي سؤال عن زيارة ضابط الشرطة؟

- نعم يا سيدي، فقد سألني عما يريده ضابط الشرطة هنا، وقلت له إنه جاء لجمع تبرعات لملجأ أيتام الشرطة وإنه صعد إلى السيد لي.

- هل بدا الارتياح على هوربري بعد أن قلت له ذلك؟

- أما وقد ذكرت ذلك يا سيدي فنعم، بدا مرتاحاً بالتأكيد. فقد تغير أسلوبه في الحال، وقال إن السيد لي رجل طيب وإنه سخيٌ بماله... قالها بطريقة لا تنم عن الاحترام، ثم خرج.

- من أي اتجاه؟

- من باب صالة الخدم.

تدخل ساغدين قائلاً: كل هذا صحيح يا سيدي. لقد مرّ من المطبخ حيث رأته الطاهية وخادمة المطبخ، وخرج من الباب الخلفي.

- اسمعني يا تريسليان وفكّرْ برويّة. هل توجد أية وسيلة يمكن لهوربري من خلالها أن يعود إلى البيت دون أن يراه أحد؟

هز العجوز رأسه بالنفي وقال: لا أرى كيف يمكنه ذلك يا سيدي؛ فجميع الأبواب مقفلة من الداخل.

- افترض أنه كان يحمل معه مفتاحاً؟

- الأبواب موصدة بالمزاليج أيضاً.

- وكيف يدخل البيت عندما يأتي؟

- معه مفتاح الباب الخلفي يا سيدي. كل الخدم يدخلون من ذلك الباب.

- إذن ربما عاد من ذلك الطريق؟

- ليس دون مروره من المطبخ يا سيدي، والمطبخ يبقى مأهولاً حتى التاسعة والنصف أو العاشرة إلا ربعاً.

قال الكولونيل جونسُن: يبدو ذلك مقنعاً. شكراً لك يا تريسليان.

نهض الرجل العجوز وغادر الغرفة بعد أن انحنى للثلاثة، ولكنه عاد بعد لحظات وقال: لقد عاد هوربري لتوه يا سيدي. هل تريد رؤيته الآن؟

- نعم، أرجو أن ترسله على الفور.

* * *

لم يكن مظهر سيدني هوربري ليثير الكثير من الإعجاب؛ دخل الغرفة ووقف يفرك يديه وينقّل نظره من شخص لآخر بنظرات سريعة، وقد اتّسم أسلوبه بشيء من المداهنة.

قال جونسُن: أنت سيدني هوربري؟

- نعم يا سيدي.

- الخادم الخاص للسيد لي الراحل؟

- نعم يا سيدي. أليس ذلك أمراً فظيعاً؟ عندما سمعت الخبر من غلاديس ذهلت كثيراً. يا للعجوز المسكين!

قاطعه جونسُن قائلاً: من فضلك، أجب على أسئلتي فقط.

- نعم يا سيدي، بالتأكيد يا سيدي.

- متى خرجتَ هذه الليلة. وأين كنت؟

- غادرتُ البيت قبل الثامنة بقليل يا سيدي. ذهبت إلى سينما شيبرب التي تبعد مسيرة خمس دقائق من هنا، وكان الفِلم «حب في إشبيلية القديمة» يا سيدي.

- هل رآك أحد هناك؟

- الفتاة التي تعمل في شباك حجز التذاكر يا سيدي. إنها تعرفني، والحاجب على الباب، فهو يعرفني أيضاً. و... وفي الواقع، كنت مع فتاة يا سيدي؛ قابلتها هناك بناء على موعد بيننا.

- آه، هكذا إذن، ما اسمها؟

- دوريس باكل يا سيدي، وهي تعمل في مصنع الألبان في شارع ماركهام.

- جيد، سنتحقق من ذلك. هل جئت إلى البيت مباشرة؟

- أوصلت فتاتي إلى بيتها أولاً يا سيدي، ثم عدت إلى هنا مباشرة. ستجد أن كلامي هذا صحيح يا سيدي. ليس لي علاقة بهذا. كنت...

قال الكولونيل جونسُن باقتضاب: لا أحد يتهمك بأي علاقة بهذا الأمر.

- بالطبع لا يا سيدي، ولكن ليس مفرحاً وقوع جريمة قتل في بيت.

- لا أحد يقول إن هذا مفرح. حسناً، منذ متى وأنت تعمل في خدمة السيد لي؟

- منذ أكثر من عام يا سيدي.

- هل أحببت عملك هنا؟

- نعم يا سيدي. كنت راضياً تماماً، وكان الراتب جيداً. صحيح أن التعامل مع السيد لي كان صعباً أحياناً، ولكنني معتاد على خدمة المقعدين.

- هل لديك خبرة سابقة في أماكن أخرى؟

- نعم يا سيدي. كنت مع الميجر وِست ومع السيد غاسبر فينش...

- يمكن إعطاء تفصيلات أعمالك السابقة لساغدين فيما بعد. ما أريد معرفته هو: متى رأيت السيد لي آخر مرة هذا المساء؟

- كان ذلك نحو السابعة والنصف يا سيدي. تناول السيد لي عشاء خفيفاً كان يُقدَّم له في السابعة من كل مساء، ثم جهّزتُ له سرير النوم. وتقضي عادته أن يجلس بعد ذلك أمام الموقد في رداء نومه حتى يشعر بالنعاس.

- متى يكون ذلك عادة؟

- هذا يختلف يا سيدي. كان يذهب أحياناً إلى النوم في وقت مبكر كالساعة الثامنة... إن كان يشعر بالتعب، وأحياناً كان يجلس حتى الساعة الحادية عشرة أو بعدها.

- ماذا كان يفعل عندما كان يريد النوم؟

- كان يقرع لي الجرس في العادة.

- وهل كنت تساعده في التمدد في فراشه؟

- نعم يا سيدي.

- لكن اليوم كان يوم عطلتك. هل عطلتك في أيام الجمع دوماً؟

- نعم يا سيدي؛ يوم الجمعة هو يوم عطلتي المعتادة.

- إذن ماذا كان يحدث عندما يريد السيد لي أن يأوي إلى فراشه في هذا اليوم؟

- كان يقرع جرسه فيأتي تريسليان أو ولتر لخدمته.

- هل كان عاجزاً تماماً؟ أم أنه يستطيع الحركة؟

- إنه يستطيع الحركة يا سيدي، ولكن ليس بسهولة. كان يعاني من روماتيزم المفاصل، وكانت حالته في بعض الأيام أسوأ منها في أيام أخرى.

- ألم يكن يدخل أية غرفة أخرى وقت النهار؟

- نعم يا سيدي. كان يفضّل البقاء في تلك الغرفة نفسها؛ فلم يكن السيد لي ذا رغبات مترفة، وكانت غرفته كبيرة يدخلها كثير من الهواء والضوء.

- هل قلت إن السيد لي تناول عشاءه في الساعة السابعة؟

- نعم يا سيدي. وكانت القاعدة تقضي بأن لا يأتي أحد من العائلة لرؤية السيد لي في المساء إلا اذا دعاه. كان يفضل الجلوس وحيداً في بعض الأمسيات، وفي أمسيات غيرها كان يرسل في طلب السيد ألفرد أو زوجته أو الاثنين معاً ليأتياه بعد العشاء.

- ولكن -حسب علمك- لم يفعل ذلك في هذه المناسبة؟ أي أنه لم يرسل لأي واحد من العائلة يطلب منه الحضور إليه؟

- لم يرسل شيئاً عن طريقي أنا يا سيدي.

- إذن لم يكن يتوقع حضور أحد من عائلته؟

- ربما طلب من أحدهم شخصياً الصعود إليه.

- بالطبع.

واصل هوربري كلامه: تأكدتُ من أن كل شيء على ما يرام، فودّعت السيد لي وغادرت الغرفة.

سأله بوارو: هل أذكيت النار في موقد الغرفة قبل مغادرتك؟

تردد الخادم قبل أن يقول: لم يكن ذلك ضرورياً يا سيدي؛ فقد كانت مشتعلة جيداً.

- أيمكن أن يكون السيد لي قد فعل ذلك بنفسه؟

- لا يا سيدي. أظن أن السيد هاري هو الذي فعل ذلك.

- هل كان السيد هاري معه عندما دخلتَ قبل العشاء؟

- نعم يا سيدي، وقد خرج عندما دخلت.

- كيف كانت العلاقة بين الاثنين حسب تقديرك؟

- كانت معنويات السيد هاري مرتفعة جداً، وكان يرفع رأسه ويضحك بملء فمه.

- وماذا عن السيد لي؟

- كان هادئاً ويميل إلى التأمل.

- فهمت. أريد أن أعرف شيئاً آخر يا هوربري. ماذا تعرف عن الألماسات التي كان السيد لي يحتفظ بها في خزنته؟

- ألماسات يا سيدي؟ لم أرَ أي ألماسات أبداً.

- كان السيد لي يحتفظ بكمية من أحجار الألماس غير المصقولة في الخزنة، لا بد أنك رأيته يقلبها ويتأملها.

- أتقصد تلك الحصى الصغيرة الغريبة يا سيدي؟ نعم، رأيتها معه مرة أو مرتين. ولكني لم أكن أعرف أنها حجارة ألماس. كان يريها للفتاة بالأمس... أم أن ذلك كان أول أمس؟

أسرع الكولونيل جونسُن قائلاً: لقد سُرقت تلك الألماسات.

صاح هوربري: أرجو أن لا تظن أن لي أي علاقة بالأمر يا سيدي!

- أنا لا أوجّه أي اتهام، ولكن هل لديك أي معلومة ذات علاقة بهذا الأمر؟

- أتقصد الجواهر يا سيدي أم جريمة القتل؟

- كليهما.

فكر هوربري ومرر لسانه على شفتيه الشاحبتين، ثم رفع بصره أخيراً بعينين فيهما أثر لا يكاد يرى من المراوغة، وقال: لا أظن أن لديّ شيئاً أقوله يا سيدي.

قال بوارو بهدوء: ألم تسمع (بالصدفة مثلاً، وأنت تؤدي عملك) شيئاً يمكن أن يساعدنا؟

طرفت عينا الخادم قليلاً وقال: نعم يا سيدي، لا أظن أنني سمعت أي شيء. إنما الذي أعرفه أن بعض الحساسية قد وُجدت بين السيد لي وبين أفراد عائلته.

- من منهم؟

- فهمت أن مشكلة صغيرة قد وقعت بسبب عودة السيد هاري. فقد غضب السيد ألفرد من عودة أخيه، وفهمت أنه تجادل مع والده بخصوص هذا الأمر، ولكن المسألة انتهت عند هذا الحد؛ فالعجوز لم يتهمه للحظة واحدة بأخذ أية ألماسات، كما أنني واثق أن السيد ألفرد ما كان ليفعل شيئاً كهذا.

قال بوارو مسرعاً: ومع ذلك فقد كان لقاء السيد لي مع ألفرد بعد اكتشافه لاختفاء الألماسات، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي.

مال بوارو بجسمه إلى الأمام وقال بهدوء: حسبتك -يا هوربري- لم تعلم بسرقة الألماسات إلا بعد أن أخبرناك بها الآن. كيف -إذن- عرفت أن السيد لي قد اكتشف اختفاءها قبل حديثه مع ابنه؟

احمرّ وجه هوربري بشدة، فقال ساغدين: لا فائدة من الكذب. هيا أخبرنا، متى عرفت؟

قال هوربري عابساً: سمعته يحادث شخصاً بالهاتف حول هذا الأمر.

- هل كنت في الغرفة؟

- لا، بل خارج الباب. لم أستطع سماع الكثير... بضع كلمات فقط.

سأله بوارو بهدوء: ما الذي سمعته بالضبط؟

- سمعت كلمات مثل «سرقة» و«ألماسات»، وسمعته يقول: "لا أعرف بمن أشك..."، وسمعته يقول شيئاً حول هذه الليلة الساعة الثامنة.

أومأ الضابط ساغدين برأسه موافقاً وقال: كان ذلك حديثه معي أيها الشاب، في نحو الخامسة وعشر دقائق، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي.

- وعندما دخلتَ الغرفة بعدها، هل بدا منزعجاً؟

- قليلاً يا سيدي؛ بدا شارد الذهن قلِقاً.

- قلقاً لدرجة أشعرتك بالخوف... أليس كذلك؟

- اسمعني يا سيد ساغدين، إنني لا أقبل أن توجه لي مثل هذه الأقوال. أنا لم ألمس أية ألماسات أبداً، ولا يمكن أن تثبت أنني سرقتها. أنا لست لصاً.

قال ساغدين دون تأثر: "هذا ما لم يُحسم بعد، سنرى هذا

الأمر". ثم نظر إلى رئيس الشرطة متسائلاً فأومأ له زميله موافقاً فأكمل قائلاً: هذا يكفي بالنسبة لك. لن نحتاجك الليلة مرة أخرى.

خرج هوربري ممتناً بسرعة، وقال ساغدين بإعجاب: كانت تلك حركة جميلة منك يا سيد بوارو؛ لقد أوقعتَه في الشرك كأفضل ما يكون الوقوع. قد يكون لصاً وقد لا يكون، ولكنه -بالتأكيد- كاذب من الدرجة الأولى!

قال بوارو: إنه شخص لا يبعث على الارتياح.

وافقه جونسُن قائلاً: يبدو ذا سلوك سيء، ولكن السؤال هو: ما رأينا بالدليل الذي قدمه عن غيابه؟

لخص ساغدين الموقف بدقة قائلاً: أرى ثلاثة احتمالات: (١) هوربري لص وقاتل، (٢) هوربري لص لكنه ليس قاتلاً، (٣) هوربري شخص بريء. أمامنا بعض الدلائل التي ترجح الاحتمال الأول؛ فقد سمع المكالمة الهاتفية وعرف أن السرقة قد اكتُشفت، ثم فهم من سلوك العجوز بأنه موضع شبهة، فوضع خططه على هذا الأساس. خرج من البيت ظاهرياً في الساعة الثامنة وجهز لنفسه -على عجل- دليلَ غيابٍ عن مكان الجريمة. من السهل تماماً التسلل خارج السينما ثم العودة إليها دون أن يلحظه أحد، ولكن عليه -في هذه الحالة- أن يتأكد من أن الفتاة لن تخونه. سأرى غداً ما يمكنني معرفته منها.

سأل بوارو: إذن كيف استطاع دخول البيت مرة أخرى؟

اعترف ساغدين قائلاً: ذلك أمر أكثر صعوبة، ولكن ربما

توجد أساليب. افترض أن إحدى الخادمات تركت له أحد الأبواب الجانبية غير مقفل.

رفع بوارو حاجبيه مدهوشاً وقال: أتراه يضع حياته تحت رحمة امرأتين؟ إن وضع السر مع امرأة واحدة يشكل مجازفة كبرى، أما مع امرأتين فإنني أرى ذلك مجازفة غريبة مستهجنة!

قال ساغدين: بعض المجرمين يظنون أنهم يستطيعون الإفلات بأي شيء! دعنا نأخذ الاحتمال الثاني: سرق هوربري تلك الألماسات. أخرجها من البيت ليلاً، وربما وضعها عند شريك له في الجريمة. وهذا عمل سهل ومحتمل جداً. علينا أن نعترف -في هذه الحالة- بأن شخصاً آخر قد اختار هذه الليلة لقتل السيد لي، دون أن يعرف عن سرقة الجواهر شيئاً. هذا محتمل بالطبع، ولكنه ينطوي على مصادفة غريبة.

الاحتمال الثالث هو أن هوربري بريء، وأن شخصاً آخر سرق الجواهر وقتل الرجل العجوز. هذا هو الوضع، وعلينا نحن أن نصل إلى الحقيقة.

تثاءب الكولونيل جونسُن، ونظر إلى ساعته مرة أخرى ثم نهض قائلاً: حسناً، لقد عملنا هذه الليلة ما يكفي. أليس كذلك؟ من الأفضل أن نلقي نظرة على الخزنة قبل ذهابنا. سيكون غريباً لو كانت تلك الألماسات موجودة هناك كل هذا الوقت.

ولكن الألماسات لم تكن في الخزنة. وقد وجدوا الرقم السري حيث أخبرهم ألفرد؛ في المفكرة الصغيرة في جيب رداء النوم الخاص بالقتيل. ووجدوا في الخزنة حقيبة جلدية فارغة، ومن

بين الأوراق التي كانت موجودة في الخزنة لم يجدوا إلاّ واحدة ذات قيمة.

كانت وصية مؤرخة قبل نحو خمسة عشر عاماً، وقد كانت ذات شروط بسيطة للغاية؛ فبعد ذكر الهبات والعطايا، تخصِّصُ الوصية نصف ثروة سيميون لي لابنه ألفرد، أما النصف الآخر فيُقسم إلى حصص متساوية توزع بين أولاده الآخرين: هاري وجورج وديفيد وجينفر.

* * *

الفصل الرابع

الخامس والعشرون من كانون الأول

كان بوارو يتمشى في حدائق غورستون هول في ظهيرة يوم عيد ميلاد مشمس. كان منزل غورستون هول نفسه بيتاً كبيراً ومتيناً دون أي تميز معماري. وهنا، في الجانب الجنوبي، كانت مصطبة عريضة يحف بها سياج من الشجيرات المشذبة، وقد نمت نباتات صغيرة في الفراغات بين الأحجار التي رصفت بها أرض المصطبة، كما امتدت على طول المصطبة، وضمن مسافات متساوية، أحواض حجرية تم ترتيبها كحدائق مصغرة.

ألقى بوارو عليها نظرات استحسان وتمتم مع نفسه: إنها مناظر جميلة!

لمح -عن بعد- شخصين يسيران نحو بركة ماء على بعد ثلاثمئة متر تقريباً. كان من السهل التعرف على بيلار كواحدة من الاثنين، وقد ظن بوارو -بدايةً- أن الآخر هو ستيفن فار، ثم أدرك أن الرجل الذي يرافق بيلار هو هاري لي. بدا هاري مصغياً تماماً لما تقوله له ابنة أخته الفاتنة، وبين فترة وأخرى كان يلقي برأسه إلى الوراء

ويضحك، ثم ينحني مرة أخرى.

تمتم بوارو مع نفسه: "البعض -بالتأكيد- لا يعيش فترة حداد".
ثم سمع صوتاً ناعماً جعله يلتفت إلى الوراء. كانت ماغدالين تقف هناك، وكانت -هي الأخرى- تنظر إلى الرجل والفتاة اللذين كانا يبتعدان. التفتت إلى بوارو وابتسمت بعذوبة وقالت: يا له من يوم مشمس رائع! لا يكاد المرء يصدّق ما حدث الليلة الماضية من أهوال، أليس كذلك يا سيد بوارو؟

- هذا صحيح تماماً يا سيدتي.

تنهدت ماغدالين وقالت: أنا لم أعِشْ مآسي من قبل. لقد... لقد كبرت الآن فقط. أشعر أنني بقيت طفلة لفترة طويلة، وهذا ليس بالأمر الجيد.

تنهدت ثانية وقالت: بيلار -مثلاً- تبدو هادئة مسيطرة على نفسها بصورة غير عادية، وأظن ذلك بسبب أصلها الإسباني. الأمر كله غريب جداً، أليس كذلك؟

- ما هو الغريب يا سيدتي؟

- الطريقة التي ظهرت بها هنا فجأة، وكأنها هبطت من السماء!

أجابها بوارو: علمتُ أن السيد لي كان يبحث عنها منذ وقت طويل، وكان يراسل القنصلية في مدريد ونائب القنصل في أليكوارا حيث توفيت والدتها.

- كان متكتماً على هذا الأمر تماماً. لم يعرف ألفرد شيئاً عن هذا الأمر، ولا حتى ليديا.

- آه!

اقتربت ماغدالين منه قليلاً بحيث استطاع شم عطرها الرقيق، ثم قالت: أتعرف يا سيد بوارو؟ توجد قصة ترتبط بزوج جينفر، السيد إيسترافادوس. فقد توفي بعد زواجه بوقت قصير جداً، وفي هذا الأمر لغز. ألفرد وليديا يعرفان. أظنه كان أمراً... مخجلاً بعض الشيء.

- هذا أمر مؤسف حقاً.

- إن زوجي يشعر (وأنا أتفقُ معه في هذا) بأن العائلة كان يجب أن تعرف أكثر عن تاريخ الفتاة، فإذا كان والدها مجرماً...

سكتت، ولكن بوارو لم يقل شيئاً. كان يبدو وكأنه منجذب لما يمكن للطبيعة أن تظهره من جماليات في هذا الموسم الشتوي في حدائق غورستون هول.

قالت ماغدالين: لا أملك إلا أن أشعر بأن طريقة وفاة السيد لي كانت ذات مغزى إلى حد ما... كانت طريقة غير إنكليزية أبداً!

التفت هيركيول بوارو ببطء ونظر إليها بعينيه الهادئتين وباستفهام بريء ثم قال: آه، أتظنين أنها اللمسة الإسبانية؟

- حسناً... أليسوا قساة؟

طرحت تساؤلها هذا بشكل أقرب إلى الاستجداء الطفولي ثم

أكملت: انظر إلى مصارعة الثيران تلك وغيرها!

أجابها بوارو بمرح: أتقولين إنك ترين أن الآنسة إيسترافادوس قد ذبحت جدها؟

أجابت بحماسة وقد صُدمت: آه، كلا يا سيد بوارو! لم أقل أبداً شيئاً كهذا! حقيقة أنني لم أقل!

- حسناً، ربما لم تقولي.

- ولكني أرى فعلاً أنها فتاة... تثير الريبة. خذ -مثلاً- الطريقة المختلسة التي التقطت بها شيئاً عن أرضية الغرفة في الليلة الماضية.

سألها بوارو بحدة وقد تغيرت نبرة صوته: أوقد التقطت شيئاً عن الأرض الليلة الماضية؟

أومأت ماغدالين برأسها بالايجاب، وانحنى فمها الطفولي مُظهراً مناكفة، ثم قالت: نعم، حالما دخلنا إلى الغرفة. نظرت حولها نظرة سريعة لترى إن كان أحدٌ ينظر إليها ثم انقضّت على ذلك الشيء. ولكن ضابط الشرطة رآها -لحسن الحظ- وجعلها تسلّم ما في يدها.

- وهل تعرفين -يا سيدتي- ما الذي التقطته؟

- لا؛ فلم أكن قريبة بحيث أستطيع رؤيته. كان شيئاً صغيراً جداً.

قطب بوارو جبينه وقال يحدث نفسه: هذا أمر مثير.

أسرعت ماغدالين تقول: نعم، رأيت أن من الواجب إخبارك بهذا الأمر؛ فنحن -في النهاية- لا نعرف شيئاً عن نشأة بيلار وكيف كانت حياتها. إن ألفرد يرتاب فيها دائماً، والعزيزة ليديا غير مبالية.

ثم قالت بصوت منخفض: من الأفضل أن أذهب لمساعدة ليديا؛ فربما كان علينا أن نكتب بعض الرسائل.

تركته وعلى شفتيها ابتسامة رضا ماكرة، وبقي بوارو على المصطبة مستغرقاً في التفكير.

* * *

جاء إليه الضابط ساغدين وقد بدا مكتئباً، وقال: صباح الخير يا سيد بوارو. لا يبدو من المناسب أن أقول: "عيداً سعيداً"، أليس كذلك؟

- يا زميلي العزيز، إنني بالتأكيد لا ألحظ أي علامات سعادة على محياك، ولو أنك قلت لي: "عيد ميلاد سعيد" لما أجبتك: "أعاده الله علينا".

- لا أريد عيد ميلاد آخر كهذا؛ هذه حقيقة.

- هل توصلت إلى شيء؟

- تحققت من كثير من النقاط. دليل غياب هوربري عن المنزل صحيح دون شك؛ فقد رآه موظف التذاكر في السينما وهو داخل برفقة فتاة، ورآه خارجاً معها بعد نهاية الفِلم، وهو يبدو شديد

التأكد من أنه لم يغادر، كما لم يكن من الممكن أن يغادر ويعود أثناء عرض الفِلم. أما الفتاة فتقسم جازمة أنه كان معها في السينما طوال الوقت.

رفع بوارو حاجبيه دهشة وقال: إذن لا أكاد أرى ما يمكن إضافته في هذا الصدد.

أجابه ساغدين المشكك بطبائع الناس: لا يستطيع أحد الجزم عندما يتعلق الأمر بالفتيات! من شأنهن الإساءة إلى أنفسهن بكذب صريح من أجل رجل.

رد عليه بوارو: هذه نقطة تُحسب لصالح قلوبهن.

زمجر ساغدين قائلاً: هذه طريقة أجنبية في النظر إلى الموضوع. إن ذلك يشكل خذلاناً لأهداف العدالة.

- العدالة شيء غريب جداً. هل فكرت فيها؟

حدق ساغدين به وقال: أنت رجل غريب يا سيد بوارو.

- إطلاقاً. إنني أتبع خط تفكير منطقي، ولكننا لن ندخل في جدال حول هذه المسألة. إذن فأنت ترى أن هذه الآنسة التي تعمل في معمل الألبان لا تقول الحقيقة؟

هز ساغدين رأسه بالنفي وقال: لا؛ ليس الأمر هكذا أبداً. الواقع أنني أرى فعلاً أنها تقول الحقيقة. إنها فتاة بسيطة، وأظن أنني كنت قادراً على كشفها لو كانت تكذب.

قال بوارو: أنت ذو خبرة، أليس كذلك؟

- هذا هو قصدي تماماً يا سيد بوارو. إن المرء يغدو عالماً -بعد هذه السنوات الطويلة من العمل في مجال التحقيق- متى يكون الشخص أمامه كاذباً ومتى يكون صادقاً. نعم يا سيد بوارو، أظن أن شهادة الفتاة صحيحة، وفي هذه الحالة لا يمكن لهوربري أن يقتل السيد لي، وهذا يعيدنا إلى أهل البيت.

سحب نفساً عميقاً وقال: واحد منهم هو الذي فعلها يا سيد بوارو... واحد منهم فعلها، ولكن من هو؟

- أليست لديك معلومات جديدة؟

- بلى، لقد حالفني الحظ فيما يخص المكالمات الهاتفية. السيد جورج خابر ويسترنغهام الساعة التاسعة إلاّ دقيقتين، وقد استغرقت تلك المكالمة ست دقائق.

- آها.

- الأمر كما تقول! كما أنه لم تُجرَ أي مكالمات أخرى... لا مع ويسترنغهام ولا مع غيرها.

قال بوارو باستحسان: أمر مثير جداً. السيد جورج لي يقول إنه كان قد فرغ لتوه من المكالمة عندما سمع الجلبة في الطابق العلوي. ولكنه -في الواقع- قد فرغ من المكالمة **قبل ذلك بعشر دقائق تقريباً**. أين كان خلال تلك الدقائق العشر؟ زوجته تقول إنها هي الأخرى كانت تخابر... وهي في الواقع لم تجر أي مكالمة على الإطلاق. أين كانت؟

- رأيتك تتحدث معها يا سيد بوارو؟

حملت نبرته صيغة سؤال، ولكن بوارو أجابه: أنت مخطئ!

- ماذا؟

- لم أكن أنا الذي يتحدث معها... بل هي التي كانت تتحدث معي!

- آه!

بدا ساغدين وكأنه يوشك أن يُنحّي جانباً بنفاد صبر هذا التمييز بين الحالتين، ولكنه قال بعد أن فهم المعنى: أتقول إنها كانت تتحدث معك؟

- تماماً؛ ولقد خرجْتُ إلى هنا لذلك الغرض.

- وماذا قالت؟

- كانت ترغب في التأكيد على نقاط معينة: الطبيعة غير الإنكليزية للجريمة... واحتمال وجود سوابق مشبوهة عند الآنسة إيسترافادوس ورثتها من ناحية الأب... وحقيقة قيام الآنسة إيسترافادوس الليلة الماضية بالتقاط شيء عن الأرض بشكل مريب خاطف.

قال ساغدين باهتمام: إذن فقد أخبرتك بذلك؟

- نعم. ما هو ذلك الشيء الذي التقطَتْه الفتاة عن الأرض؟

تنهد ساغدين وقال: شيء لا يمكن توقعه أبداً، سأريك إياه. إنه من ذلك الطراز الذي يحل اللغز كله في الروايات البوليسية!

إن كنت تستطيع التوصل إلى أي شيء منه فسوف أعتزل العمل في الشرطة!

- أرني إياه.

أخرج ساغدين مغلفاً من جيبه وفرّغ محتوياته على راحة كفه وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة باهتة.

- ها هي. ماذا تفهم منها؟

كانت على راحة يد الضابط العريضة قطعة صغيرة مثلثة الشكل من المطاط وردي اللون، ووتد خشبي صغير.

اتسعت ابتسامته عندما أخذهما بوارو وعبس وهو يتحفصهما.

- هل تفهم منها شيئاً يا سيد بوارو؟

- ألا يمكن أن تكون هذه القطعة الصغيرة قد قطعت من حقيبة مطاطية؟

- بلى؛ إنها من حقيبة مطاطية في غرفة السيد لي. لقد قطع أحدهم بمقص حاد قطعة صغيرة مثلثة الشكل من الحقيبة. قد يكون السيد لي هو الذي فعل ذلك بنفسه، ولكن ما يحيرني هو لماذا فعل ذلك. هوربري لم يستطع تفسير ذلك أيضاً. أما الوتد الخشبي فهو من نفس الحجم الذي يستخدم في لعبة الكريبج ويُثبّت على اللوحة لتسجيل النقاط. ولكن تلك الأوتاد تصنع عادة من العاج، أما هذا فهو من الخشب، وأظنه اقتُطع من لوح خشبي.

تمتم بوارو: إنه ملفت للنظر كثيراً.

قال ساغدين بلطف: احتفظ بهما إن شئت فلا حاجة لي بهما.

- ما كنت لأحرمك منهما يا صديقي.

- أيعنيان لك شيئاً أبداً؟

- أعترفُ بأنهما لا يعنيان شيئاً أبداً!

قال ساغدين متهكماً وهو يعيدها إلى جيبه: رائع! إننا نتقدم حقاً!

قال بوارو: تقول زوجة جورج لي إن الفتاة انحنت والتقطتها خلسة. هل هذا صحيح؟

فكّر ساغدين في الأمر، ثم قال متردداً: لـ..لا. لا يمكن أن أذهب إلى هذا الحد. إنها لم تَبْدُ مذنبة... ولكنها قامت بالتقاطهما بشيء من السرعة والهدوء بالفعل، كما أنها لم تعرف أنني رأيتها تفعل ذلك، وهذا ما أنا واثق منه تماماً. لقد جفلت عندما التفتُّ إليها.

قال بوارو متأملاً: إذن فقد كان لديها سبب؟ ولكن ما عساه يكون؟ قطعة المطاط الصغيرة هذه مقطوعة حديثاً، فهي لم تستخدم لأي شيء. يمكن أن لا يكون لها أي معنى، ومع ذلك...

قال ساغدين وقد نفد صبره: يمكن أن تشغل بالك بها إن شئت يا سيد بوارو، أما أنا فلديّ أشياء أخرى أفكر بها.

سأله بوارو: إذن برأيك، أين وصلَت القضية؟

أخرج ساغدين دفتر ملاحظاته وقال: دعنا نعمد إلى الحقائق. أولاً، الأشخاص الذين لا يمكن أن يكونوا فعلوها. دعنا نخرجهم عن الطريق أولاً.

- ومن هم...؟

- ألفرد وأخوه هاري؛ فلديهما دليل غياب أكيد عن مكان الجريمة. وأيضاً زوجة ألفرد؛ حيث رآها تريسليان في غرفة الاستقبال قبل دقيقة واحدة فقط من نشوب الشجار في الطابق العلوي. هؤلاء الثلاثة لا غبار عليهم. وبالنسبة للباقين، لدي هنا قائمة. لقد وضعتها بهذه الطريقة من أجل الوضوح.

أعطى المفكرة لبوارو، فقرأ فيها:

وقت حدوث الجريمة

جورج	كان	؟
ماغدالين	كانت	؟
ديفيد	كان يعزف على البيانو في غرفة الموسيقى (أكدت زوجته ذلك)	
هيلدا	كانت في غرفة الموسيقى (أكد زوجها ذلك)	
بيلار	كانت في غرفة نومها (لا تأكيد على ذلك)	
ستيفن فار	كان في قاعة الرقص يستمع إلى الفونوغراف (حسب ما أكده ثلاثة من الخدم).	

قال بوارو وهو يعيد القائمة: وهكذا؟

أجابه ساغدين: وهكذا يمكن أن يكون جورج قد قتل الرجل العجوز، ويمكن أن تكون زوجته قد قتلته أيضاً. وبيلار إيسترافادوس يمكن أن تكون قد قتلته، ويمكن للسيد ديفيد أو زوجته أن يقتلاه، ولكن كل على انفراد وليس كلاهما معاً.

- إذن فأنت لا تقبل قولهما إنهما كانا في غرفة الموسيقى؟

هز الضابط ساغدين رأسه مؤكداً نفيه وقال: إطلاقاً! إنهما زوج وزوجته... وهما مخلصان كل للآخر! ربما اشتركا في الأمر معاً، وإن كان أحدهما قد فعلها، فإن الآخر مستعد لأداء يمين يبرّئ بها صاحبه. إنني أنظر إلى الأمر هكذا: أحدهم كان موجوداً في غرفة الموسيقى يعزف على البيانو، وربما كان هذا الشخص هو ديفيد لي. وهذا محتمل لأنه موسيقي معروف، ولكن لا يوجد ما يدل على أن زوجته كان هي الأخرى هناك باستثناء زعمها وزعمه هو. وبنفس الأسلوب قد يكون هذا الشخص هيلدا التي كانت تعزف على ذلك البيانو بينما انسلّ ديفيد إلى الطابق العلوي وقتل والده! إنها -دون شك- قضية تختلف عن وجود الأخوين الآخرَيْن في غرفة الطعام. إن ألفرد وهاري لا يحب أحدهما الآخر؛ وبالتالي فلا أحد منهما يمكن أن يدلي بشهادة زور من أجل الآخر.

- وماذا عن ستيفن فار؟

- إنه مشتبه محتمل؛ لأن دليل وجوده في قاعة الرقص يستمع إلى الفونوغراف دليل واهن بعض الشيء. ومن ناحية أخرى فهو دليل أكثر معقولية من أي دليل قوي آخر يكون على الأرجح قد لفق مسبقاً!

أطرق بوارو متأملاً، ثم قال: أعرف ما تعنيه. تعني أنه دليل غياب قدمه رجل لم يكن يعرف أنه سيتم استدعاؤه ليقدم مثل هذا الدليل.

- تماماً! وعلى أي حال فإنني لا أكاد أصدق احتمال تورط شخص غريب في مثل هذا الأمر.

أسرع بوارو إلى القول: أتفق معك. إنها هنا مسألة عائلية؛ إنها ضغينة تعتمل في النفس... مشكلة داخلية حميمة عميقة الجذور. نحن هنا أمام كراهية ومعرفة...

ثم لوح بيديه وقال: لا أدري... إنها مسألة صعبة!

كان ساغدين قد انتظره مصغياً باحترام، ولكن دون أن يبدو شديد التأثر بما سمع. قال: كما تقول يا سيد بوارو. ولكن لا تخف، سنصل إلى الحل عن طريق استبعاد غير المحتملين وباستخدام المنطق. إن لدينا الاحتمالات الآن... أي أولئك الذين توفرت لهم الفرصة: جورج، وماغدالين، وديفيد، وهيلدا، وبيلار. وأضيفُ أنا ستيفن فار. والآن نأتي إلى الدافع. مَن كان لديه الدافع لقتل العجوز لي؟ هنا أيضاً يمكننا استبعاد أشخاص معينين، كالآنسة إيسترافادوس مثلاً. فقد فهمت أنها لا تحصل على شيء مطلقاً بمقتضى الوصية الحالية. لو أن سيميون لي مات قبل والدتها فإن حصة أمها ستذهب إليها (إلاّ إذا نصّت أمها في وصيتها على غير ذلك)، ولكن بما أن جينفر قد توفيت قبل والدها فإن حصتها تلك ستعود إلى أفراد الأسرة الآخرين. لذلك كان من مصلحة بيلار -بالتأكيد- أن يبقى جدها على قيد الحياة؛ فقد تعلق بها، وكان من المؤكد أنه سيترك لها حصة

كبيرة من المال عندما يكتب وصية جديدة. إنها تخسر كل شيء ولا تربح شيئاً من مقتله. هل توافقني على ذلك؟

- تماماً.

- بالطبع يبقى احتمال أن تكون قد ذبحته في سورة غضب أثناء مشاجرة عنيفة، لكن يبدو لي ذلك أبعد احتمالاً؛ فقد كانا -بداية- على علاقة طيبة جداً معاً، كما أنها لم تعش هنا فترة طويلة تتيح لها حمل ضغينة عليه لسبب من الأسباب. ولذلك يبدو من المستهجن تماماً وجود علاقة للآنسة إيسترافادوس بالجريمة... باستثناء ما يمكنك زعمه من أن ذبحاً كذبح النعاج ليس أسلوباً إنكليزياً (كما تقول صديقتك زوجة جورج لي)، أليس كذلك؟

أسرع بوارو إلى القول: لا تسمّها صديقتي، وإلاّ فسوف أتحدث عن صديقتك الآنسة إيسترافادوس التي ترى فيك رجلاً وسيماً!

بدا بوارو مسروراً برؤية الهيبة الرسمية للضابط وهي تتزعزع ثانية، فقد احمرّ وجه ضابط الشرطة. ونظر بوارو إليه باستمتاع خبيث، ثم قال: صحيح أن شاربك رائع جداً. قل لي.. هل تستخدم له مرهماً خاصاً؟

- مرهماً؟ يا إلهي، كلا!

ماذا تستخدم إذن؟

- أستخدم؟ لا شيء على الإطلاق. إنه... إنه ينمو هكذا.

تنهد بوارو وقال: "إنها هبة طبيعية إذن". ثم تحسس شاربه الأسود الكث وتنهد وهو يقول: إن إعادة اللون الطبيعي إلى شعر الشاربين بمستحضرات معينة مسألة تضر بالشعر أحياناً.

كان الضابط ساغدين (غير المهتم بمشكلات الشعر) مسترسلاً في حديثه ببرود: فيما يتعلق بدافع الجريمة، أظن أن بإمكاننا استبعاد السيد ستيفن فار. من الممكن وجود مسألة احتيال بين والده والسيد لي أدت إلى معاناة والده، ولكني أشك في ذلك. كان فار مطمئناً وهادئاً عندما ذكر تلك المسألة. كان واثقاً جداً، ولا أظنه كان يمثل... نعم، لا أظن أننا سنصل إلى شيء في هذه النقطة.

قال بوارو: نعم، لا أظنك ستصل إلى شيء.

- وشخص آخر يبدو ذا مصلحة في إبقاء العجوز لي على قيد الحياة، وهو ولده هاري. صحيح أنه يستفيد بموجب الوصية، ولكني لا أظنه كان مدركاً لهذه الحقيقة، وبالتأكيد لم يكن واثقاً منها! كان الانطباع العام السائد أن هاري قد حُرم من حصته في الميراث منذ أن هجر البيت، ولكنه كان على وشك العودة إلى نعماء والده! ولذلك كان من مصلحته أن يكتب والده وصية جديدة. ما كان ليُقدم على حماقة قتله الآن، ونحن نعرف -عملياً- أن ذلك لم يكن بوسعه أصلاً. إننا نتقدم كما ترى، حيث نستبعد كثيراً من الأشخاص من قائمة المشتبه بهم.

- هذا صحيح. عمّا قريب لن يبقى في هذه القائمة أحد!

ابتسم ساغدين وقال: إننا لا نتقدم بمثل تلك السرعة! فلدينا

جورج وزوجته وديفيد وزوجته. كلهم يستفيدون من وفاته، وجورج -من كل ما استطعتُ فهمه- بأمسّ الحاجة للمال، وفوق ذلك كان والده يهدد بتخفيض دعمه له. وهكذا فإن لدينا جورج الذي توَفّر له الدافع والفرصة!

- أكمل.

- كما أن لدينا زوجة جورج! إنها تعشق المال كعشق القطط للحليب، وأراهن على أنها غارقة في الديون الآن! كانت تغار من الفتاة الإسبانية. كانت سريعة في الانتباه إلى أن هذا الفتاة أصبحت تهيمن على العجوز، وقد سمعَتْهُ يقول إنه أرسل في طلب المحامي، ولذلك قامت بضربتها بسرعة. يمكنك أن تبني من ذلك قضية ضدها.

- من المحتمل.

- ثم لدينا ديفيد وزوجته. إنهما يرثان بموجب الوصية الحالية، ولكنني -بشكلٍ ما- لا أظن أن يكون دافع المال قوياً في حالتهما.

- حقاً؟

- نعم. يبدو أن ديفيد من النوع الحالم وليس من النوع المادي. ولكنه... ولكنه غريب الأطوار، وحسب فهمي للمسألة توجد ثلاثة دوافع محتملة لهذه الجريمة: فلدينا عقدة أحجار الألماس، والوصية، وأخيراً... مجرد الكراهية.

- آه، إذن فأنت تضع الكراهية في حسابك؟

- أمر طبيعي، وقد كانت حاضرة في ذهني منذ البداية. ولئن كان ديفيد هو الذي قتل والده فلا أظنه فعل ذلك من أجل المال، وإن كان هو المجرم فربما كان في ذلك تفسير لسفك كل هذه الدماء!

نظر إليه بوارو باستحسان وقال: نعم، لقد تساءلتُ -في نفسي- متى ستأخذ ذلك بعين الاعتبار. دماء كثيرة جداً... هذا ما قالته زوجة ألفرد. إن هذا يعيدنا إلى الطقوس القديمة، إلى ذبح القرابين ومسح الجسم بدم الأضحية!

قال ساغدين عابساً: أتعني أن القاتل كان مجنوناً؟

- إن داخل الإنسان -يا عزيزي- جميع أنواع الغرائز العميقة التي لا يعي هو وجودها. التعطش للدماء... الرغبة في تقديم القرابين!

قال ساغدين بارتياب: يبدو ديفيد هادئاً لا يؤذي أحداً.

قال بوارو: أنت لا تفقه علم النفس البشرية. إن ديفيد لي رجل يعيش في الماضي... رجل ما زالت ذكرى والدته حية في نفسه، وقد ابتعد عن والده سنوات عديدة لأنه لم يستطع أن يغفر له معاملته القاسية لوالدته. دعنا نفترض أنه جاء إلى هنا ليغفر ذلك، ولكنه ربما لم يكن قادراً على الغفران. إننا نعرف شيئاً واحداً... وهو أن ديفيد لي -عندما وقف بجانب جثة والده- كان جزءٌ منه راضياً مقتنعاً بما يرى بحيث قال: "يمهل ولا يهمل". إنه العقاب إذن! الجزاء! الظلم الذي تمحوه الكفارة!

ارتعد ساغدين فجأة وقال: لا تتحدث هكذا يا سيد بوارو؛

إنك تخيفني. قد يكون الأمر كما تقول، وإن كان كذلك فإن زوجة ديفيد تعرف... وتنوي التستر عليه بكل ما تستطيع. يمكنني تخيلها تفعل ذلك. ومن ناحية أخرى، لا يمكنني تخيلها قاتلة. إنها امرأة عادية وهادئة تماماً.

نظر إليه بوارو بفضول ثم تمتم قائلاً: إذن فأنت تراها هكذا؟

- نعم... امرأة بيتية لطيفة، إن كنت تدرك ما أعنيه!

- أعرف ما تعنيه تماماً!

نظر ساغدين إليه وقال: هيّا يا سيد بوارو، إن لديك أفكاراً عن القضية. دعنا نسمعها.

قال بوارو ببطء: نعم، عندي أفكار، ولكنها في مراحلها الأولى، مبهمة لم تتشكل بعد. أريد أن أسمع منك أولاً ملخصاً للقضية.

- كما قلت... ثلاثة دوافع محتملة: الكراهية، والكسب، وعقدة الألماس هذه. فلنأخذ الوقائع حسب تسلسلها الزمني:

الساعة الثالثة والنصف كان اجتماع العائلة، وفيه أُجريت مكالمة هاتفية مع المحامي سمعها جميع أفراد العائلة. ثم وبخ العجوز عائلته وطلب من الجميع تركه وشأنه، فانفضّوا من حوله كالأرانب.

قال بوارو: ولكن هيلدا تخلفت.

- نعم، ولكن ليس لفترة طويلة. ثم تمت مقابلة بين ألفرد ووالده في الساعة السادسة تقريباً. مقابلة غير سارة، أُعلن فيها عن عودة هاري إلى البيت، ولم يكن ألفرد مسروراً من ذلك. كان يجب أن يكون ألفرد -بالطبع- المشتبه الأول لدينا؛ فهو يمتلك أقوى دافع. ولكن حتى لا نخرج عن موضوعنا نقول إن هاري دخل بعده مباشرة، وكان مزاجه أرعن مبتهجاً، فقد أمسك بالرجل العجوز من حيث يريد. ولكن قبل هاتين المقابلتين كان سيميون لي قد اكتشف اختفاء الألماسات واتصل بي هاتفياً. غير أنه لم يذكر لأيٍّ من ولديه شيئاً عن اختفاء الألماسات. لماذا؟ لأنه كان -برأيي- واثقاً أن لا علاقة لأيٍّ منهما بأمر السرقة... لم يكن أي منهما تحت الشبهات. أظن -كما قلت منذ البداية- أن العجوز شكّ في هوربري وفي شخص آخر غيره، كما أنني أعرف تماماً ما الذي كان ينوي عمله. تذكّر أنه قال تحديداً إنه لا يريد لأحدٍ أن يأتي ويجلس معه ذلك المساء. لماذا؟ لأنه كان يمهد الطريق لشيئين: الأول زيارتي، والثاني هو زيارة ذلك الشخص الآخر المشتبه فيه. لقد طلب فعلاً من أحدهم أن يأتي لمقابلته بعد العشاء مباشرة. مَن -يا ترى- ذلك الشخص؟ يُحتمل أن يكون جورج، ويحتمل أكثر أن تكون زوجته. كما أن شخصاً آخر هنا يظهر على المسرح، وأعني بيلار إيسترافادوس. لقد أراها الأحجار الكريمة وأخبرها عن قيمتها. كيف لنا أن نعرف بأن تلك الفتاة ليست لصة؟ تذكّر تلك التلميحات الغامضة عن سلوك والدها الشائن. ربما كان لصاً محترفاً ودخل السجن بسبب ذلك.

قال بوارو ببطء: وهكذا... تعود بيلار للظهور على المسرح كما قلت.

- نعم، باعتبارها لصّة... ما من طريقة أخرى. ربما فقدت عقلها عندما كُشفت، وربما قفزت على جدها وهاجمته.

قال بوارو ببطء مرة أخرى: هذا ممكن، نعم.

نظر إليه ساغدين نظرة متفحصة وقال: ولكن هذا ليس رأيك أنت؟ هيّا يا سيد بوارو، ما هي فكرتك أنت؟

- أعود دائماً إلى نفس الشيء: شخصية الرجل القتيل. أي نوع من الرجال كان سيميون لي؟

قال ساغدين وهو ينظر إليه بإمعان: ليس في هذا الأمر لغز كبير.

- إذن أخبرني. أخبرني -من وجهة نظر أهل المنطقة- ما كان معروفاً عن الرجل.

مرر الضابط ساغدين إصبعاً مرتابة على أسفل فكّه وبدا متحيراً، ثم قال: أنا نفسي لست من أهل المنطقة. إنني من ريفشاير وهي من المقاطعة المجاورة، ولكن السيد لي كان شخصية معروفة في كل هذه المناطق بالطبع، وأعرف عنه كل شيء من أقوال الناس.

- نعم، وماذا كان الناس يقولون عنه؟

- كان شخصاً ذكياً ماكراً ليس بوسع أحدٍ أن يستغله، ولكنه كان كريماً سخياً في أمواله إلى أبعد الحدود. ما يحيرني هو كيف يمكن للسيد جورج لي (وهو ابنه) أن يكون على النقيض منه تماماً.

- ولكن في العائلة عرقين متميزين؛ فألفرد وجورج وديفيد

يشبهون جانب أمهم في العائلة، من الناحية الظاهرية على الأقل. لقد كنتُ أنظر إلى صورة العائلة المرسومة في القاعة هذا الصباح.

أكمل ساغدين حديثه: كان عصبي المزاج، وكانت سمعته سيئة فيما يخص النساء... وكان ذلك في أيام شبابه؛ فهو مقعد منذ سنوات طويلة. ولكنه -حتى في مسألة النساء- كان يتصرف بسخاء دوماً، فعندما تقع مشكلة كان يدفع مبالغ كبيرة ويجد للفتاة عريساً مناسباً دوماً. ربما كان رجلاً سيئاً ولكنه لم يكن بخيلاً. وهو قد عامل زوجته معاملة سيئة وجرى خلف نساء غيرها وأهملها، وقد ماتت كمداً كما يقولون. إنها عبارة تناسب المقام، ولكني أظن -حقاً- أنها كانت بائسة، تلك المسكينة، وكانت مريضة دائماً ولا تخرج كثيراً. لا شك في أن السيد لي كان شخصية غريبة، وقد كان فيه عرق ينزع للانتقام أيضاً؛ فإذا أساء إليه شخص مرة كان يحرص على الرد بالمثل، دون التفات لما قد يقتضيه ذلك من انتظار.

تمتم بوارو: يمهل ولا يهمل!

قال ساغدين جازماً: حاشا أن يشبه الخالق في شيء! كما أنه لم يكن عند سيميون لي شيء من الورع؛ بل يمكن القول إنه من أولئك الذين باعوا أنفسهم للشيطان واستمتعوا بالصفقة! لقد كان متكبراً تكبر إبليس.

قال بوارو: تكبر إبليس! إنها عبارة موحية تماماً.

قال ساغدين وقد بدا محتاراً: لا أظنك تعني أنه قُتل بسبب تكبره؟

رد بوارو: ما أعنيه هو الوراثة، فقد أورث سيميون لي أبناءه ذلك التكبر.

في تلك اللحظة خرجت هيلدا من البيت ووقفت تنظر عبر المصطبة.

* * *

- أردت العثور عليك يا سيد بوارو.

كان الضابط ساغدين قد استأذن وعاد إلى داخل البيت. قالت هيلدا وهي تنظر إليه: لم أعرف أنه كان معك، ظننت أنه مع بيلار. يبدو رجلاً لطيفاً يراعي مشاعر الآخرين.

كان في صوتها نبرة ارتياح منخفضة تبعث على الطمأنينة. وسألها بوارو: أتقولين إنك أردت رؤيتي؟

أومأت برأسها وقالت: نعم. أظن أن بإمكانك مساعدتي.

- تسرني مساعدتك يا سيدتي.

- أنت رجل ذكي جداً يا سيد بوارو، رأيتُ ذلك الليلة الماضية. أريدك أن تَفهم زوجي.

- نعم يا سيدتي؟

- ما كنت لأتحدث هكذا مع الضابط ساغدين لأنه لن يفهم، ولكنك ستفهمني.

انحنى لها بوارو وهو يقول: إنك تشرفينني يا سيدتي.

أكملت هيلدا حديثها بهدوء: لقد كان زوجي منذ سنوات

طويلة، بل منذ زواجنا، ما لا يسعني إلا أن أصفه بأنه عاجز عقلياً.

- نعم!

- عندما يعاني المرء من ألم جسدي مبرح فإن ذلك يسبب له الصدمة والألم، ولكنه يشفى ببطء، يشفى الجسد وتلتئم العظام. قد يبقى -بالطبع- بعض الضعف أو ندب بسيط، ولكن لا شيء غير ذلك. أما زوجي -يا سيد بوارو- فقد عانى من جرح عقلي عظيم أصابه وهو في سن يكون المرء فيها أكثر تأثراً بمثل هذه الجروح. كان شديد التعلق بأمه، وقد رآها وهي تموت. وهو يعتقد أن والده كان مسؤولاً أخلاقياً عن وفاتها، ولم يُشفَ تماماً من صدمته تلك، كما أن كراهيته لوالده لم تضعف أبداً. أنا التي أقنعت ديفيد بأن يأتي إلى هنا في عيد الميلاد هذا ليتصالح مع والده. كنت أريد ذلك لمصلحته... كنت أريد لجرحه العقلي ذاك أن يندمل، وقد أدركت الآن أن مجيئنا إلى هنا كان خطأ، فقد استمتع سيميون وهو ينكأ ذلك الجرح القديم. كان ذلك تصرفاً خطيراً جداً من جانبه...

قال بوارو: هل تعنين -يا سيدتي- أن زوجك قد قتل أباه؟

- أعني أنه كان يمكن أن يقتله بسهولة يا سيد بوارو... كما سأخبرك أيضاً بأنه لم يقتله! عندما قُتل سيميون كان ابنه يعزف لحن «الموسيقى الجنائزية». كانت رغبة القتل كامنة في قلبه، وقد ظهرت من خلال أصابعه التي يعزف بها... هذه هي الحقيقة.

سكت بوارو قليلاً ثم قال: وأنت، يا سيدتي، ما هو حكمك على تلك الدراما الماضية؟

- أتقصد وفاة زوجة سيميون لي؟

- نعم.

قالت هيلدا ببطء: لقد علمتني الحياة أن المرء ليس بمقدوره الحكم على أية قضية من خلال ظاهرها. يبدو من كل الظواهر أن اللائمة تقع على سيميون لي تماماً، وأنه قد عامل زوجته بشكل بغيض جداً، ولكنني -في نفس الوقت- أؤمن بأن في الجانب الآخر نوعاً من الخنوع، نوعاً من القابلية الطبيعية لتمثل دور الشهيد، وهو ما يوقظ في نوع معين من الرجال أسوأ الغرائز. إنني أظن أن سيميون لي كان من شأنه أن يُعجب بامرأة جريئة قوية الشخصية، أما الصبر والدموع فلم تكن إلاّ لتزعجه.

أومأ بوارو برأسه وقال: لقد قال زوجك الليلة الماضية: "إن أمي لم تتذمر أبداً". هل هذا صحيح؟

ردت هيلدا بنفاد صبر: ليس هذا صحيحاً بالطبع! كانت تشتكي إلى ديفيد دائماً! لقد ألقت كل عبء تعاستها على كتفيه، وكان شاباً صغيراً، أصغر من أن يتحمل كل ما ألقته على كاهله.

نظر إليها بوارو متأملاً، فاحمرّ وجهها بسبب نظراته وعضت على شفتها.

قال: فهمت.

قالت بحدة: ما الذي فهمته؟

- فهمت أنك اضطررت لأن تكوني أمّاً لزوجك في وقت كنتِ تفضلين فيه دور الزوجة.

التفتت عنه. وفي تلك اللحظة خرج ديفيد من البيت وتقدم عبر المصطبة نحوهما. قال وفي صوته نبرة من المرح: أليس هذا يوماً رائعاً يا هيلدا؟ يكاد الجو يكون ربيعاً لا شتاء.

اقترب أكثر. كان يلقي برأسه إلى الوراء، وقد سقطت على جبينه خصلة من شعره الأشقر ولمعت عيناه الزرقاوان فبدا صغيراً صبيانياً إلى حدٍّ مدهش، وبدت عليه مسحة من لهفة الشباب الخالي من الهموم.

قال ديفيد: هيّا نذهب إلى البحيرة يا هيلدا.

ابتسمت وشبكت ذراعها بذراعه وانطلقا معاً.

وبينما كان بوارو يرقبهما وهما ذاهبان رآها تلتفت إليه بنظرة سريعة، ولمح في عينيها التماعة قلق سريعة... أم تراها كانت التماعة خوف؟ لم يكن واثقاً.

سار بوارو إلى الطرف الآخر من المصطبة ببطء وهو يتمتم مع نفسه قائلاً: كما كنت أقول دائماً، أنا القس الذي يعترف الناس أمامه! وحيث أن النساء يأتين ويعترفن أكثر من الرجال، فإن النساء قد جئن إليّ هذا الصباح. ترى هل ستأتي امرأة أخرى قريباً؟

وعندما وصل إلى الطرف الآخر من المصطبة وأراد أن يعود مرة أخرى عرف أن سؤاله قد لاقى جواباً؛ فقد كانت ليديا قادمة إليه.

* * *

قالت ليديا: صباح الخير يا سيد بوارو. لقد أخبرني تريسليان

بأنني سأجدك هنا مع هاري، ولكني سعيدة لأني وجدتك وحيداً. كان زوجي يتحدث عنك، وأعرف أنه مهتم جداً بالحديث معك.

- آه، حقاً؟ هل أذهب لأراه الآن؟

- ليس بعد. لم ينم إلاّ لماماً الليلة الماضية، ولذلك أعطيته حبة منومة قوية في النهاية، وما زال نائماً ولا أريد إزعاجه.

- أفهم هذا جيداً. إن ذلك عمل حكيم من طرفك. رأيت أن الصدمة كانت شديدة عليه جداً في الليلة الماضية.

قالت بأسلوب جدي: أتدري يا سيد بوارو؟ إنه يهتم حقاً بالأمر... أكثر من الآخرين بكثير.

- أفهم ذلك.

سألته: هل لديك (أو لدى الضابط) أية فكرة عمّن عساه ارتكب هذه الفعلة النكراء؟

قال بوارو متأنياً: لدينا أفكار معينة -يا سيدتي- عن الذين لم يرتكبوها.

قالت ليديا بشيء من الضيق: "الأمر أشبه بكابوس... غريب جداً. لا يسعني أن أصدق أن ما جرى حقيقي!". ثم أضافت: ماذا عن هوربري؟ هل كان حقاً في السينما كما يقول؟

- نعم يا سيدتي. لقد تحققنا من روايته، وكان يقول الحقيقة.

وقفت ليديا وانتزعت ورقة من شجرة مجاورة، وغدا وجهها أكثر شحوباً وهي تقول: لكنه شيء فظيع! هذا يجعل الأمر محصوراً... داخل العائلة!

- تماماً.

- لا يمكنني تصديق ذلك يا سيد بوارو!

- يا سيدتي، يمكنك تصديقه، وأنت تصدقينه فعلاً!

كانت على وشك الاحتجاج، وفجأة ابتسمت ابتسامة حزينة وقالت: كم هو منافق الإنسان!

أومأ برأسه وقال: لو كان لك أن تصارحيني -يا سيدتي- لاعترفتِ بأن قتل العجوز على يد أحد أفراد أسرته يبدو لك أمراً طبيعياً تماماً.

قالت ليديا بحدة: هذا قول غريب فعلاً يا سيد بوارو!

- نعم، هو كذلك. ولكن حَمَاك كان غريباً أيضاً!

- العجوز المسكين! عندما كان على قيد الحياة كان يضايقني مضايقة لا توصف، ولكني أشعر الآن بالأسف على ما جرى له.

- هذا ما يمكنني تصوره.

مال على أحد الأحواض الحجرية وقال: هذه الأحواض بارعة الصنع جداً... إنها رائعة تماماً.

- يسرني أنها أعجبتك. إنها واحدة من هواياتي. هل تحب هذا

الحوض الذي يمثل منظراً قطبياً مع طيور البطريق والثلج؟

- عمل فاتن. وما هذا أيضاً؟

- آه، إنه البحر الميت... أو أنه سيكون كذلك، إذ لم أنته منه بعد. أمّا هذا فيُفترض أن يكون مشهداً من منطقة بيانا في كورسيكا. الصخور هناك وردية اللون وجميلة جداً حيث يغمرها ماء البحر الأزرق. منظر الصحراء هذا غريب، ألا تعتقد ذلك؟

كانت تتقدمه على المصطبة، وعندما وصلا إلى الطرف البعيد نظرت إلى الساعة بيدها وقالت: لا بد أن أذهب لأرى إن كان ألفرد قد استيقظ.

وعندما ذهبت عاد بوارو مرة أخرى إلى الحوض الذي يمثل منظراً من البحر الميت. نظر إليه باهتمام كبير، ثم اغترف بيده بعض الحصى وتركها تتدحرج بين أصابعه.

وفجأة تغير وجهه. قرب الحصى إلى وجهه وصاح: يا إلهي، إنها مفاجأة! ماذا يعني هذا بالضبط؟

* * *

الفصل الخامس

السادس والعشرون من كانون الأول

نظر قائد الشرطة والضابط ساغدين إلى بوارو غير مُصدقَيْن. وأعاد بوارو -بحذر- مجموعة الحصى الصغيرة إلى علبة صغيرة ودفعها باتجاه قائد الشرطة قائلاً: نعم، إنها الألماسات دون شك.

- وأين قلت إنك وجدتها؟ في الحديقة؟

- في واحدة من الحدائق المصغرة التي عملتها زوجة ألفرد في أحواض صخرية على المصطبة.

هز ساغدين رأسه بارتياب وقال: زوجة ألفرد؟ يبدو ذلك أمراً غير محتمل الحدوث؟

قال بوارو: أظنك تعني أنك لا ترى محتملاً إقدام زوجة ألفرد على ذبح العجوز؟

أسرع ساغدين إلى القول: نحن نعرف أنها لم تفعل ذلك، ولكني قصدت أن من غير المحتمل أن تكون قد سرقت هذه الألماسات.

قال بوارو: صحيح؛ ما كان المرء ليصدق بسهولة أنها سارقة.

قال ساغدين: بإمكان أي شخص إخفاؤها هناك.

- هذا صحيح. كان إخفاؤها في تلك الحديقة بعينها عملاً مناسباً؛ فهي تمثل البحر الميت، حيث يُفترَض وجود حصى شبيهة بهذه الألماسات من حيث الحجم والشكل.

قال ساغدين: أتعني أنها دبرت ذلك الأمر مسبقاً؟

قال الكولونيل جونسُن متحمساً: لا أصدق هذا على الإطلاق. لماذا تسرق الألماسات أساساً؟

قال ساغدين ببطء: بالنسبة لهذه النقطة...

تدخل بوارو بسرعة قائلاً: يوجد جواب محتمَل على هذا، وهو أنها أخذت الألماسات لتوحي بأن هذا هو الدافع إلى القتل. وهذا يعني أنها كانت تعرف بأن جريمة القتل ستحدث، رغم أنها لم تشارك فيها مشاركة فعلية.

قال جونسُن عابساً: هذا لا يصمد أمام الحقائق لحظة واحدة. إنك تستنتج أنها كانت شريكة في الجريمة... ولكن مع مَن يُحتمل أن تشترك؟ لا يمكن أن تشترك إلاّ مع زوجها، ولكن بما أننا نعرف أن لا علاقة له هو الآخر بالجريمة فإن الفرضية كلها تنهار تماماً.

راح ساغدين يربت على فكه متأملاً ثم قال: نعم، هذا صحيح. إن كانت السيدة لي هي التي أخذت الألماسات (وفي هذا شك كبير)

فإن ذلك لم يكن ليعدو عملية سرقة عادية، وربما يكون صحيحاً أنها جهزت تلك الحديقة لإخفاء الألماسات إلى أن تهدأ الأمور. ويبقى احتمال آخر، وهو عنصر المصادفة؛ فتلك الحديقة -بحصاها المتبلور الذي يشبه الألماس- لفتت انتباه اللص (أيّاً كان)، ورأى فيها مخبأً مثالياً.

قال بوارو: هذا محتمل. إنني مستعد دائماً لتقبل مصادفة واحدة.

هز ساغدين رأسه مرتاباً فسأله بوارو: ما رأيك أيها الضابط؟

قال الضابط بحذر: إن ليديا امرأة لطيفة جداً، ويبدو من غير المحتمل أن تتورط بأي عمل مشبوه. ولكن لا أحد يدري بالطبع.

قال الكولونيل جونسُن بانفعال: في كل الأحوال، ومهما كانت حقيقة الألماسات، فإن تورطها في جريمة القتل مسألة مستبعَدة تماماً؛ فقد رآها كبير الخدم في غرفة الجلوس في وقت تنفيذ الجريمة الفعلي. أنت تذكر ذلك يا بوارو، أليس كذلك؟

قال بوارو: لم أنسَ ذلك.

التفت قائد الشرطة إلى مساعده وقال: من الأفضل أن نواصل عملنا. ماذا عندك من معلومات؟ هل من جديد؟

- نعم يا سيدي؛ لقد حصلتُ على بعض المعلومات الجديدة. أولاً بالنسبة لهوربري، لديه سبب يدعوه للخوف من الشرطة.

- السرقة؟ أليس كذلك؟

- لا أظن يا سيدي، بل انتزاع أموال تحت التهديد، وهو نوع من أنواع الابتزاز. لم يكن ممكناً إثبات القضية عليه، ولذلك نجا من العقوبة. ولكني أظن أنه فعل ذلك مرة أو مرتين دون أن ينال عقاباً، وربما فكر -وهو يشعر بالذنب- أننا جئنا لهذا السبب عندما ذكر تريسليان أمامه وجود ضابط شرطة على الباب في الليلة الماضية، ممّا جعله يرتاع.

قال قائد الشرطة: هممم! وهذا أكثر من أن يحتمله هوربري. وماذا لديك أيضاً؟

سعل الضابط ثم قال: زوجة جورج لي يا سيدي. لقد أمسكنا بخيط معلومات عنها قبل زواجها. كانت تعيش مع شخص يدعى الكابتن جونز، وقد مات والناس يعرفون بأنها ابنته، ولكنها لم تكن كذلك! وأظن -مما سمعناه- بأن العجوز لي قد خمّن وضعها بدقة؛ فقد كان ذكياً عندما يتعلق الأمر بالنساء، وعينه لا تخطئ المرأة السيئة أبداً. لقد كان يسلي نفسه برمية طائشة من سهامه، ولكن الرمية أصابت منها موجعاً!

قال الكولونيل جونسن متأملاً: هذا يعطيها دافعاً آخر لقتله... غير المال. ربما ظنت أنه عرف شيئاً محدداً عنها وأنه يريد فضح أمرها أمام زوجها. إن قصة مكالمتها الهاتفية تلك كانت مثيرة للشبهات؛ فهي لم تتصل بالهاتف أبداً.

قال ساغدين: لماذا لا تجمعهما يا سيدي ونعرف موضوع الهاتف هذا صراحة؟ سنرى ما يمكننا الحصول عليه.

قال الكولونيل جونسن: "فكرة جيدة"، ثم دق الجرس فجاء تريسليان فأمره قائلاً: ليأتِ السيد جورج لي وزوجته إلى هنا.

- حسناً يا سيدي.

وعندما استدار الرجل العجوز قال بوارو: التاريخ الموجود على تقويم الجدار ذاك، هل بقي دون تغيير منذ الجريمة؟

التفت إليه تريسليان وقال: أي تقويم يا سيدي؟

- ذلك الموجود على الجدار هناك.

كان الرجال الثلاثة جالسين في غرفة الجلوس الصغيرة الخاصة بألفرد لي، وكان التقويم الذي سأل عنه بوارو من ذلك النوع الذي تُنزع أوراقه يوماً بيوم، حيث التاريخ مكتوب على كل ورقة بالخط الأسود العريض.

أمعن تريسليان النظر عبر الغرفة، ثم تقدم ببطء إلى أن اقترب من الجدار وقال: أرجو المعذرة يا سيدي، لقد نُزعت الورقة. اليوم هو السادس والعشرون من الشهر.

-آه، أرجو العفو. من هو الشخص الذي ينزع الأوراق في العادة.

- السيد ألفرد لي يا سيدي، في كل صباح. إن السيد ألفرد رجل منظم ومنهجي.

- نعم، شكراً لك.

خرج تريسليان من الغرفة، فسأل ساغدين محتاراً: هل في ذلك التقويم ما يدعو إلى الريبة يا سيد بوارو؟ هل فاتني شيء في هذا الأمر؟

قال بوارو وهو يرفع كتفيه دون مبالاة: التقويم ليس ذا أهمية، كانت مجرد تجربة أجريتُها.

قال الكولونيل جونسُن: التحقيق غداً كما أحسب، ولن يكون حاسماً بالطبع.

قال ساغدين: نعم يا سيدي، قابلتُ قاضي التحقيق وقد تم ترتيب كل شيء.

* * *

دخل جورج لي الغرفة برفقة زوجته. قال الكولونيل جونسُن: صباح الخير، اجلسا من فضلكما. لدي بعض الأسئلة التي أود توجيهها لكما بخصوص شيء لم أتأكد منه تماماً.

قال جورج بشيء من التبجح: سأكون سعيداً بتقديم أية مساعدة.

وقالت ماغدالين بصوت ضعيف: بالطبع!

أشار قائد الشرطة إلى ساغدين بحركة خفيفة من رأسه، فقال ساغدين: بخصوص المكالمتين اللتين تمتا ليلة وقوع الجريمة؛ أظنك قلت -يا سيدي- إنك خابرت ويسترنغهام؟

قال جورج ببرود: نعم، خابرت. اتصلت مع وكيلي في الدائرة

الانتخابية. يمكنني أن أحيلك عليه و...

رفع ساغدين يده قاطعاً عليه استرساله وقال: هذا صحيح... هذا صحيح يا سيد لي. إننا لا نجادل في هذه النقطة. لقد تمت مكالمتك في الساعة الثامنة وتسع وخمسين دقيقة بالضبط.

- حسناً، إنني لا أستطيع تحديد وقتها بمثل هذه الدقة.

- آه، ولكن نحن نستطيع ذلك! إننا ندقق في مثل هذه الأمور دائماً بحرص شديد، شديد حقاً. لقد أُجريت المكالمة في الساعة الثامنة وتسع وخمسين دقيقة وانتهت في الساعة التاسعة وأربع دقائق. وقد قُتل والدك -يا سيد لي- بحدود الساعة التاسعة والربع. لا بد لي أن أطلب منك -مرة أخرى- تفسيراً لتحركاتك.

- لقد أخبرتك... كنت أتصل بالهاتف!

- لا يا سيد لي، لم تكن تهاتف.

- هراء... لا بد أنك أخطأت! قد أكون فرغت من المكالمة لتوي. أظنني فكرت في إجراء مكالمة أخرى... كنت أفكر إن كانت تستحق... أي بالنسبة لأجورها... وعندما سمعت الجلبة في الطابق العلوي.

- لا يمكن أن تبقى عشر دقائق وأنت تفكر بإجراء مكالمة.

احمرّ وجه جورج وبدأ يدمدم: ماذا تقصد؟ ما الذي تعنيه؟ وقاحة بالغة! هل تشك بكلامي؟ تشك بكلام رجل في مثل مكانتي؟ إنني... لماذا يتوجب عليَّ تفصيل كل دقيقة من وقتي؟

قال الضابط ساغدين ببرود أثار إعجاب بوارو: هذا هو الإجراء المعتاد.

التفت جورج إلى قائد الشرطة غاضباً وقال: كولونيل جونسُن، هل تُقرّ هذا الـ... هذا الموقف الذي لم يسبق له مثيل؟

قال قائد الشرطة بسرعة حاسمة: في قضايا القتل يا سيد لي، يجب توجيه الأسئلة... والإجابة عليها.

- لقد أجبت عليها! كنت أنهيت المكالمة وكنت أفكر في إجراء مكالمة أخرى.

- هل كنتَ في هذه الغرفة عندما سمعت الصرخات في الطابق العلوي؟

- كنت هنا... نعم.

التفت جونسُن إلى ماغدالين وقال: أعتقد -يا سيدة لي- بأنكِ قلتِ إنك كنت تخابرين عندما سمعت الصرخات وإنك كنت وحيدة في هذه الغرفة في ذلك الوقت؟

ارتبكت ماغدالين. حبست أنفاسها ونظرت إلى جورج بطرف عينها، ثم إلى ساغدين، ثم التفتت إلى الكولونيل جونسُن كالمستغيثة وقالت: آه، إنني حقاً... لا أعرف... لا أتذكر ما قلته... كنت منزعجة كثيراً...

قال ساغدين: لقد سجلنا كل الأقوال.

التفتت إليه بعينين واسعتين مستغيثتين وفم يرتجف، ولكنها

واجهت -في المقابل- حيادية صلبة لرجل ذي احترام أكيد لا تعجبه مثيلاتها.

قالت مترددة: لقد... اتصلت بالطبع. ولا أستطيع الجزم بالضبط متى...

ثم سكتت، فقال جورج: ما كل هذا؟ من أين اتصلتِ؟ ليس من هذه الغرفة.

قال ساغدين: أنا أرى -يا سيدتي- **بأنك لم تخابري على الإطلاق**، وفي تلك الحالة: أين كنت وماذا كنت تفعلين؟

نظرت ماغدالين حولها شاردة ثم انفجرت باكية وقالت وهي تنتحب: جورج، لا تسمح لهم بأن يرهبوني! أنت تعرف أنني لا أتذكّر شيئاً أبداً عندما يخيفني أحدٌ ويمطرني بوابل من الأسئلة. إنني... لا أعرف ما كنت أقوله تلك الليلة. كان الأمر فظيعاً... وكنت متضايقة جداً... وكانوا قساة معي...

قفزت من مكانها وخرجت راكضة وهي تنتحب. ووقف جورج فجأة وهتف قائلاً: ماذا تقصدون؟ أنا لا أسمح بترهيب زوجتي وترويعها؛ إنها حساسة جداً. هذا تصرف مشين! سأوجه سؤالاً في البرلمان عن أساليب الشرطة المخزية في اضطهاد الناس... تصرف مشينٌ تماماً!

ثم خرج من الغرفة وصفق الباب خلفه بشدة، فيما ألقى ساغدين برأسه إلى الوراء وضحك، ثم قال: لقد ألقينا بينهما أمراً، وسنرى الآن ما يحدث!

قال جونسُن عابساً: أمر غريب؛ يبعث على الارتياب. لا بد أن نحصل منها على أقوال أخرى.

قال ساغدين: ستعود خلال دقيقة أو اثنتين عندما تقرر ماذا تريد قوله. أليس كذلك يا سيد بوارو؟

جفل بوارو الذي كان مستغرقاً في حلم، وقال: ماذا؟

- قلت إنها ستعود.

- محتمل. نعم، هذا ممكن... نعم!

قال ساغدين وهو يحدق فيه: ما الأمر يا سيد بوارو؟ هل رأيت شبحاً؟

قال بوارو ببطء: لست أدري، لعل هذا هو ما حصل بالضبط!

قال الكولونيل جونسُن وقد نفد صبره: حسناً يا ساغدين، هل من شيء آخر؟

قال ساغدين: كنت أحاول التحقق من ترتيب دخول كل واحد منهم إلى مسرح الجريمة. واضحٌ تماماً ما حدث: بعد الجريمة وعندما تعالت صرخة الموت لتنبه العائلة انسلّ القاتل خارجاً وأقفل الباب بالكماشة ذات الرأس الدقيق أو بما يشبهها، وبعد ذلك بلحظات أصبح القاتل واحداً ممن هُرعوا إلى مكان الجريمة. ولسوء الحظ ليس من السهل معرفة الأشخاص الذين رآهم كل واحد من هؤلاء لأن ذاكرة الناس لا تكون دقيقة في موقف كهذا. قال تريسليان إنه

رأى هاري وألفرد يعبران القاعة من غرفة الطعام ويركضان إلى الطابق العلوي، وهذا يجعلنا نستبعدهما، ولكننا لا نشتبه فيهما على أية حال. وحسب ما يمكنني استنتاجه فقد وصلت الآنسة إيسترافادوس إلى هناك متأخرة وكانت من آخر من وصلوا. ويبدو أن الفكرة العامة هي أن ستيفن فار وزوجة جورج وزوجة ديفيد كانوا أول من وصل، وكل واحد من هؤلاء الثلاثة يقول إن واحداً من الآخرَيْن كان قد وصل لتوه قبله. وهذا ما يجعل الأمر صعباً للغاية، حيث لا تستطيع التمييز بين كذبة متعمدة وبين ضبابية صادقة في ذاكرة المرء. الكل ركض إلى هناك... وهذا لا خلاف عليه، ولكن ليس من السهل ترتيب وصولهم إلى مكان الحادث.

قال بوارو ببطء: أتظن ذلك مهماً؟

قال ساغدين: إنه عنصر الوقت. تذكّر أن الوقت كان قصيراً إلى حد لا يمكن تصديقه.

قال بوارو: أوافقك بأن عنصر الوقت مهم جداً في هذه القضية.

مضى ساغدين يقول: إن مما يزيد الأمر صعوبة هو وجود درجين؛ إذ يوجد الدرج الأصلي في القاعة هنا (وهو على بعد متساوٍ من غرفة الطعام وغرفة الاستقبال) كما يوجد درج ثانٍ في الطرف الآخر من البيت. وقد ارتقى ستيفن فار هذا الدرج، أما الآنسة إيسترافادوس فجاءت عبر استراحة الدرج العلوية من تلك الجهة من البيت، فغرفتها في الطرف الآخر منه. أما الآخرون فيقولون إنهم صعدوا على هذا الدرج.

قال بوارو: هذا مربك فعلاً.

وفجأة فُتح الباب ودخلت ماغدالين بسرعة. كانت أنفاسها متسارعة ووجهها محمراً، وجاءت إلى الطاولة وقالت بهدوء: زوجي يعتقد أنني في غرفتي، ولكنني انسللت بهدوء وجئت إلى هنا.

ثم خاطبت الكولونيل جونسُن مستغيثة والحزن في عينيها الواسعتين: كولونيل جونسُن... لو قلت لك الحقيقة فهل ستتكتم على الأمر؟ أقصد أنه لا حاجة بك لأن تعلن كل شيء على الملأ؟

قال الكولونيل جونسُن: أأفهم من ذلك -يا سيدة لي- بأنك تريدين قول شيء لا علاقة له بالجريمة؟

- نعم، لا علاقة له بها أبداً. مجرد شيء في... في حياتي الخاصة.

قال قائد الشرطة: من الأفضل لك أن تصارحينا به وتتركي الحكم لنا يا سيدتي.

قالت ماغدالين وعيناها تدوران: نعم، سأثق بك. أعرف أنك أهل للثقة؛ فأنت تبدو طيباً جداً. الأمر بهذه الصورة. يوجد شخص...

ثم سكتت، فقال: نعم يا سيدتي، ماذا في الأمر؟

- أردت مخابرة شخص الليلة الماضية؛ رجل... صديق لي، ولم أُرِدْ لجورج أن يعرف بالأمر. أعرف أنه تصرف خاطئ جداً من طرفي... ولكن هذا ما جرى. ولذلك ذهبت إلى الهاتف بعد العشاء

وأنا أرى أن جورج سيكون موجوداً في غرفة الطعام، ولكن عندما وصلت إلى هنا سمعته يهاتف شخصاً، ولذلك انتظرت.

سألها بوارو: أين انتظرتِ يا سيدتي؟

- يوجد مكان لتعليق المعاطف والملابس خلف الدرج، وهو مكان مظلم. عدت إلى هناك خلسة حيث يمكنني رؤية جورج عندما يخرج من هذه الغرفة. ولكنه لم يخرج، ثم حدثت كل هذه الضجة وصرخ السيد لي فركضت صاعدة الدرج.

- إذن زوجك لم يغادر هذه الغرفة حتى لحظة وقوع الجريمة؟

- نعم.

قال قائد الشرطة: وأنت كنت تنتظرين خلف الدرج من الساعة التاسعة وحتى التاسعة والربع؟

- نعم، ولكنني لم أستطع قول هذا؛ لأنهم سيطلبون -بالتأكيد- معرفة ما كنت أفعله هناك. لقد كان ذلك أمراً محرجاً جداً بالنسبة لي. إنك ترى -دون شك- مقدار الحرج، أليس كذلك؟

قال جونسُن بغلظة: كان أمراً محرجاً بالتأكيد.

ابتسمت له ابتسامة لطيفة وقالت: أشعر بارتياح كبير لأنني أخبرتك بالحقيقة. أنت لن تخبر زوجي، أليس كذلك؟ نعم، أنا واثقة أنك لن تفعل! يمكنني أن أثق بك، بل بكم جميعاً.

ثم شملتهم كلهم بنظرة توسل أخيرة وانسلّت خارجة من الغرفة بسرعة.

سحب الكولونيل جونشن نفساً عميقاً وقال: حسناً، قد يكون الأمر كما قالت؛ قصة يمكن تماماً قبولها، ومن ناحية أخرى...

أكمل عنه ساغدين: فإنها قد لا تكون كذلك. هذه هي المشكلة؛ إننا لا نستطيع الجزم.

* * *

وقفت ليديا قرب النافذة البعيدة في غرفة الاستقبال تنظر من هناك ونصف جسدها مستتر وراء ستائر النافذة السميكة. سمعت صوتاً في الغرفة جعلها تلتفت جفلة لترى هيركيول بوارو يقف قرب الباب.

قالت: لقد أخفتني يا سيد بوارو.

- أرجو عفوك يا سيدتي؛ إنني أمشي بخفة.

- ظننتك هوربري.

أومأ هيركيول بوارو برأسه وقال: هذا صحيح. إنه يسير بخطوات هادئة، كالقطة... أو كاللص.

ثم سكت لحظة يرقبها، فلم تبدُ على وجهها علامات التأثر، ولكنها أظهرت مسحة من التقزز وهي تقول: أنا لم أحب هذا الرجل أبداً، وسوف أكون مسرورة بالتخلص منه.

- أظن أن من الحكمة أن تفعلي ذلك يا سيدتي.

نظرت إليه بسرعة، ثم قالت: ماذا تقصد؟ هل تعرف شيئاً ضده؟

- إنه رجل يجمع الأسرار ويستخدمها لتحقيق مصالحه.

قالت بحدة: أتظن أنه يعرف شيئاً... عن الجريمة؟

رفع بوارو كتفيه حيرةً وقال: إن له قدمين هادئتين وأذنين طويلتين، وربما سمع شيئاً واحتفظ به.

قالت ليديا بصراحة: أتقصد أنه قد يحاول ابتزاز واحد منا؟

- هذا يقع في دائرة الاحتمال، لكنه ليس ما جئت هنا لقوله.

- وما الذي جئت لقوله؟

قال بوارو ببطء: لقد تحدثت مع السيد ألفرد، وقد قدّم عرضاً رغبت بمناقشته معك قبل أن أقبله أو أرفضه. لكني تأثرت كثيراً باللوحة التي صنعتِها بوقوفك هنا... النقش البديع لثوبك ومن ورائه الستائر الحمراء، وهو ما جعلني أقف معجباً.

قالت ليديا بحدة: أتريدنا أن نضيع الوقت في عبارات الإطراء يا سيد بوارو؟

- أرجو عفوك يا سيدتي، ولكن الأزياء لا يفهمها إلاّ القليل من نساء إنكلترا. إن الثوب الذي كنت ترتدينه في أول ليلة رأيتك فيها كان ذا نقشة جريئة رغم بساطتها...كان جميلاً متميزاً.

قالت ليديا بصبر نافد: لماذا أردت رؤيتي؟

عاد بوارو إلى جديته وقال: الأمر كما يلي يا سيدتي: لقد تمنّى عليّ زوجك أن أتولى التحقيق بكل جدية، وهو يطلب مني البقاء

هنا في البيت وأن أبذل جهدي لكشف الحقيقة.

قالت ليديا بحدة: حسناً، والمطلوب؟

ردّ عليها بوارو ببطء: ما كنت لأقبل دعوة لا توافق عليها سيدة البيت.

قالت ببرود: أمر طبيعي أن أوافق على الدعوة التي قدمها زوجي.

- نعم يا سيدتي، ولكني أريد أكثر من هذا. هل تريدينني أن آتي إلى هنا حقاً؟

- ولِمَ لا؟

- فلنكُنْ أكثر صراحة؛ إن سؤالي هو كالتالي: هل تريدين للحقيقة أن تظهر أم لا؟

- طبعاً.

تنهد بوارو وقال: ألا تملكين الرد عليّ إلاّ بهذه الإجابات التقليدية؟

قالت: "أنا امرأة تقليدية"، ثم عضّت على شفتيها وترددت ثم قالت: ربما كان من الأفضل أن نتحدث بصراحة. إنني أفهمك بالطبع؛ فالموقف لا يدعو إلى السرور! لقد قُتل والد زوجي بطريقة وحشية، وما لم يتمّ إثبات القضية على أكثر المشبوهين احتمالاً (وهو هوربري) بتهمة السرقة والقتل (وهو ما لا يبدو ممكناً) فإن الحال

يصبح كالتالي: **إن أحد أفراد عائلته هو الذي قتله.** إن تقديم هذا الشخص إلى العدالة سوف يعني جلب العار والفضيحة لنا جميعاً... وإذا كان لي أن أتحدث بأمانة وصدق لقلت إنني لا أريد حدوث هذا.

قال بوارو: هل ترضين بأن يفلت المجرم من العقوبة؟

- ربما كان في هذا العالم العديد من القتلة الذي لم يُكشَف أمرهم.

- هذا ما أوافقك عليه.

- فهل يهم إضافة واحدٍ آخر إليهم إذن؟

قال بوارو: وماذا عن أفراد العائلة الآخرين؟ الأبرياء؟

حدقت فيه وقالت: وماذا عنهم؟

- هل تدركين بأنه لو جرى الأمر كما تأملين فلن يعرف أحد الحقيقة وسيبقى الشك مخيماً فوق الجميع على السواء؟

قالت مترددة: لم أفكر في هذا.

قال بوارو: "لن يعرف أحدٌ من هو القاتل، من هو المجرم..."، ثم أضاف بهدوء: إلاّ إذا كنت تعرفين يا سيدتي.

صاحت: لا يحق لك قول ذلك. هذا ليس صحيحاً! آه، لو قُدِّر له فقط أن يكون غريباً... لا فرداً من الأسرة.

- قد يكون كلا الأمرين.

حدقت إليه وقالت: ماذا تعني؟

- قد يكون واحداً من العائلة وهو -في نفس الوقت- غريب. ألا تفهمين ما أعنيه؟ حسناً، إنها مجرد فكرة خطرت في بال هيركيول بوارو.

نظر إليها وقال: حسناً يا سيدتي، ماذا أقول للسيد لي؟

رفعت ليديا يديها ثم أسقطتهما فجأة بحركة يائسة وقالت: ينبغي أن تقبل عرضه... بالطبع.

* * *

وقفت بيلار وسط غرفة الموسيقى وعيناها تجولان من جانب لآخر كحيوان يخشى على نفسه من هجوم. قالت: أريد الخروج من هذا البيت!

أجابها ستيفن فار بلطف: لست وحدك من يشعر هكذا، لكنهم لن يتركونا نذهب يا عزيزتي.

- أتعني الشرطة؟

- نعم.

قالت بيلار بكل جدية: التورط مع الشرطة ليس بالأمر اللطيف؛ إنه شيء لا يجدر أن يحدث لأناس محترمين.

قال ستيفن وقد علت شفتيه ابتسامة باهتة: أتقصدين نفسك؟

- لا، بل أقصد ألفرد وليديا وديفيد وجورج وهيلدا و... نعم، ماغدالين أيضاً.

- ولماذا الاستثناء؟

- ماذا تعني من فضلك؟

- لماذا استثنيتِ أخاهم هاري؟

ضحكت بيلار فظهرت أسنانها بيضاء مستوية ثم قالت: هاري مختلف! أظن أنه يعرف جيداً ماذا يعني التورط مع الشرطة.

قال ستيفن: "ربما كنت على حق. إنه -بالتأكيد- أكثر تفرداً من أن يندمج بالحياة الأسرية". ثم أكمل يقول: هل تحبين أقاربك الإنكليز يا بيلار؟

قالت بيلار بارتياب: إنهم لطفاء... لطفاء جداً، ولكنهم لا يضحكون كثيراً. إنهم ليسوا مرحين.

- يا عزيزتي، لقد وقعتْ في البيت جريمة قتل بالأمس!

قالت بيلار بارتياب: نـ... نعم.

قال ستيفن بأسلوب تعليمي: إن جرائم القتل ليست حدثاً يومياً كما يُستشف من عدم مبالاتك. في إنكلترا يتعاملون مع جرائم القتل تعاملاً جاداً يختلف عما يفعله الإسبان.

- أنت تضحك مني...

- أنت مخطئة؛ فلستُ في مزاج يسمح بالضحك.

نظرت إليه بيلار وقالت: ألأنك أيضاً ترغب في الخروج من هنا؟

- نعم.

- ألا يسمح لك الشرطي الضخم الوسيم بالخروج من هنا؟

- لم أسأله، ولكني لا أشك في رفضه إن سألته. يجب أن أرقب خطواتي -يا بيلار- وأن أكون حريصاً جداً جداً.

قالت بيلار وهي تهز رأسها موافقة: إنه أمر مُتعِب.

- بل هو أكثر قليلاً من متعب يا عزيزتي! بالإضافة إلى وجود ذلك الأجنبي المجنون الذي يحوم هنا وهناك. لا أظنه بارعاً أبداً، ولكنه يثير أعصابي.

قالت بيلار عابسة: لقد كان جدي غنياً جداً جداً، أليس كذلك؟

- أظن ذلك.

- أين ستذهب أمواله الآن؟ لألفرد والآخرين؟

- هذا يعتمد على وصيته.

قالت بيلار متأملة: هل ترك لي بعض المال؟ أخشى أنه لم يترك لي شيئاً.

- ستكونين على ما يرام؛ فأنت -في النهاية- واحدة من العائلة. أنت تنتمين لهذا البيت، وسيضطرون للاهتمام بك.

قالت بيلار وهي تتنهد: أنا أنتمي لهذا البيت؟ هذا أمر مضحك جداً. لا، بل هو ليس مضحكاً على الإطلاق.

- أرى أنك قد لا تجدين في الأمر أية دعابة.

تنهدت بيلار ثانية وقالت: أتظن أن بإمكاننا أن نشغّل جهاز الفونوغراف؟

أجابها ستيفن متردداً: لن يبدو الأمر مناسباً؛ فهذا بيت فيه حداد أيتها الإسبانية القاسية.

قالت بيلار وهي تفتح عينيها على اتساعهما: لكنني لا أشعر بالحزن على الإطلاق؛ فأنا لم أعرف جدي حقاً. ورغم أنني أحببت الحديث معه إلاّ أنني لا أريد النحيب والحزن على وفاته. إن التظاهر مسألة سخيفة جداً.

- يا لك من فتاة!

قالت بيلار بحذر: يمكننا أن نحشو مكبر الفونوغراف ببعض الجوارب والقفازات، وعندها لن يصدر صوتاً عالياً ولن يسمعه أحد.

- هيا إذن أيتها العبقرية.

ضحكت من كل قلبها وخرجت من الغرفة مسرعة إلى غرفة الموسيقى في الطرف البعيد من البيت، وعندما وصلت إلى الممر الجانبي الذي يفضي إلى باب الحديقة وقفت دون حراك، وقد لحق ستيفن بها ووقف هو الآخر.

كان هيركيول بوارو قد أنزل لوحة عن الحائط وجعل يتفحصها تحت الضوء القادم من المصطبة. ورفع بصره فرآهما وقال: آها! لقد

وصلتما في اللحظة المناسبة.

قالت بيلار: ما الذي تفعله؟

اقتربت منه ووقفت بجانبه، فقال بوارو بهدوء: إنني أتفحص شيئاً بالغ الأهمية؛ وجه سيميون لي عندما كان شاباً.

- آه، أهذه صورة جدي؟

- نعم يا آنسة.

تفحصت الوجه المرسوم في اللوحة ثم قالت ببطء: كم هو مختلف... مختلف جداً! كان عجوزاً جداً، ضعيفاً جداً. أما هنا فهو يشبه هاري كما كان من شأن هاري أن يبدو قبل عشر سنوات.

هز بوارو رأسه وقال: نعم يا آنسة؛ هاري يشبه والده كثيراً. والآن هنا...

قادها مسافة قصيرة في القاعة وقال: ها هي السيدة جدتك... ذات وجه طويل ولطيف، وشعر شديد الشقرة، وعينين زرقاوين هادئتين.

قالت بيلار: مثل ديفيد.

- إنها تشبه ألفرد أيضاً.

قال بوارو: إن الوراثة أمر مثير جداً. كان السيد لي وزوجته نوعين متناقضين تماماً، وإجمالاً فإن أبناءهما يشبهون أمهم. انظري هنا يا آنسة.

أشار إلى لوحةٍ لفتاة في التاسعة عشرة أو قريباً من ذلك، ذات شعر ذهبي مجعد وعينين زرقاوين ضاحكتين واسعتين. كان لون الوجه مثل لون زوجة سيميون لي ولكن كان في وجه الفتاة حيوية ونشاط لم يتوفرا أبداً في ملامح الأم الهادئة وعينيها الزرقاوين البسيطتين.

قالت بيلار: آه!

احمرّ وجهها وامتدت يدها إلى عنقها حيث أخرجت علبة معدنية صغيرة تتدلى من سلسلة ذهبية ثم ضغطت على زرٍّ في العلبة فانفتحت ونظر نفس الوجه الضاحك إلى بوارو. قالت بيلار: هذه أمي.

أومأ بوارو برأسه، وكانت على الجانب الآخر من العلبة صورة رجل. كان شاباً وسيماً ذا شعر أسود وعينين زرقاوين غامقتين. قال بوارو: أهذا أبوك؟

- نعم؛ أبي. إنه جميل جداً، أليس كذلك؟

- بلى؛ بالفعل. قليل من الإسبان مَن لهم عيون زرقاء، أليس كذلك يا آنسة؟

- أحياناً تجد ذلك في الشمال. كما أن والدة أبي كانت أيرلندية.

قال بوارو متأملاً: إذن تجري فيك دماء إسبانية وأيرلندية وإنكليزية، إضافة إلى لمسة غجرية. أتعرفين رأيي يا آنسة؟ إنك

تشكلين عدواً صعباً بمثل هذا الإرث.

قال ستيفن ضاحكاً: هل تذكرين ما قلتِه في القطار يا بيلار؟ حين قلتِ إن أسلوبك مع أعدائك سيكون بذبحهم ذبح النعاج... آه!

سكت وقد أدرك -فجأة- مضامين كلماته. وكان بوارو سريعاً في تغيير مجرى الحديث إذ قال: آه، نعم، أريد أن أسألك عن شيء يا آنستي. جواز سفرك... إن صديقي الضابط يحتاجه. كما تعرفين... تعليمات الشرطة بالنسبة للأجانب في هذا البلد، وأنت -طبعاً- أجنبية قانوناً. إنها تعليمات غبية مزعجة، ولكنها ضرورية.

رفعت بيلار حاجبيها دهشة وقالت: جواز سفري؟ نعم، سوف أحضره. إنه في غرفتي.

قال بوارو معتذراً وهو يسير بجانبها: أنا آسف جداً على إتعابك.

وصلا إلى نهاية القاعة الطويلة حيث يوجد درج، وصعدت بيلار عليه راكضة وتبعها بوارو، ثم جاء ستيفن أيضاً وراءهما. كانت غرفة بيلار عند أعلى الدرج مباشرة، وقالت عندما وصلت الباب: سأحضره.

دخلت فيما بقي بوارو وستيفن خارج الباب ينتظران. قال ستيفن نادماً: أمر سخيف جداً مني أن أقول شيئاً كهذا، ومع ذلك لا أظن أنها انتبهت، أليس كذلك؟

لم يجبه بوارو. أمال رأسه إلى الجانب قليلاً وكأنه يصغي، ثم قال: الإنكليز مغرمون بالهواء الطلق، ولا بد أن الآنسة إيسترافادوس قد ورثت هذه الصفة.

قال ستيفن وهو يحدق به: لماذا؟

قال بوارو بهدوء: لأنه رغم أن الجو اليوم بارد جداً (وليس مشمساً كالأمس) إلاّ أن الآنسة إيسترافادوس رفعت لتوها اللوح السفلي لنافذتها. إن حب الهواء المنعش إلى هذا الحد أمر مدهش.

وفجأة علت صيحة تعجب بالإسبانية من داخل الغرفة، وعادت بيلار منزعجة بطريقة تثير الضحك وهي تصيح: آه، يا لي من غبية ومهملة! حقيبتي الصغيرة كانت على عتبة النافذة، وكنت أقلّب داخلها بسرعة ودون تركيز فسقط جواز سفري من النافذة. إنه فوق مسكبة الزهور في الأسفل. سوف أحضره.

قال ستيفن: سأحضره أنا.

ولكن بيلار كانت قد تجاوزته، ثم التفتت تقول له: لا؛ إن حماقتي هي السبب. اذهب أنت مع السيد بوارو إلى غرفة الاستقبال وسوف أحضره إلى هناك.

بدا ستيفن فار ميالاً للذهاب وراءها، ولكن يد بوارو أمسكت بذراعه بلطف وهو يقول: دعنا نذهب من هنا.

سارا في ممر الطابق الأول باتجاه الطرف الآخر من البيت إلى أن وصلا إلى قمة الدرج الكبير، وهناك قال بوارو: لنبقَ هنا قليلاً. أرجو أن تأتي معي إلى غرفة الجريمة، فهناك شيء أريد سؤالك عنه.

سارا في الممر الذي يؤدي إلى غرفة سيميون لي. وعلى يسارهما مرّا بكوّة واسعة في الجدار كانت تحتوي على تمثالين من الرخام لحوريتين تمسكان بملابسهما بالتزامٍ وحشمةِ العصر الفيكتوري.

نظر ستيفن فار إليهما وهمس: إنهما تخيفان كثيراً في ضوء النهار. ظننتُ أن ثلاثة من هذه التماثيل موجودة عندما جئتُ من هنا ليلة أمس، ولكنهما اثنتان فقط ولله الحمد!

اعترف بوارو قائلاً: ليستا مما يثير إعجاب الناس في أيامنا هذه، ولكن لا شك أنهما كلفتا كثيراً من المال في ذلك الوقت. أظن أنهما تبدوان أجمل في الليل.

- نعم؛ فالمرء لا يرى عندها إلاّ هيئة بيضاء لامعة.

تمتم بوارو: كل القطط تبدو رمادية في الظلام!

وجدا الضابط ساغدين في الغرفة. كان يجثو على ركبته أمام الخزنة ويتفحصها بعدسة مكبرة، وعندما دخلا رفع بصره وقال: ما من شك أنها فُتحت بالمفتاح، والذي فتحها يعرف أرقامها السرية. ما من أثر لأي شيء آخر.

ذهب بوارو ناحيته وسحبه جانباً وهمس في أذنه شيئاً، فأومأ الضابط برأسه وغادر الغرفة.

التفت بوارو إلى ستيفن الذي كان يقف محدقاً إلى الكرسي الذي كان يجلس عليه سيميون دائماً. كان مقطباً وجبينه متغضناً. ونظر بوارو إليه ساكتاً بعض الوقت ثم قال: هل تستعيد الذكريات؟

رد عليه ستيفن فار ببطء: قبل يومين فقط كان جالساً هنا على قيد الحياة، والآن...

ثم صحا من الاستغراق في التفكير وقال: نعم يا سيد بوارو، جئتَ بي إلى هنا لتسألني عن شيء، أليس كذلك؟

- آه، بلى. أظنك كنتَ أول شخص يصل إلى مسرح الجريمة تلك الليلة؟

- أحقاً؟ لا أتذكر. لا، أظن أن إحدى السيدات كانت هنا قبلي.

- أي واحدة؟

- إحدى الزوجات... زوجة جورج أو ديفيد.

- أظنك قلت إنك لم تسمع الصرخة؟

- لا أظنني سمعتها... لا أتذكر تماماً. لقد صاح أحدهم، ولكن ربما كان ذلك أحداً في الطابق الأرضي.

قال بوارو: ألم تسمع صوتاً كهذا؟

ثم ألقى برأسه إلى الوراء وصاح فجأة صيحة حادة مدوية.

كانت صيحة غير متوقعة لحد جعل ستيفن يرتعب خوفاً ويتراجع إلى الوراء حتى كاد يسقط على الأرض. قال غاضباً: ما هذا بالله عليك، أتريد ترويع جميع أهل البيت؟ كلا، لم أسمع أي شيء كهذا! ستخيف الجميع مرة أخرى؛ إذ سيظنون أن جريمة أخرى قد وقعت!

بدا بوارو كسيراً نادماً، ثم تمتم قائلاً: صحيح... كانت تلك حماقة. يجب أن نذهب على الفور.

أسرع خارجاً من الغرفة. كان ألفرد وليديا عند أسفل الدرج يُطلاّن إلى أعلى، وخرج جورج من المكتبة لينضم إليهما، وجاءت بيلار تركض وبيدها جواز السفر.

صاح بوارو: لا شيء... لا شيء. لا تخافوا؛ قمتُ بتجربة صغيرة فقط، هذا كل ما في الأمر.

بدا ألفرد منزعجاً وجورج ساخطاً، فترك بوارو ستيفن ليشرح لهم الأمر وانسلّ بسرعة عبر الممر إلى الطرف الآخر من البيت. وفي نهاية الممر خرج ساغدين بهدوء من غرفة بيلار وقابل بوارو الذي بادره قائلاً: هاه؟ ماذا وجدت؟

هز الضابط رأسه نافياً وقال: "لم أسمع أي صوت". ثم نظر إلى بوارو بإعجاب وأومأ برأسه.

* * *

قال ألفرد: إذن فأنت تقبل يا سيد بوارو؟

عندما رفع يده إلى فمه كانت ترتجف قليلاً. كانت عيناه البنيتان الهادئتان تُشعان بتعبير محموم جديد، وتلعثم قليلاً في كلامه. أما ليديا -التي كانت تقف قربه بصمت- فقد نظرت إليه بشيء من القلق.

قال ألفرد: أنت لا تعرف. أنت لـ.. لا تستطيع أن تتخيل مـ... ماذا يعني هذا بالنسبة لي... يجب كشفُ قاتل والدي.

قال بوارو: طالما أنك أكدتَ لي بأنك فكرتَ طويلاً وملياً فإنني أقبل العرض، ولكنك تعلم -يا سيد لي- أن التراجع غير ممكن؛ فأنا لستُ كالكلب الذي يطلقه صاحبه ليصيد ثم يطلب منه التراجع لأن طريقة الكلب في المطاردة لم تعجبه!

- بالطبع، بالطبع، غرفتك جاهزة. امكث هنا قدر ما تريد.

قال بوارو بجدية: لن يطول الأمر.

- إيه؟ ماذا يعني هذا؟

- قلتُ إن الأمر لن يطول. في هذه الجريمة دائرة محصورة بحيث لا يستغرق الأمر طويلاً قبل الوصول للحقيقة، وأعتقد أن النهاية تقترب.

حدق به ألفرد وقال: مستحيل!

- أبداً؛ فالحقائق كلها تشير -بطريقة أو بأخرى- إلى اتجاه واحد. توجد فقط قضية واحدة غير مرتبطة بالموضوع يجب توضيحها وإزالتها عن الطريق، وعندما تفعل ذلك ستظهر الحقيقة.

قال ألفرد غيرَ مُصدّق: أتعني أنك تعرف؟

ابتسم بوارو وقال: نعم، أعرف.

قال ألفرد: أبي... أبي...

ثم التفت بعيداً، فقال بوارو بسرعة: عندي -يا سيد لي- طلبان أريد التقدم بهما.

أجابه ألفرد بصوت مكبوت: اطلب ما بدا لك... أي شيء.

- إذن أريد -أولاً- وضع صورة السيد لي وهو شاب في غرفة النوم التي تكرّمتَ وخصصتَها لي.

حدق فيه ألفرد وزوجته، ثم قال ألفرد: صورة أبي... لماذا؟

قال بوارو وهو يرفع يده: إنها سوف... ماذا أقول؟ سوف تلهمني.

قالت ليديا بحدة: هل تنوي -يا سيد بوارو- حلَّ الجريمة عن طريق الاستبصار؟

- لنقل يا سيدتي إنني لا أنوي فقط استخدام العينين، وإنما استخدام عيني العقل أيضاً.

رفعت كتفيها حيرة فيما أكمل بوارو: الطلب الثاني -يا سيد لي- هو أنني أريد معرفة الظروف الحقيقية التي صاحبت وفاة زوج أختك، خوان إيسترافادوس.

قالت ليديا: وهل هذا ضروري؟

- أريد كل الحقائق يا سيدتي.

قال ألفرد: قام خوان إيسترافادوس بقتل رجل آخر في مقهى نتيجة شجار على امرأة.

- وكيف قتله؟

نظر ألفرد إلى ليديا مستغيثاً، فقالت ببساطة: طعنه! ولم يُحكم على خوان إيسترافادوس بالإعدام، إذ رأى القاضي وجود استفزاز من قبل القتيل. وقد حُكم عليه بالسجن ومات في سجنه.

- هل تعرف ابنته شيئاً عن والدها؟

- لا أظن ذلك.

قال ألفرد: كلا، لأن جينفر لم تخبرها بشيء.

- شكراً لكما.

قالت ليديا: لا أظنك ترى أن بيلار... آه، هذا سخيف!

سأل بوارو: هل لكَ أن تعطيني -يا سيد لي- بعض الحقائق عن أخيك السيد هاري لي؟

- ما الذي تريد معرفته؟

- فهمتُ أنكم كنتم تعتبرونه عاراً على العائلة، لماذا؟

قالت ليديا: كان ذلك منذ زمن طويل جداً...

قال ألفرد وقد احمرّ وجهه: إن كنتَ تريد أن تعرف يا سيد بوارو، فقد سرق مبلغاً كبيراً من المال عن طريق تزوير توقيع والدي على شيك مصرفي، وكان أمراً طبيعياً أن لا يقاضيه والدي. كان هاري دائماً محتالاً، وقد تورط في مشكلات في كل أنحاء العالم، وكان يُبرق -دائماً- طالباً المال للخروج من ورطة ما. وقد جرب

السجون في كل مكان.

قالت ليديا: أنت لا تعرف حقاً كل ذلك يا ألفرد.

قال ألفرد غاضباً ويداه ترتجفان: لا فائدة من هاري... لا فائدة منه أبداً، وقد كان دوماً كذلك!

قال بوارو: أرى أنه لا يوجد بينكما حب؟

- لقد عذَّب والدي... عذبه بطريقة مُخزية!

تنهدت ليديا بنفاد صبر، وقد سمعها بوارو ونظر إليها نظرة حادة. قالت: لو أننا نعثر -فقط- على تلك الألماسات. أنا واثقة أن حل الجريمة يكمن فيها.

قال بوارو: لقد عثرنا عليها يا سيدتي.

- ماذا؟!

قال بوارو بلطف: لقد وجدناها في حديقتك المصغرة التي تمثل البحر الميت.

صاحت ليديا: في حديقتي أنا؟ كم... كم هو غريب!

قال بوارو بهدوء: بل هو ليس غريباً أبداً.

* * *

الفصل السادس

السابع والعشرون من كانون الأول

قال ألفرد وهو يتنهد: كان ذلك أفضل مما كنتُ أخشاه.

كانوا قد عادوا لتوِّهم من التحقيق. وكان السيد تشارلتون حاضراً، وهو محام من الطراز القديم ذو عينين زرقاوين حذرتين، وقد عاد معهم وقال: لقد قلت لكم إن الإجراءات ستكون شكلية، شكلية تماماً. لم يكن من التأجيل بد... حتى يتمكن الشرطة من جمع أدلة إضافية.

قال جورج بعصبية: إنه أمر بغيض... حقاً بغيض جداً؛ أفظع موقف يمكن أن يوضَع المرء فيه! أنا -شخصياً- مقتنع بأن هذه الجريمة قد ارتكبها شخص مجنون دخل البيت بطريقة أو بأخرى. إن ساغدين هذا عنيد كالبغل، ولقد كان يجب على الكولونيل جونسُن طلب مساعدة سكوتلانديارد. عناصر الشرطة المحلية هؤلاء لا فائدة منهم، رؤوسهم يابسة. ماذا بشأن هذا الرجل، هوربري، على سبيل المثال؟ سمعتُ أن ماضيه لم يكن مُرضياً على الإطلاق، ولكن الشرطة لم يفعلوا شيئاً في هذا المجال.

قال السيد تشارلتون: أظن أن لدى هوربري دليلاً مقنعاً على مكان وجوده وقت وقوع الجريمة، وقد قبل الشرطة هذا الدليل.

صاح جورج غاضباً: ولماذا يقبلونه؟ لو كنتُ مكانهم لتحفظتُ إزاء مثل هذا الدليل أبلغ التحفظ. أمر طبيعي أن يتسلح المجرم دائماً بدليل غياب عن مسرح الجريمة، ومن واجب الشرطة تفنيد الدليل... هذا إن كانوا يتقنون عملهم.

قال السيد تشارلتون: حسناً، حسناً. لا أظن أن من شأننا تعليم الشرطة واجباتهم، أليس كذلك؟ إنهم -عموماً- رجال أكفاء.

هز جورج رأسه وقال: يجب استدعاء شرطة سكوتلانديارد. أنا لستُ مقتنعاً أبداً بالضابط ساغدين. ربما كان يبذل جهده، ولكنه ليس ذكياً بالتأكيد.

قال السيد تشارلتون: لا أتفق معك في هذا الأمر. إن ساغدين رجل جيد، إنه لا يتبجح ويتباهى هنا وهناك، ولكنه يصل إلى مراده.

قالت ليديا: أنا واثقة بأن الشرطة يبذلون جهدهم. هل تريد فنجاناً من القهوة يا سيد تشارلتون؟

شكرها السيد تشارلتون بأدب ولكنه اعتذر، ثم تنحنح وانتقل إلى قراءة الوصية بعد أن اجتمع شمل أفراد العائلة. قرأها بنوع من التلذذ متريثاً عند بعض العبارات الغامضة ومستمتعاً بعباراتها القانونية المتخصصة، ثم وصل إلى نهاية الوصية ونزع نظارته ومسحها ونظر إلى المجتمعين حوله متسائلاً.

قال هاري: هذه العبارات القانونية يصعب متابعتها. أعطنا خلاصتها من فضلك.

قال السيد تشارلتون: إنها في الواقع وصية بسيطة تماماً.

قال هاري: يا إلهي! كيف تكون الوصية الصعبة إذن؟

وبخه المحامي بنظرة باردة منه ثم قال: الفقرات الرئيسة من الوصية بسيطة جداً؛ نصف أملاك السيد لي تذهب إلى ابنه السيد ألفرد لي، والباقي يُقسم بين أولاده الآخرين.

ضحك هاري ضحكة كريهة وقال: كالعادة، الحظ حليف ألفرد. نصف ثروة أبي! أنت محظوظ يا ألفرد، أليس كذلك؟

احمرَّ وجه ألفرد وقالت ليديا بحدة: كان ألفرد مخلصاً ومحباً لوالده، وقد قام بإدارة أعماله سنوات عديدة وتولى كل المسؤوليات.

قال هاري: نعم، كان ألفرد دائماً... الولد الطيب.

أجاب ألفرد بحدة: أظن أن بإمكانك اعتبار نفسك محظوظاً إذ ترك لك والدي شيئاً!

ضحك هاري وهو يلقي برأسه إلى الوراء وقال: كنتَ تفضّل حرماني من الميراث تماماً، أليس كذلك؟ كنتَ دائماً تكرهني.

سعل السيد تشارلتون. كان معتاداً، بل معتاداً جداً، على المشاهد المؤلمة التي تعقب قراءة الوصايا، وكان يحرص على

النجاة قبل أن يشتد الشجار المعتاد بين الورثة. ولذلك تمتم قائلاً: أظن أن... أن هذا كل ما أريد...

قال هاري بحدة: وماذا عن بيلار؟

سعل السيد تشارلتون ثانية، ولكنها كانت سعلة المعتذر هذه المرة، ثم قال: الآنسة إسترافادوس غير مذكورة في الوصية.

قال هاري: ألا تأخذ حصة والدتها؟

أوضح السيد تشارلتون قائلاً: لو كانت جينفر على قيد الحياة لكان من الطبيعي أن تحصل على حصة كحصة أيٍ منكم، ولكن بما أنها توفيت فإن الحصة التي كانت ستؤول إليها تعود إلى التركة ثم تُقسم بينكم.

قالت بيلار بصوتها الجنوبي العميق وبتمهل: إذن... لن أحصل على شيء؟

أسرعت ليديا تقول: يا عزيزتي، سوف تنظر العائلة في هذا الأمر بالطبع.

قال جورج: بإمكانك أن تعيشي هنا مع ألفرد. أليس كذلك يا ألفرد؟ إننا... أنت ابنة أختنا ومن واجبنا العناية بك.

قالت هيلدا: سنكون سعداء دائماً بوجود بيلار معنا.

قال هاري: يجب أن تحصل على حصتها الصحيحة؛ يجب أن تحصل على حصة جينفر.

دمدم السيد تشارلتون قائلاً: "يجب أن أذهب. وداعاً يا سيدة لي. إن كنتم تريدون أي شيء فاتصلوا بي في أي وقت تشاؤون..."، ثم هرب مسرعاً؛ فقد مكّنته خبرته من التنبؤ بأن كل عناصر الشجار قد تهيأت. وعندما أغلق الباب خلفه قالت ليديا بصوت واضح: أتفق مع هاري؛ أعتقدُ أن لبيلار الحق بحصة محددة. لقد كُتبت هذه الوصية قبل سنوات عديدة من وفاة جينفر.

قال جورج: هراء، هذا أسلوب عشوائي وغير قانوني في التفكير يا ليديا. القانون هو القانون، ويجب أن نلتزم به.

قالت ماغدالين: إنه سوء الحظ بالطبع، ونحن جميعاً آسفون على حظ بيلار، ولكن جورج على حق، فالقانون هو القانون كما يقول.

نهضت ليديا من مجلسها، وأمسكت بيد بيلار قائلة: يا عزيزتي، لا شك أن مثل هذا الحوار كريه بالنسبة لك. هل لكِ أن تتركينا نناقش الأمر وحدنا أرجوك؟

ثم أخذت الفتاة نحو الباب وقالت: لا تقلقي يا عزيزتي بيلار، اتركي الأمر لي.

خرجت بيلار من الغرفة ببطء، وأغلقت ليديا الباب وراءها ثم عادت إلى مجلسها. سكت الجميع قليلاً وهم يسحبون أنفاسهم، وبعد لحظات قليلة بدأت المعركة، إذ قال هاري: كنتَ دائماً بخيلاً جداً يا جورج.

رد عليه جورج بحسم: ولكني لم أكن طفيلياً وكريهاً!

- بل كنتَ عالة على غيرك بقدر ما كنتُ أنا! كنتَ تعيش كل هذه السنوات على حساب الوالد.

- يبدو أنك نسيت أن لديّ موقعاً مسؤولاً رفيعاً كان...

قاطعه هاري قائلاً: تباً لهذا الموقع المسؤول! ما أنت إلاّ بالون منفوخ!

صرخت ماغدالين: كيف تجرؤ على هذا القول؟

ارتفع صوت هيلدا الهادئ قليلاً وقالت: ألا يمكننا مناقشة هذا الأمر بهدوء؟

نظرت إليها ليديا نظرة امتنان، فيما قال ديفيد بعنف مفاجئ: أيجب أن نقوم بكل هذه الضجة المعيبة من أجل المال؟

قالت ماغدالين تخاطبه بحقد: رائع منك مثل هذا الترفع المثالي. أتراك تريد رفض حصتك؟ أنت تريد المال بقدر ما يريده الجميع، وما كل هذا الورع إلاّ تكلف منك!

قال ديفيد بصوت مختنق: أتظنين أن عليّ رفض حصتي؟ عجباً...

قالت هيلدا بحدة: ليس عليك أن ترفضه بالطبع. ما بالنا جميعاً نتصرف كالأطفال؟ ألفرد، إنك كبير العائلة...

بدا ألفرد وكأنه استيقظ من حلم وقال: أرجو معذرتكم. أنتم جميعاً تصرخون في وقت واحد. إن... إن هذا يربكني.

قالت ليديا: "كما قالت هيلدا، لماذا نتصرف كالأطفال الجشعين؟ دعونا نناقش هذا الأمر بهدوء وعقلانية و..."، ثم أضافت بسرعة: ونقطة نقطة. سيتكلم ألفرد أولاً لأنه الأكبر سناً. ما الذي ترى أن علينا أن نفعله لبيلار يا ألفرد؟

قال ببطء: يجب أن تعيش هنا بالتأكيد، ويجب أن نرتب لها معاشاً. لا أرى أن لها حقاً قانونياً في طلب الحصة التي كانت ستؤول لوالدتها. تذكّروا أنها ليست من عائلة لي؛ إنها إسبانية الجنسية.

قالت ليديا: ليس حقاً قانونياً، كلا. ولكني أظن أن لها حقاً أدبياً علينا. إنني أرى أن والدك قد أقر لجينفر بحصة في وصيته كغيرها من الأبناء، رغم أنها تزوجت إسبانياً رغماً عنه، وهكذا كان يُفترَض أن يأخذ جورج وهاري وديفيد وجينفر حصصاً متساوية. لقد توفيت جينفر السنة الماضية فقط، وأنا واثقة أن السيد لي -عندما أرسل في طلب السيد تشارلتون- كان يريد تخصيص حصة لا بأس بها لبيلار في وصية جديدة. كان سيخصص لها حصة أمها على الأقل، وربما أكثر من ذلك بكثير، فهي الحفيدة الوحيدة له. أعتقد أن أقل ما يمكننا عمله هو علاج أي ظلم كان والدكم نفسه يستعد لعلاجه.

قال ألفرد متحمساً: أحسنتِ يا ليديا! لقد كنتُ مخطئاً، وأنا أوافقك على أن بيلار يجب أن تحصل على حصة جينفر من ثروة والدي.

قالت ليديا: الدور لك يا هاري.

قال هاري: كما تعلمون فأنا أوافق. أظن أن ليديا قد أحسنت

عرض القضية، وقد أعجبتني بهذا العرض.

قالت ليديا: وجورج؟

كان جورج محمرَّ الوجه، وقال متلعثماً: كلا بالتأكيد! هذا كله محال! أعطوها سكناً ومعاشاً جيداً. هذا يكفيها تماماً.

سأله ألفرد: إذن فأنت ترفض التعاون؟

- نعم أرفض.

قالت ماغدالين: وهو محقٌّ تماماً في ذلك. من العار أن تشترطوا عليه فعل شيء كهذا! وبما أن جورج هو الوحيد من أفراد العائلة الذي حقق شيئاً في هذا العالم فإنني أرى أن من العار أن يترك له والده مثل هذه الحصة الصغيرة!

قالت ليديا: وديفيد؟

قال ديفيد بعبارات غامضة: آه، أعتقد أنكم على حق. من المؤسف حدوث كل هذا الجدال والخلاف على هذا الأمر.

قالت هيلدا: أنتِ على حق يا ليديا؛ إنها مسألة عدالة!

نظر هاري حوله وقال: حسناً، الأمر واضح الآن. ألفرد وأنا وديفيد مؤيدون للاقتراح، وجورج معارض له؛ ولذلك يفوز المؤيدون.

قال جورج بحدة: ليس في الأمر مؤيدون ومعارضون. حصتي من أملاك والدي هي لي وحدي ولن أتنازل عن بنس واحد منها.

قالت ماغدالين: نعم، بالطبع.

قالت ليديا بحدة: إن كنتَ تريد الخروج عن الإجماع فهذا شأنك. سيتولى البقية تغطية المبلغ الذي كان عليك أن تدفعه لها.

ثم نظرت حولها لترى إن كان أحدٌ يعارضها، فأومأ الآخرون بالموافقة. وقال هاري: لقد حصل ألفرد على حصة الأسد، وكان يجب أن يتكفل بمعظم المبلغ.

قال ألفرد: أرى أن اقتراحك الأصلي الخالي من الغرض سينهار في الحال.

قالت هيلدا بصلابة: "لا تدَعونا نبدأ من جديد! ستقوم ليديا بإخبار بيلار بما قررناه، ويمكننا تسوية التفصيلات فيما بعد". ثم أضافت على أمل تغيير مجرى الحديث: ترى أين السيد فار والسيد بوارو؟

قال ألفرد: لقد أوصلْنا السيد بوارو إلى القرية ونحن في طريقنا إلى التحقيق. قال إنه يريد شراء شيء مهم.

قال هاري: لماذا لم يذهب إلى التحقيق؟ كان يجب أن يذهب بالتأكيد!

قالت ليديا: ربما كان يعلم بأنه لن يكون مهماً. مَن هذا الموجود هناك في الحديقة؟ الضابط ساغدين أم السيد فار؟

نجحت جهود المرأتين، وانتهى اجتماع العائلة. وأخيراً قالت ليديا لهيلدا على انفراد: شكراً لك يا هيلدا؛ كان جميلاً منك أن

تدعمي موقفي. كنتِ -بحق- عوناً لي في كل هذا الأمر.

أجابت هيلدا متأملة: غريبٌ كيف أن المال يثير الناس ويُغضبهم.

كان الآخرون قد غادروا الغرفة، وكانت المرأتان تجلسان وحدهما. قالت ليديا: نعم... حتى هاري، رغم أنه كان اقتراحه! والمسكين ألفرد... بريطاني صرف، لا يريد أن تذهب أموال عائلة لي إلى مواطنة إسبانية.

قالت هيلدا مبتسمة: أتظنين أننا -معشر النساء- أقل سعياً خلف المال من الرجال؟

قالت ليديا وهي ترفع كتفيها الرشيقين: إنه ليس مالنا في الحقيقة... ليس ملكاً لنا! مما قد يجعل الأمر مختلفاً.

قالت هيلدا متأملة: إنها طفلة غريبة الأطوار... أقصد بيلار. ترى ماذا سيصبح حالها؟

تنهدت ليديا وقالت: أنا سعيدة لأنها ستكون مستقلة مادياً. ما كان العيش هنا والاكتفاء براتب دوري ليرضيها كثيراً فيما أظن. إنها معتزة بنفسها كثيراً، وأحسبها مختلفة عنا جداً... جداً.

ثم أضافت تقول: أحضرتُ معي -مرة- من مصر عقداً من أحجار اللازورد الزرقاء الجميلة. كانت الأحجار تعطي (هناك في مصر حيث الشمس والرمال) لوناً أزرق رائعاً دافئاً، ولكن عندما أحضرتُها إلى هنا لم تكد زرقتها تظهر بعد ذلك. أصبحَتْ مجرد

سبحة ذات لون قاتم لا روح فيه.

- نعم، فهمت.

قالت ليديا بلطف: أنا سعيدة جداً لتعرُّفي عليك وعلى ديفيد أخيراً. إنني سعيدة لمجيئكما إلى هنا.

تنهدت هيلدا وقالت: لطالما تمنيتُ مؤخراً لو أننا لم نأتِ أصلاً!

- أعرف. هذا أكيد... ولكن، أتعلمين يا هيلدا؟ إن الصدمة لم تؤثر على ديفيد كما كان يُفترض أن تؤثر. أعني أنه حساس إلى درجة ينبغي معها أن تزعجه كثيراً هذه المأساة، ولكنه بدا -عملياً- أفضل حالاً بكثير منذ وقوع الجريمة.

ظهر شيء من الانزعاج على ملامح هيلدا وقالت: إذن فقد لاحظتِ ذلك عليه؟ إنه لأمر فظيع نوعاً ما. آه يا ليديا! إن الأمر كما قلتِ دون شك!

صمتت قليلاً وهي تتذكر الكلمات التي تفوه بها زوجها الليلة الماضية. كان قد قال لها متحمساً بعد أن رفع شعره الأشقر عن جبينه: تذكرين يا هيلدا قصة توسكا... عندما توفي سكاربيا وأضاءت توسكا الشموع عند رأسه وقدميه؟ هل تذكرين ما قالته؟ "الآن يمكنني أن أغفر له". هذا ما أشعر به تجاه والدي. إنني أدرك الآن أنني لم أستطع -طوال هذه السنين- أن أسامحه، رغم أنني أردتُ حقاً ذلك. أما الآن، فلم يعد في قلبي حقد. كله ذهب وتلاشى، وأشعر... أشعر وكأن حملاً ثقيلاً قد انزاح عن كاهلي.

وقد قالت له حينها وهي تسعى لمقاومة خوف مفاجئ انتابها: ألأنه قد مات؟

وقد أجابها ديفيد بسرعة وهو يتلعثم في كلامه المندفع: كلا، كلا، أنت لم تفهميني. ليس لأنه هو الذي مات، ولكن لأن كراهيتي الطفولية الغبية له قد ماتت!

فكرت هيلدا في تلك الكلمات الآن. وكان من شأنها أن ترغب بإعادة تلك الكلمات على مسامع المرأة التي بجانبها، ولكنها أحست -غريزياً- بأن السكوت أكثر حكمة.

تبعت ليديا خارج غرفة الاستقبال إلى الصالة، وكانت ماغدالين هناك تقف قرب طاولة الصالة وبيدها طرد صغير. جفلت عندما رأتهما وقالت: لا بد أن هذا هو الشيء المهم الذي أراد السيد بوارو شراءه. لقد رأيته يضعه هنا قبل قليل. ترى ماذا يوجد فيه؟

قلّبت نظرها بين المرأتين وهي تضحك قليلاً، ولكن عينيها كانتا حادتين قلقتين تكذّبان المرح المفتعل لكلماتها.

ارتفع حاجبا ليديا وقالت: أريد أن أذهب وأغتسل قبل الغداء.

قالت ماغدالين وهي ما زالت على تكلفها للطفولية دون أن تستطيع تفادي نبرة اليأس في صوتها: لا بد أن أختلس نظرة!

فكت لفافة الطرد وصاحت صيحة حادة. كانت تحدق إلى الطرد بيدها، ووقفت ليديا وهيلدا أيضاً تحدقان.

قالت ماغدالين بصوت بدت عليه الحيرة: إنه شارب مستعار. ولكن... ولكن، لماذا؟

قالت هيلدا بارتياب: أهو للتنكر؟ ولكن...

أكملت ليديا الجملة عنها: ولكن للسيد بوارو شارباً طبيعياً ممتازاً!

لفّت ماغدالين الورق حول الطرد مرة أخرى وقالت: لا أفهم. إنه... إنه جنون. لماذا يشتري السيد بوارو شارباً مستعاراً؟

* * *

عندما خرجت بيلار من غرفة الاستقبال سارت في الصالة سيراً بطيئاً. كان ستيفن فار يدخل من باب الحديقة وقال: هل انتهى اجتماع العائلة؟ هل تمت قراءة الوصية؟

قالت بيلار وقد تسارعت أنفاسها: لم أحصل على شيء... لا شيء على الإطلاق! كانت وصية مكتوبة قبل سنوات عديدة. لقد ترك جدي مالاً لوالدتي، ولكن بما أنها توفيت فالأموال لا تؤول إليّ، بل ترجع إليهم.

- يبدو ذلك موقفاً صعباً.

- لو بقي العجوز على قيد الحياة لكتب وصية أخرى. كان سيترك مالاً لي... مالاً كثيراً! وربما كان سيترك لي -بعد مضي الوقت الكافي- كل أمواله!

قال ستيفن مبتسماً: هذا أيضاً لن يكون عملاً عادلاً، أليس كذلك؟

- ولِمَ لا؟ كان من شأنه أن يحبني أكثر من الجميع.

- يا لك من طفلة جشعة استغلالية صغيرة بكل معنى الكلمة!

قالت بيلار بهدوء: الدنيا قاسية جداً على النساء. يجب أن يفعلن لأنفسهن ما يستطعنه وهن شابات، فعندما يصبحن عجائز قبيحات لا يساعدهن أحد.

- هذا أكثر صحة مما كنتُ أظن، ولكنه ليس صحيحاً تماماً. فألفرد -على سبيل المثال- كان يحب والده كثيراً رغم أن العجوز كان صعباً شديد المراس.

ارتفع ذقن بيلار وقالت: ألفرد رجل أحمق.

ضحك ستيفن ثم قال: لا تقلقي أيتها الجميلة بيلار، لا بد أن عائلة لي ستعتني بك.

قالت بيلار باكتئاب: لن يكون في ذلك الكثير من السرور.

- نعم، أظنك محقة في ذلك. لا أستطيع تخيلك وأنت تعيشين هنا يا بيلار. هل تحبين المجيء إلى جنوب أفريقيا؟

أومأت بيلار برأسها بالإيجاب، فقال ستيفن: هناك شمس وفضاء مفتوح، وهناك عملٌ جادٌّ أيضاً. أتحسنين العمل بجد يا بيلار؟

قالت بارتياب: لا أعرف.

- لعلك تفضلين الجلوس في الشرفة وأكل الحلوى طوال اليوم، وتزدادين سمنة وتنتفخ أوداجك، أليس كذلك؟

ضحكت بيلار فقال لها: هذا أفضل، جعلتك تضحكين.

- كنتُ أظن أنني سأضحك في عيد الميلاد هذا! قرأت في الكتب بأن عيد الميلاد في إنكلترا يتميز بكثير من المرح ويأكل الناس فيه الزبيب الحار وكعكة الخوخ التي يلوّحها اللهب.

- ولكن يجب أن تحضري عيد ميلاد بلا جريمة قتل. تعالي هنا دقيقة. لقد أدخلَتْني ليديا إلى هنا بالأمس، إنه المخزن الخاص بها.

أدخلها إلى غرفة صغيرة أكبر من الخزانة بقليل وقال: انظري يا بيلار. علب بسكوت وفاكهة محفوظة وبرتقال وتمر وبندق. وهنا...

شبكت بيلار يديها وقالت: إنها جميلة، هذه الكرات الذهبية والفضية.

- كان يُفترض تعليق هذه الكرات على شجرةٍ مع هدايا للخدم، وهذه بالونات من كل لون جاهزة للنفخ!

لمعت عينا بيلار وقالت: آه! هل يمكننا نفخ بالون منها؟ لن تمانع ليديا. إنني أحب البالونات.

- يا لك من طفلة! هاكِ، أيَّ واحد تريدين؟

- سآخذ هذا الأحمر.

أخذ كلٌّ منهما بالوناً ونفخه، وتوقفت بيلار عن النفخ لتضحك فخرج الهواء من البالون وعاد كما كان. قالت: تبدو مضحكاً وأنت تنفخ وخداك منتفخان.

دوّت ضحكتها في الغرفة، ثم عادت تنفخ بقوة. وربط كل منهما بالونه ربطاً محكماً وأخذا يلعبان بهما ويقذفانهما إلى أعلى هنا وهناك في أرجاء الغرفة. ثم قالت بيلار: ربما كان في الصالة مجال أوسع من هذا.

كانا يتقاذفان البالونين ويضحكان عندما دخل بوارو إلى الصالة. نظر إليهما بمحبة وقال: إذن فأنتما تلعبان هنا؟ هذا جميل!

قالت بيلار وهي تلهث: الأحمر هو بالوني، وهو أكبر من بالونه، أكبر بكثير. لو أخذناهما خارج المنزل فسوف يطيران في الفضاء عالياً.

قال ستيفن: دعينا نطيّرهما ويتمنى كلٌّ منا أمنية.

- نعم، هذه فكرة جيدة.

أسرعت بيلار إلى باب الحديقة وتبعها ستيفن، وجاء بوارو وراءهما والتسامح المحب لم يزل بادياً عليه. صاحت بيلار: سوف أتمنى الحصول على مبلغ كبير من المال.

وقفت على أطراف أصابعها وهي تمسك بخيط البالون الذي تأرجح مع هبوب النسيم، وأفلتت الخيط فسبح البالون في الهواء. ضحك ستيفن وقال: لا يجوز أن تصرّحي بأمنيتك.

- حقاً؟ لماذا؟

- لأنها لا تتحقق. سوف أتمنى الآن.

أطلق بالونه، ولكنه لم يكن محظوظاً؛ فقد طار جانباً وعلق بإحدى الشجيرات الشائكة فانفجر.

أسرعت بيلار نحوه وقالت حزينة: "لقد ذهب..."، ثم قالت وهي تحرك قطعة المطاط الصغيرة المتبقية من البالون برأس قدمها: هذا -إذن- ما التقطتُه عن أرضية غرفة جدي. كان لديه بالون هو الآخر، إلاّ أنه كان وردي اللون.

صاح بوارو صيحة حادة، والتفتت بيلار إليه متسائلة فقال: "لا شيء، لقد تعثرت قدمي فقط". ثم التفت حوله ونظر إلى البيت وقال: نوافذ كثيرة جداً! إن للبيوت -يا آنستي- عيوناً... وآذاناً. المؤسف حقاً أن يكون الإنكليز مولعين إلى هذا الحد بالنوافذ المفتوحة.

خرجت ليديا إلى المصطبة وقالت: الغداء جاهز. بيلار، عزيزتي، لقد تمت تسوية كل شيء بشكل جيد. سوف يشرح لك ألفرد التفصيلات كلها بعد الغداء. هيا ندخل.

دخلوا البيت وكان بوارو آخرهم، وقد بدا واجماً.

* * *

انتهى الغداء. وعندما خرجوا من غرفة الطعام قال ألفرد يخاطب بيلار: هلاّ جئتِ إلى غرفتي؟ لديّ أمر أريد الحديث معك بشأنه.

قادها عبر الصالة ثم إلى مكتبه وأغلق الباب وراءه، فيما ذهب الآخرون إلى غرفة الاستقبال. وحده بوارو تخلّف في الصالة ينظر متأملاً إلى باب المكتب المغلق. وانتبه -فجأة- إلى كبير الخدم يحوم حوله بشيء من القلق. سأله بوارو: نعم يا تريسليان، ما الأمر؟

بدا العجوز متضايقاً وقال: أردتُ الحديث مع السيد لي، ولكني لا أحب إزعاجه الآن.

- هل حدث شيء؟

- أمر غريب جداً، لا معنى له.

- أخبرني.

تردد تريسليان ثم قال: الأمر يا سيدي أنك ربما لاحظتَ وجود قذيفتَيْ مدفعية قديمتين على جانبي الباب الأمامي، وهما كرتان من الحجر الثقيل. لقد اختفت واحدة منهما يا سيدي.

رفع بوارو حاجبيه دهشة وقال: منذ متى؟

- كانتا هناك هذا الصباح يا سيدي، أنا واثق تماماً من ذلك.

- دعني أنظر.

مشيا معاً خارج الباب الأمامي، وانحنى بوارو يتفحص قذيفة المدفعية المتبقية، وعندما نهض كان وجهه شديد التجهم.

قال تريسليان: من عساه يريد سرقة شيء كهذا يا سيدي؟ لا معنى لذلك.

- لستُ مرتاحاً لهذا، لستُ مرتاحاً أبداً.

راقبه تريسليان بلهفة، ثم قال ببطء: ما الذي حدث لهذا البيت؟! منذ مقتل سيدي وهو لا يبدو كعهده. أشعر طوال الوقت كما لو كنتُ غارقاً في حلم عميق. إنني أخلط بين الأمور، وأحياناً أشعر بأنني لا أكاد أثق بعينيّ.

قال بوارو: أنت مخطئ؛ عيناك هما تماماً ما يجب أن تثق به.

قال تريسليان وهو يهز رأسه: إن نظري ضعيف ولا أستطيع أن أرى كما كنت أرى من قبل. إنني أخلط بين الأشياء... وبين الناس أيضاً. لقد كبرت كثيراً على عملي هذا.

ربت هيركيول بوارو على كتفه وقال: تحلَّ بالشجاعة.

- شكراً لك يا سيدي، أعرف أنك تجاملني، ولكني كبرتُ بالسن حقاً. أعود دائماً للأيام الماضية والوجوه القديمة. الآنسة جينفر، وسيدي ديفيد وسيدي ألفرد. إنني أنظر إليهم دائماً كشباب صغار. منذ تلك الليلة التي جاء فيها السيد هاري إلى البيت...

أومأ بوارو برأسه وقال: نعم، هذا ما فكرت فيه. قلتَ قبل قليل: "ومنذ مقتل سيدي"... ولكن الأمر بدأ قبل ذلك. منذ أن عاد السيد هاري إلى بيته تغيرت الأمور وبدت غير حقيقية، أليس كذلك؟

قال تريسليان: "أنت على حق يا سيدي؛ منذ ذلك الوقت.

كان السيد هاري يجلب المتاعب لهذا البيت دائماً حتى في الأيام الخوالي". ثم عاد ونظر إلى مكان الحجر المفقود وقال هامساً: من عساه أخذه يا سيدي؟ ولماذا؟ إنه... إنه كمستشفى المجانين.

قال بوارو: "ليس الجنون هو ما أخشاه، بل العقل! يوجد شخص -يا تريسليان- معرض لخطر داهم". ثم عاد ودخل البيت.

في تلك اللحظة خرجت بيلار من المكتب وقد علت الحمرة خديها. كانت ترفع رأسها عالياً وعيناها تلمعان، وعندما اقترب منها بوارو ضربت الأرض فجأة بقدمها وقالت: لن آخذه.

رفع بوارو حاجبيه وقال: ما هذا الذي لن تأخذيه يا آنسة؟

- لقد أخبرني ألفرد لتوه بأنني سآخذ حصة والدتي من المال الذي تركه جدي.

- وماذا في هذا؟

- قال إنني لا أستطيع الحصول عليه قانوناً ولكنه وليديا والآخرين رأوا أن تكون هذه الحصة لي. يقولون إنها مسألة عدالة، ولذلك سيعطونني هذا المال.

سألها بوارو ثانية: وماذا في هذا؟

ضربت بيلار الأرض بقدمها مرة أخرى وقالت: ألا تفهم؟ إنهم يعطونني إياه... يعطونني إياه!

- هل هذا يجرح كبرياءك؟ بما أن ما يقولونه صحيح فإنه لك بموجب العدالة.

- أنت لا تفهم...

- على العكس؛ فأنا أفهم تماماً.

صاحت: "آه!"، ثم ذهبت غاضبة.

دق أحدهم جرس الباب، فالتفت بوارو وراءه ورأى خيال الضابط ساغدين خارج الباب. أسرع يقول مخاطباً بيلار: إلى أين أنت ذاهبة؟

قالت عابسة: إلى غرفة الاستقبال حيث الآخرون.

قال بوارو بسرعة: جيد، امكثي معهم هناك. لا تخرجي من البيت بمفردك، وخصوصاً بعد حلول الظلام. احذري... أنت في خطر كبير يا آنسة. لن تكوني في موقف أخطر مما أنت فيه اليوم.

ثم تركها وذهب لمقابلة ساغدين. وانتظر ساغدين إلى أن عاد تريلسيان إلى غرفة أوانيه، ثم لوح بنموذج برقية في وجه بوارو وقال: لقد كشفنا الأمر الآن. اقرأ هذه؛ إنها من شرطة جنوب أفريقيا.

كانت البرقية تقول: "ابن إيبنزر فار الوحيد توفي قبل سنتين".

قال ساغدين: إذن فقد عرفنا الآن! غريب... كنت أبحث في طريق مختلف تماماً.

* * *

دخلت بيلار غرفة الاستقبال مرفوعة الرأس وذهبت مباشرة إلى ليديا التي كانت تجلس بجانب النافذة تغزل الصوف وقالت: جئت لأخبرك -يا ليديا- بأنني لن آخذ المال. إنني راحلة... على الفور.

بدت ليديا ذاهلة. وضعت صِنارتها وقالت: لا بد أن الفرد لم يعرف كيف يشرح لك الأمر يا طفلتي العزيزة! إنها ليست من باب الصدقة على الإطلاق إن كان هذا ما تشعرين به، إنها -حقاً- ليست مسألة عطف أو كرم من جانبنا. إنها مجرد مسألة صواب وخطأ؛ ففي الأحوال الطبيعية كانت أمك سترث هذا المال الذي سيؤول إليك. إنه حقاً... حقك بالوراثة. إنها ليست مسألة صدقة بل مسألة عدالة!

قالت بيلار بقوة: ولهذا السبب لا أستطيع أن آخذه. ليس وأنتم تتكلمون هكذا... ليس عندما تكونون هكذا! لقد استمتعت بالمجيء إلى هنا. كانت زيارة ممتعة... كانت مغامرة، ولكنكم الآن أفسدتم كل شيء! أنا ذاهبة الآن على الفور ولن أضايقكم مرة أخرى!

خنقت العبرات صوتها، ثم استدارت وخرجت من الغرفة لا تلوي على شيء.

حدّقت ليديا مدهوشة ثم قالت يائسة: لم أعرف أنها ستأخذ الأمر بهذه الطريقة!

قالت هيلدا: إن البنت تبدو منزعجة جداً.

تنحنح جورج وقال بغرور: كما قلت هذا الصباح... المبدأ الذي تعتمدون عليه خطأ، ولبيلار من الذكاء ما جعلها تفهم ذلك بنفسها، ولذلك فهي ترفض الصدقة.

قالت ليديا بحدة: إنها ليست صدقة، بل هو حقها!

قال جورج: يبدو أنها لا ترى ذلك!

دخل الضابط ساغدين وهيركيول بوارو. ونظر ساغدين حوله وسأل: أين السيد فار؟ أريد الحديث معه.

وقبل أن يجيب أي واحد فيهم قال هيركيول بوارو بحدة: أين الآنسة إيسترافادوس؟

قال جورج بلهجة يغلّفها التشفي: إنها راحلة كما قالت. واضح إنها شبعت من أقاربها الإنكليز.

استدار بوارو وقال لساغدين: تعال!

وفيما خرج الاثنان إلى الصالة سمعا صوت ارتطام ثقيل وصرخة بعيدة. صاح بوارو: بسرعة... هيا.

عبرا الصالة مسرعَيْن وصعدا الدرج البعيد. كان باب غرفة بيلار مفتوحاً وشاهدا رجلاً يقف عند مدخل الباب، وقد التفت نحوهما وهما يصعدان الدرج. كان الرجل هو ستيفن فار، وقال: إنها على قيد الحياة...

كانت بيلار تقف منكمشة وتستند إلى حائط غرفتها، وكانت تحدق بالأرض حيث توجد كرة كبيرة من الحجر على شكل قذيفة مدفعية. قالت وقد انقطعت أنفاسها: كانت مثبتة في أعلى باب غرفتي وكان من شأنها أن تسقط على رأسي عندما دخلت، لكن تنورتي علقت بمسمار وسحبتني إلى الوراء قبل أن أدخل.

جثا بوارو على ركبته وتفحص المسمار. كان عليه خيط من القماش الصوفي الأحمر، ورفع بصره وأومأ برأسه بهدوء وقال: هذا

المسمار -يا آنستي- أنقذ حياتك.

قال الضابط مذعوراً: اسمعوني، ما معنى هذا كله؟

قالت بيلار: أحدهم حاول قتلي!

أومأت برأسها عدة مرات. ورفع ساغدين بصره إلى الباب وقال: شَرَك المغفلين، شَرَكٌ من النوع القديم وكان غرضه القتل! هذه ثاني جريمة يتم التخطيط لها في هذا البيت، لكنها لم تنجح هذه المرة!

قال ستيفن فار بصوت أجش: الحمد لله على سلامتك.

شرعت بيلار يديها وكأنها تستغيث وصاحت: لا أدري لماذا يريدون قتلي أنا؟ ماذا فعلت؟

قال هيركيول بوارو ببطء: الأحرى يا آنسة أن تقولي: ما الذي أعرفه؟

قالت ذاهلة: أعرفه؟ إنني لا أعرف شيئاً.

- في هذا أنت مخطئة. أخبريني يا آنسة بيلار، أين كنت وقت وقوع جريمة القتل؟ لم تكوني في هذه الغرفة.

- كنت هنا، لقد قلت لكم ذلك!

قال ساغدين: نعم، ولكنك لم تقولي الحقيقة عندما قلتِ ذلك. قلت لنا إنك سمعت صوت صراخ جدك... ولو كنت في هذه الغرفة لما استطعت سماعه. لقد جربنا ذلك أنا والسيد بوارو بالأمس.

حبست بيلار أنفاسها فقال بوارو: كنتِ في مكان قريب جداً من غرفته، وسأخبرك أين كنت حسب اعتقادي يا آنسة. كنتِ موجودة في تلك الكوة الواسعة في الممر عند التمثالين القريبين من باب غرفة جدك.

قالت بيلار مرعوبة: آه... كيف عرفت؟

قال بوارو وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة: السيد فار رآك هناك.

قال ستيفن بحدة: أنا لم أرَها؛ هذا محض كذب!

قال بوارو: أرجو المعذرة يا سيد فار، ولكنك رأيتها هناك فعلاً. أتذكُرُ انطباعك وظنك بأنه كان في الردهة ثلاثة تماثيل وليس اثنين. واحدة فقط كانت ترتدي ثوباً أبيض تلك الليلة، وهي الآنسة إسترافادوس. كانت هي التمثال الأبيض الثالث الذي رأيته. هل هذا صحيح يا آنسة؟

قالت بيلار بعد لحظة من التردد: نعم، هذا صحيح.

قال بوارو بلطف: والآن أخبرينا عن الحقيقة كلها يا آنسة. لماذا كنت هناك؟

قالت بيلار: خرجت من غرفة الاستقبال بعد العشاء وفكرت في رؤية جدي. كنت أظن أنه سيكون سعيداً، ولكن عندما انعطفت إلى الممر رأيت شخصاً آخر عند باب غرفته. لم أرِدْ أن يراني لأني أعرف أن جدي قال إنه لا يريد رؤية أحد تلك الليلة، ولذلك قفزت

إلى الكوة الخشبية خشية أن يلتفت ذلك الشخص ويراني، ثم سمعت فجأة وفي وقت واحد الأصوات المخيفة؛ أصوات الطاولات والكراسي... كل شيء يسقط ويتحطم. لم أحرك ساكناً. لا أعرف لماذا... كنت خائفة. ثم سمعت صرخة رهيبة، وتوقف قلبي عن الخفقان وقلت في نفسي: لقد مات أحدهم!

- وبعدها؟

- بعد ذلك بدأ الناس يأتون راكضين في الممر، ثم خرجت في نهاية الأمر وانضممتُ إليهم.

قال ساغدين بحدة: لم تقولي شيئاً من هذا عندما استجوبناك لأول مرة. لماذا؟

هزت بيلار رأسها وقالت وقد بدت عليها سيماء الحكمة: ليس من المناسب قول كل شيء للشرطة. رأيت أنني لو قلت لكم إنني كنت قريبة من المكان فستظنون أنني أنا التي قتلته، ولذلك قلت إنني كنت في غرفتي.

قال ساغدين بحدة: إن كنت تتعمدين الكذب فإن الأمر سينتهي بوقوعك تحت الشبهات.

قال ستيفن فار: بيلار؟

- نعم؟

- مَن الذي رأيتِهِ يقف عند الباب عندما انعطفت إلى الممر؟

قال ساغدين: نعم، أخبرينا.

ترددت الفتاة بعض الوقت وفتحت عينيها ثم أغلقتهما. قالت ببطء: لا أعرف من هو. كانت الإضاءة خافتة لا تسمح بالرؤية، ولكنها كانت امرأة...

* * *

نظر الضابط ساغدين حوله إلى دائرة الوجوه، وقال بأقصى انفعالٍ ظهر منه حتى الآن: هذا أمر يخرج عن كل السياقات يا سيد بوارو.

قال بوارو: إنها فكرة صغيرة مني. أريد أن أتقاسم مع الجميع المعرفة التي اكتسبتها، ثم سأطلب منهم التعاون، وهكذا سنصل إلى الحقيقة.

تمتم ساغدين بصوت خافت: "يا للإزعاج!"، ثم استند بظهره إلى الكرسي.

قال بوارو: أولاً، أعتقد أنكم ستطلبون إيضاحاً من السيد فار.

زم ساغدين شفتيه وقال: لو كان الأمر لي لاخترت مكاناً أقل جمهوراً أذيع فيه أسرار الشرطة، ولكن لا بأس.

ثم سلم البرقية إلى ستيفن فار وقال: والآن يا سيد فار... كما تسمي نفسك، هل لك أن تشرح لنا هذه؟

أخذ ستيفن فار البرقية وقرأها ببطء وبصوت عالٍ وهو يرفع

حاجبيه، ثم أعادها إلى الضابط وانحنى له وقال: نعم، إنها فضيحة رهيبة، أليس كذلك؟

قال ساغدين: أهذا كل ما استطعت قوله بشأنها؟ أنت تدرك تماماً بأنك غير ملزم بالإدلاء بأية أقوال...

قاطعه ستيفن فار قائلاً: لا حاجة لأن تنبهني لحقوقي أيها الضابط. إنني أرى ذلك يتلجلج على لسانك! نعم، سأعطيكم توضيحاً، ربما لا يكون توضيحاً ممتازاً، ولكنه الحقيقة.

سكت قليلاً ثم شرع يقول: أنا لست ابن إيبنزر فار، لكنني كنت أعرف الوالد وابنه جيداً. والآن حاول أن تضع نفسك في مكاني (اسمي -بالمناسبة- هو ستيفن غرانت)، فقد جئت إلى هذا البلد لأول مرة في حياتي. وقد خاب أملي، إذ بدا لي كل شيء وكل شخص في هذا البلد كئيباً خالياً من الحياة. ثم كنت مسافراً في القطار ورأيت فتاة. عليّ أن أقولها صراحة: لقد أحببت هذه الفتاة؛ إنها أجمل وأغرب مخلوقة رأيتها في هذه الدنيا! تحدثت معها قليلاً في القطار وقررت أن لا أتركها تغيب عن ناظري، وعندما كنت أهم بمغادرة مقصورتي في القطار وقعت عيناي على الملصق المثبت على حقيبة سفرها. ولم يَعْنِ اسمها لي شيئاً، لكن الذي لفت انتباهي هو العنوان الذي كانت ذاهبة إليه. كنت قد سمعت عن منزل غورستون هول وأعرف كل شيء عن صاحبه؛ فقد كان ذات يوم شريك إيبنزر فار، وكان العجوز إيب كثيراً ما يتكلم عنه وعن شخصيته. وقد خطرت لي الفكرة بأن أذهب إلى غورستون هول وأتظاهر بأنني ابن إيب. وكان إيب قد مات -كما تقول البرقية- قبل سنتين، ولكني

تذكرته وهو يقول إنه لم يسمع عن أخبار سيميون منذ سنوات عديدة، ورأيت أن لي لم يكن ليعرف عن وفاة ابن إيب. على أية حال، فقد أحسست بأنها عملية جديرة بالمحاولة.

قال ساغدين: ومع ذلك لم تحاولها على الفور؛ فقد مكثت في فندق كينغز آرمز في أدلزفيلد مدة يومين.

قال ستيفن: كنت أفكر في الأمر... هل أجرب أم لا، وفي نهاية الأمر عزمت أمري على المحاولة. وقد أعجبتني الفكرة باعتبارها مغامرة، ونجحت أيما نجاح! فقد رحّب بي الرجل العجوز بحرارة وطلب مني -على الفور- المجيء والإقامة عنده، وقبلت دعوته. هذا هو توضيحي يا حضرة الضابط. وبالنسبة لاسمي الحقيقي فهو -كما قلتُ- ستيفن غرانت، ويمكنك أن ترسل برقية إلى جنوب أفريقيا وتتحقق من سجلي. لكني سأقول ما يلي: ستجدني مواطناً محترماً تماماً؛ لست بالمحتال أو بسارق جواهر.

قال بوارو بهدوء: أنا لم أعتبرك محتالاً على الإطلاق.

ربت الضابط ساغدين على ذقنه بحذر وقال: سوف أتحقق من هذا الأمر، ولكن الذي أريد معرفته هو لماذا لم تكن صريحاً بعد الجريمة بدلاً من الكذب علينا؟

قال ستيفن عاجزاً: لأني كنت مغفلاً وظننت أن بإمكاني الإفلات! اعتقدت بأنني سأثير الارتياب لو اعترفت بوجودي هنا تحت اسم مزيف. لو لم أكن غبياً تماماً لأدركت بأنكم سترسلون برقية إلى جوهانسبرغ.

قال ساغدين: حسناً يا سيد فار... غرانت... لا أقول إنني لا أصدقك. ستتحقق من صحة روايتك في أقرب وقت.

نظر إلى بوارو متسائلاً، فقال بوارو: أظن أن لدى الآنسة إيسترافادوس ما تقوله.

انقلبت بيلار شاحبة وقالت بصوت مختنق: هذا صحيح، وما كنت لأخبركم لولا ليديا والمال. لقد أحسستُ بالمتعة في قدومي إلى هنا وفي تظاهري وغشي وتمثيلي، ولكن عندما قالت ليديا إن المال لي وإنها مسألة عدالة أصبح الأمر مختلفاً... لم يعد الأمر تسلية.

قال ألفرد وقد بدت عليه الحيرة: أنا لا أفهم -يا عزيزتي- ما الذي تتحدثين عنه.

قالت بيلار: أنتم تعتقدون أنني ابنة أختكم، بيلار إيسترافادوس، أليس كذلك؟ ولكن الأمر ليس كذلك! لقد قُتِلَت بيلار عندما كنتُ مسافرة معها في سيارة في إسبانيا؛ أصابت قنبلةٌ السيارةَ فقُتلت على الفور، ولكن لم يصبني شيء. لم أكن أعرفها جيداً، لكنها كانت قد أخبرتني كل شيء عنها وكيف أن جدها قد أرسل يطلبها إلى إنكلترا وكيف أنه كان غنياً جداً. ولم تكن معي أية نقود على الإطلاق، ولم أعرف أين أذهب أو ماذا أفعل. فقلت لنفسي فجأة: لماذا لا آخذ جواز سفر بيلار وأذهب إلى إنكلترا وأصبح غنية جداً؟

أضاء وجه بيلار وقد علته ابتسامة عريضة مفاجئة، ثم أضافت تقول: كان من المثير التفكير في احتمالات النجاح والفشل. نعم، كانت تشبهني في الصورة، ولكن إلى حد ما فقط، ولذلك فعندما

طلبوا جواز سفري هنا فتحت النافذة وألقيته خارجها ونزلت مسرعة لآخذه ثم مسحت ببعض التراب على الصورة. إنهم -عند الحدود- لا ينظرون إلينا عن قرب، أما هنا فقد ينظرون...

قال ألفرد غاضباً: أتقصدين أنك قدمت نفسك إلى والدي على أنك حفيدته وتلاعبت بعواطفه تجاهك؟

أومأت بيلار برأسها بالإيجاب وقالت بشيء من الرضا عن الذات: نعم، أدركت -على الفور- بأنني أستطيع جعله يحبني كثيراً.

صاح جورج: محتالة، مجرمة! تحاولين الحصول على المال عن طريق الاحتيال.

قال هاري: إنها لم تأخذ منك شيئاً يا رجل! أنا معك يا بيلار، فأنا معجب جداً بجرأتك!

قالت بيلار تخاطب بوارو: أكنت تعرف؟ متى عرفت؟

ابتسم بوارو وقال: يا آنستي، لو كنتِ قد درستِ قوانين مندل بخصوص الصفات الوراثية لعرفت بأن زوجين لهما عيون زرقاء نادراً ما ينجبان طفلة بنية العينين. ولذا شككتُ بكونك بيلار إيسترافادوس، وعندما قمتِ بحركتك بخصوص جواز السفر تأكدتُ من ذلك تماماً. كان عملاً بارعاً لكنه لم يكن بارعاً بما فيه الكفاية.

قال ساغدين باستياء: العملية كلها ليست بارعة بما فيه الكفاية.

حدقت به بيلار وقالت: لا أفهم...

قال ساغدين: لقد رويتِ لنا قصة، ولكنني أحسب أنه يوجد الكثير مما لم تخبرينا به.

قال ستيفن: اتركها وشأنها!

لم يأبه ساغدين لكلامه، وأكمل يقول: قلتِ لنا إنك ذهبت إلى غرفة جدك بعد العشاء وإن ذلك كان فكرة مفاجئة خطرت لك، ولكنني سأفترض شيئاً آخر. أنت التي سرقت الألماسات! لقد أمسكتِ بها ذات مرة، وربما وضعتها في مكان خارج الخزنة في إحدى الفرص ولم يلاحظك الرجل العجوز وأنت تفعلين ذلك، وعندما وجد أنها قد فُقدت رأى -على الفور- أن شخصين يمكن أن يكونا قد أخذاها، أحدهما هوربري الذي ربما تمكن من معرفة الرقم السري للخزنة وتسلل إلى الغرفة وسرقها أثناء الليل، والشخص الآخر هو أنت. وقد قام السيد لي بإجراءاته على الفور. خابرني وطلب مني المجيء لرؤيته، ثم أرسل يطلب منك مقابلته بعد العشاء مباشرة. فذهبتِ إليه واتهمك بالسرقة، وأنكرتِ أنت الأمر وأصرَّ هو على التهمة. لا أعرف الذي حدث بعدها... ربما اهتدى إلى حقيقة أنك لست حفيدته بل مجرد لصة محترفة ذكية. انكشفت اللعبة على أية حال، ورأيت انكشافك قاب قوسين أو دون ذلك فهاجمته بسكين. وحدث بينكما صراع وأطلق الرجل صرخته، فوجدت نفسك في ورطة كبيرة. أسرعت إلى خارج الغرفة وأدرت المفتاح من الخارج، وعندما عرفت أنك لا تستطيعين الهروب قبل مجيء الآخرين انسللت إلى الكوة بجانب التمثالين.

صاحت بيلار بحدة: ليس صحيحاً! ليس صحيحاً! أنا لم أسرق الألماسات... أنا لم أقتله... أقسم على ذلك.

قال ساغدين بحدة: من قتله إذن؟ قلتِ إنك رأيت خيالاً يقف خارج باب غرفة السيد لي، وحسب زعمك يُفترض أن ذلك الشخص هو القاتل، إذ لم يمر أحد آخر من أمام الكوّة! ولكننا لا نملك دليلاً (إلاّ قولك أنت) على أن خيال شخص كان يقف هناك. بمعنى أنك لفقت ذلك لتبرئة نفسك!

قال جورج بحدة: إنها مذنبة بالطبع! لقد اتضح كل شيء بما فيه الكفاية. لقد قلتُ دائماً إن شخصاً من خارج البيت هو الذي قتل والدي، فمن السخف البالغ أن نفترض أن أحد أفراد عائلته يمكن أن يقوم بعمل هكذا؛ إذ سيكون ذلك أمراً... أمراً منافياً للطبيعة!

تململ بوارو في مقعده وقال: أنا أخالفك الرأي. إذا أخذنا بعين الاعتبار شخصية سيميون فإن من الطبيعي جداً أن يحدث مثل ذلك.

فغر جورج فاه وحدق في بوارو قائلاً: ماذا؟!

أكمل بوارو: وفي رأيي أن ذلك تماماً ما حدث. إن من قتل سيميون واحدٌ من لحمه ودمه، وذلك لسبب بدا للقاتل وجيهاً كافياً.

صاح جورج: واحد منا؟ أرفض...

قاطعه بوارو بصوتٍ أصلب من الفولاذ: توجد قضية يمكن

إثباتها على كل شخص هنا. سنبدأ -يا سيد جورج- بالقضية التي يمكن إثباتها عليك أنت. أنت لم تكن تحب والدك، وكنت تحافظ على علاقة طيبة معه من أجل المال فقط! وفي يوم وفاته هددك بتخفيض الراتب الذي تأخذه. كنت تعلم بأنك سترث مبلغاً كبيراً في حال وفاته... هذا هو الدافع. وبعد العشاء ذهبتَ -كما تقول- لتخابر بالهاتف. وقد خابرت فعلاً، ولكن المكالمة استمرت خمس دقائق فقط، وبعدها كان بوسعك الذهاب بسهولة إلى غرفة والدك ومجادلته ثم مهاجمته وقتله. بعد ذلك غادرتَ الغرفة وأغلقت المفتاح من الخارج لأنك كنت تأمل بأن تُعزا الجريمة إلى دافع السرقة، وقد فاتك -في غمرة الذعر- أن تتأكد من فتح النافذة على مصراعيها لتدعم فرضية السرقة. كان تصرفاً غبياً، ولكن أرجو أن تعذرني إن قلت إنك غبي!

سكت بوارو قليلاً، وحاول جورج الكلام فعجز عنه، فأكمل بوارو قائلاً: ومع ذلك فالكثير من الأغبياء كانوا مجرمين!

ثم التفت إلى ماغدالين وقال: هذه السيدة أيضاً لها دافع. أظن أنها غارقة في الديون، وربما أقلقتها بعض الملاحظات التي أبداها والدكم، وهي الأخرى ليس لديها دليل يثبت مكان وجودها لحظة وقوع الجريمة. ذهبتْ إلى الهاتف ولكنها لم تخابر، ولا نملك على ما فعلته بالضبط أي دليل سوى كلامها هي.

سكت قليلاً ثم تابع: ثم لدينا السيد ديفيد لي. لقد سمعنا -أكثر من مرة- عن النفسية الانتقامية واحتمال حمل الأحقاد في القلوب لسنوات، ذلك الطبع الذي يسري في دماء عائلة لي. لم ينسَ السيد

ديفيد ولم يغفر لأبيه الطريقةَ التي كان يعامل بها والدته، وربما كان استخفافه الأخير بالمرأة المتوفاة هو القشة التي قصمت ظهر البعير. وقد قيل إن ديفيد كان يعزف على البيانو وقت وقوع الجريمة، وكان يعزف -عن طريق الصدفة- اللحن الجنائزي. ولكن لنفترض أن شخصاً آخر هو الذي كان يعزف ذلك اللحن الجنائزي، شخصاً كان يعلم ما سيفعله ديفيد ويوافقه على ما فعله؟

قالت هيلدا بهدوء: هذا افتراض شائن.

التفت إليها بوارو وقال: سأقدم لك افتراضاً آخر يا سيدتي. إن يدك أنت هي التي نفذت الجريمة؛ أنت التي تسللت إلى الغرفة لتنفيذ الحكم برجلٍ اعتبرتِه أضلَّ من أن يُغفرَ له. أنت -يا سيدتي- من النساء اللاتي يكُنّ مخيفات عند الغضب.

قالت هيلدا: أنا لم أقتله.

قال الضابط ساغدين بسرعة: السيد بوارو على حق؛ يمكن إثبات قضية على كل واحد باستثناء السيد ألفرد وزوجته والسيد هاري.

قال بوارو بهدوء: ما كنت لأستثني حتى هؤلاء الثلاثة.

عارضه الضابط قائلاً: آه، هيا، كفاك يا سيد بوارو!

قالت ليديا: وما هي القضية ضدي يا سيد بوارو؟

ابتسمت قليلاً وهي تتكلم وقد ارتفع حاجباها سخرية، فقال بوارو وهو ينحني لها: سأتجاوز دافعك يا سيدتي؛ فهو واضح بما

فيه الكفاية. أما فيما عدا ذلك، فقد كنت ترتدين الليلة الماضية ثوباً موشحاً بالزهور، وهو مميز جداً مع دثار فوقه. أريد أن أذكّرك بحقيقة أن تريسليان يعاني من قصر النظر، فالأهداف البعيدة غير واضحة بالنسبة له. وسوف أشير أيضاً إلى أن غرفة استقبالكم كبيرة، وإضاءتها خافتة تماماً. في تلك الليلة، وقبل سماع الصرخات بدقيقة أو دقيقتين، دخل تريسليان إلى غرفة الاستقبال ليأخذ فناجين القهوة، وقد رآك -حسب ظنه- في موضعك المعتاد قريباً من النافذة البعيدة وأنت شبه مختفية وراء الستائر الثقيلة.

قالت ليديا: لقد رآني حقاً.

أكمل بوارو: أنا أفترضُ أن ما رآه تريسليان ربما كان الدثار الذي تضعينه فوق ملابسك، وقد تم ترتيبه بحيث يبدو -قرب الستارة- كما لو أنك تقفين هناك بنفسك.

قالت ليديا: ولكنني كنت أقف هناك فعلاً.

قال ألفرد: كيف تجرؤ على أن تفترض...؟

قاطعه هاري قائلاً: دعه يواصل يا ألفرد؛ سيأتي دورنا الآن. كيف تفترض أن العزيز ألفرد قتل والده المحبوب وقد كنا معاً في غرفة الطعام في ذلك الوقت؟

نظر إليه بوارو وقد أشرق وجهه وقال: هذا بسيط جداً. إن دليل الغياب عن مكان وقوع الجريمة يكتسب قوة ومصداقية أكبر عندما يؤكده أعداء المتهم، وقد كنت أنت وأخوك خصمين... هذا معروف جيداً؛ أنت تهزأ به أمام الناس وهو لا يقول لك كلمة طيبة!

ولكن لنفترض أن كل هذا جزء من مؤامرة مُحكمة وذكية. افترضْ أن ألفرد قد سئم من دور التابع الذليل لعجوز يصعب إرضاؤه. افترضْ أنك وهو التقيتما في فترة سابقة، وقد وضعتما خطتكما، حيث تجيء أنت إلى البيت، ويتظاهر ألفرد بأنه كاره لحضورك فيظهر لك الغيرة والكراهية وأنت تظهر له الاحتقار. ثم تأتي ليلة الجريمة التي خططتما لها تخطيطاً ذكياً. يبقى أحدكما في غرفة الطعام يتحدث، وربما يتشاجر بصوت مرتفع ليوحي بأن في الغرفة رجلين، أما الآخر فيصعد ويرتكب جريمته...

قفز ألفرد واقفاً وقال مغمغماً: أيها الشيطان!

كان ساغدين يحدق ببوارو، ثم قال: أتقصد حقاً أن...؟

قال بوارو وقد اكتسب صوته -فجأة- نبرة الثقة: كان عليّ أن أريكم الاحتمالات. هذه هي الأمور التي كان بالإمكان حدوثها، أما ما حدث فعلاً فهذا ما لا نستطيع معرفته إلاّ إذا انتقلنا من المظهر الخارجي إلى الحقيقة الداخلية...

سكت قليلاً ثم قال ببطء: علينا أن نعود -كما قلت من قبل- إلى شخصية سيميون لي نفسه.

سكت الجميع لحظات قليلة. والغريب أن السخط والحقد قد تلاشى، وقد أمسك بوارو بانتباه مستمعيه بسحر شخصيته. راقبوه وقد فُتنوا، فيما بدأ يتحدث ببطء: كل شيء يكمن هناك. الرجل القتيل هو مركز اللغز! يجب أن نغوص في أعماق عقل وقلب سيميون لي لنرى ماذا نجد هناك؛ لأن المرء لا يعيش ويموت لنفسه فقط، بل هو ينقل صفاته للّذين يأتون بعده.

ما الذي أورثه سيميون لي أبناءه وابنته؟ الغرور أولاً، وهو غرور تم إحباطه في حالة العجوز عندما خاب أمله في أولاده. ثم صفة الصبر. لقد قيل لنا إن سيميون لي انتظر صابراً لسنوات عديدة حتى ينتقم لنفسه من شخص سبب له الأذى. إننا نرى أن هذا الجانب من شخصيته قد ورثه عنه أقل أبنائه شبهاً به من حيث الشكل؛ إذ أن بوسع ديفيد أن يتذكر ويضمر الكراهية سنوات عديدة.

ولكن هاري كان الوحيد الذي يشبه والده في الوجه من بين أبنائه. إن ذلك الشبه مثير جداً للانتباه عندما تتفحص صورة سيميون لي في شبابه؛ فالاثنان لهما نفس الأنف المعقوف العالي وخطوط الفك الطويلة الحادة والرأس المرتد إلى الخلف، وأظن أن هاري قد ورث أيضاً كثيراً من سلوكيات وحركات والده... فعلى سبيل المثال عادته في إلقاء رأسه إلى الوراء والضحك، بالإضافة إلى عادة أخرى وهي تحريك إصبعه على أسفل فكه.

وبعد أن أخذت كل هذه الأمور بعين الاعتبار، ولأني اقتنعت بأن مَن ارتكب الجريمة قريب جداً من القتيل، قمت بدراسة أفراد العائلة سيكولوجياً. أي أنني حاولت أن أحدد مَن منهم يمكن أن يكون مجرماً محتملاً سيكولوجياً. وبرأيي فإن شخصين فقط هما المؤهلان في هذا المجال، وهما ألفرد وهيلدا زوجة ديفيد. أما ديفيد فقد استبعدته كمجرم محتمل؛ فلا أظن أن رجلاً ناعماً حساساً للتأثيرات مثله يمكن أن يصمد أمام رؤية حمام الدم الناتج عن عملية ذبح إنسان. كما أنني -بنفس الطريقة- استبعدت أن يكون جورج أو زوجته هما الجانيان؛ فلا أظن أن لديهما نفسية يمكن أن تدفعهما للمجازفة، بغضّ النظر عن رغباتهما، فالاثنان حذران بطبعهما. وقد

كنت واثقاً من أن زوجة ألفرد غير قادرة على القيام بعمل فيه عنف، ففي طبيعتها من السخرية ما لا يتفق مع جريمة كهذه. أما بخصوص هاري فقد ترددت. إن في سمته قدراً معيناً من القسوة الخشنة، ولكني كنت متأكداً تقريباً من أنه كان ضعيفاً في جوهره رغم كل برقه ورعده. وأنا أعرف الآن أن ذلك كان أيضاً رأيَ والده فيه؛ فقد قال العجوز إن هاري لم يكن يساوي أكثر من إخوته.

وهكذا بقي لديّ شخصان هما اللذان ذكرتهما، فألفرد كان شخصاً بالغ القدرة على إبداء إخلاص وتعلق شديدين. كان رجلاً ضبط نفسه وأخضعها لإرادة شخص آخر لسنوات عديدة، وفي ظل مثل هذه الظروف كان ممكناً دوماً أن يظهر شيء مفاجئ ما، فربما أضمر لوالده حقداً داخلياً سرياً نما واعتمل تدريجياً وازدادت قوته نتيجة كبته الطويل. إن أهدأ الناس وأكثرهم خنوعاً هم القادرون -في الغالب- على تحقيق أقوى أشكال العنف وأكثرها فجائية وإثارة للدهشة، والسبب في ذلك هو أن سيطرتهم عندما تنفلت فإنها تنفلت بشكل مطلق كامل! والشخص الآخر الذي اعتبرته قادراً على تنفيذ الجريمة هو هيلدا. إنها من تلك النوعية من الناس القادرة أحياناً على تطبيق القانون بيديها... رغم أنها لا تكون مدفوعة أبداً بدوافع الأنانية. إن مثل هؤلاء الناس يصدرون الأحكام وينفذونها أيضاً!

والآن، وبعد أن وصلت إلى هذا الحد، رحت أتفحص ظروف الجريمة نفسها. وأول ما يظهر ويفقأ عين المرء -كما يقال- هو الظروف الاستثنائية التي وقعت فيها الجريمة! عودوا بذاكرتكم إلى الوراء، إلى الغرفة التي قتل فيها سيميون لي. لعلكم تذكرون أن طاولة ثقيلة وكرسياً ثقيلاً كانا مقلوبين، مع تحطيم مصباح وآنية

فخارية وأكواب... إلخ. لكن الكرسي والطاولة هما اللذان يبعثان على الدهشة بشكل خاص؛ فهما من خشب الماهاغوني الثقيل، وقد كان من الصعب أن نفهم كيف يمكن لأي صراع بين ذلك الرجل العجوز الضعيف وخصمه أن يؤدي إلى قلب مثل هذا الأثاث الثقيل. بدا الأمر كله غيرَ حقيقي. ومع ذلك لا يمكن لأحد أن يقوم بتمثيل هذا المشهد لو أنه لم يحدث حقيقة... إلا إذا كان الشخص الذي قتل سيميون لي رجلاً قوي الجسم وكان هدفه من هذا المشهد الإيحاء بأن المعتدي امرأة أو شخص ضعيف الجسم.

لكن هذه الفكرة لم تكن مقنعة على الإطلاق لأن صوت الأثاث وهو يقع وينقلب سوف ينبه الآخرين، وبذلك لا يكون أمام القاتل إلاّ القليل جداً من الوقت للهروب، وبالتأكيد فإن من مصلحة القاتل -كائناً مَن كان- أن يذبح سيميون لي بهدوء قدر الإمكان.

كما توجد نقطة غريبة وهي إغلاق الباب بالمفتاح من الخارج. ومرة أخرى لا يبدو أن لهذا الإجراء سبباً، فلا يمكن أن يوحي ذلك بالانتحار، حيث لا يوجد في طريقة الموت نفسها ما يمكن أن يتوافق مع الانتحار. كما لم يهدف ذلك الإجراء إلى الإيحاء بأن الهروب قد تم من النوافذ، لأن النوافذ كانت مغلقة بطريقة تجعل الهروب مستحيلاً بهذه الطريقة! وفوق ذلك فإن هذا الإجراء قد انطوى -مرة أخرى- على إهدار الوقت... ذلك الوقت الذي ينبغي أن يكون ثميناً بالنسبة لمجرم!

وبقي شيءٌ آخر غيرُ مفهوم... قطعة من المطاط قُطعتْ من حقيبة سيميون لي ووتد خشبي صغير عرضهما عليّ الضابط

ساغدين، وقد التقطهما عن الأرض شخصٌ ممّن كانوا أول من دخل الغرفة. ومرة أخرى، لم يكن لهذين الشيئين معنى... لم يكن لهما معنى على الإطلاق! ولكنهما كانا على الأرض.

وهكذا ترون أن الجريمة أخذت تصبح عصية على الفهم أكثر فأكثر. ليس فيها نظام، ولا منهج... وبالتالي فهي غير معقولة.

ونأتي الآن إلى مشكلة أخرى مستعصية؛ فقد أرسل الضحية في طلب الضابط ساغدين وبلّغ بحدوث عملية سطو وطلب منه أن يعود بعد ساعة ونصف. لماذا؟ إذا كان السبب هو أن سيميون لي قد اشتبه بحفيدته أو بأحد أفراد العائلة الآخرين فلماذا لم يطلب من ساغدين الانتظار في الطابق الأرضي ريثما ينتهي من لقاء الشخص المشتبه به؟ فبوجود الضابط عملياً داخل البيت يمكنه أن يتكلم مع السارق من موقف أقوى بكثير.

إذن نصل الآن إلى نقطة ليس سلوك المجرم فيها هو الغريب فقط، بل سلوك سيميون أيضاً كان غريباً! وقلت في نفسي: "هذا الأمر كله خطأ في خطأ!" لماذا؟ لأننا ننظر إليه من الزاوية الخطأ. إننا ننظر إليه من الزاوية التي يريدنا القاتل أن ننظر إليه منها.

عندنا ثلاثة أمور ليس لها معنى: الصراع الذي وقع، وإقفال الباب، وقطعة المطاط. ولكن لا بد من وجود طريقة للنظر إلى هذه الأمور الثلاثة بحيث يصبح لها معنى! ولذلك أفرغت عقلي ونسيت كل شيء يتعلق بظروف الجريمة ونظرت إلى هذه الأمور الثلاثة وحدها دون ربطها بأية ظروف. قلت لنفسي: صراع. بماذا يوحي ذلك؟ بالعنف... بالتكسير... بالجلبة. والمفتاح؟ لماذا يُقفل أحدٌ

الباب بالمفتاح؟ حتى لا يدخل أحد؟ ولكن المفتاح لا يمنع ذلك، فقد كُسر الباب وفتح على الفور. لكي يُبقي شخصاً في الداخل؟ لكي يُبقي شخصاً في الخارج؟ وقطعة المطاط؟ قلت لنفسي: إن قطعة صغيرة من حقيبة مطاطية ما هي إلاّ قطعة صغيرة من حقيبة مطاطية ولا شيء غير ذلك!

ربما قلتم -إذن- إن ذلك كله لا يفضي إلى شيء. ولكن مثل هذا القول ليس صحيحاً تماماً، إذ تبقى ثلاث دلالات: الضجة (من قلب الأثاث)... والعزل (في الداخل أو الخارج عن طريق المفتاح)... والفراغ (أي خلو قطعة المطاط من أي معنى).

هل تتفق هذه الدلالات مع أي من الشخصين المحتملين اللذين ذكرتهما؟ لا، لا تتفق. فبالنسبة لكل من ألفرد وهيلدا لا شك أنهما كانا سيفضّلان جريمة قتل تتم بهدوء تام، كما أن إضاعة الوقت في قفل الباب من الخارج عمل سخيف، والقطعة الصغيرة من الحقيبة ليس لها مرة أخرى، أيّ معنى على الإطلاق!

ومع ذلك بقيت أشعر -بقوة- بأنه ليس في هذه الجريمة ما هو سخيف، بل على العكس، كل شيء خطط له بإحكام وتم تنفيذه بطريقة تثير الإعجاب، بحيث أنها جريمة نجحت فعلاً! ولذلك فإن كل شيء حدث كان مقصوداً.

وبعدها، ولدى استعراض القضية من جديد، لاح لي أول بصيص من الضوء: دماء... دماء كثيرة جداً. دماء في كل مكان. إصرار على الدماء. دماء طازجة رطبة لامعة... دماء كثيرة... دماء أكثر مما ينبغي! وجاءتني فكرة ثانية مع هذه: إنها جريمة دم... تسري

في الدم. إن دم سيميون لي نفسه هو الذي يثور عليه.

ثم مال هيركيول بوارو إلى الأمام وقال: إن أثمن مؤشرين في هذه القضية قالهما شخصان مختلفان على غير إدراك منهما. الأول كان عندما استشهدت زوجة ألفرد بعبارة مسرحية ماكبث: "**مَن كان يحسب أن في هذا العجوز كل هذه الدماء؟**"... أما الآخر فكانت عبارة قالها تريسليان. لقد وصف كيف شعر بغشاوة على عينيه وذاكرته وكيف بدا له أن الأمور تحدث مراراً أمامه. كان حادثاً بسيطاً جداً هو الذي ولّد عنده ذلك الشعور الغريب. لقد سمع دق الجرس على الباب وذهب ليفتح الباب لهاري لي، وفي اليوم التالي فعل نفس الشيء مع ستيفن فار.

لماذا انتابه ذلك الشعور؟ انظروا إلى هاري لي وستيفن فار وستعرفون لماذا. إنهما متشابهان إلى حد مذهل! لذلك كان فتح الباب لستيفن فار مثل فتح الباب لهاري لي، حتى ليكاد يكون من الممكن أن نفس الشخص هو الذي يقف هناك. وبعد ذلك يذكر تريسليان -اليوم فقط- بأنه كان يخلط دائماً بين الناس. لا عجب؛ فستيفن فار ذو أنف عال ومعقوف ومن عاداته إلقاء رأسه إلى الوراء عندما يضحك والربت على فكه بسبابته. انظروا بإمعان إلى صورة سيميون لي أيام شبابه، وعندها لن تروا هاري فقط وإنما ستيفن فار أيضاً!

تململ ستيفن فأصدر كرسيه صريراً، ومضى بوارو يقول: لعلكم تذكرون غضبة سيميون وتقريعه الطويل لأفراد عائلته، وتذكرون قوله إنه مستعد لأن يقسم بأن له أولاداً أفضل ولدوا في

الحرام. ها نحن أولاء نعود ثانية إلى شخصية سيميون لي؛ الرجل الذي كان ناجحاً في علاقاته الغرامية مع النساء والذي كسر قلب زوجته! والذي تباهى أمام بيلار بأنه ربما كانت له طائفة من الأبناء حوله من ذوي الأعمار المتقاربة! وهكذا توصلتُ إلى هذه النتيجة: لم تكن لسيميون لي عائلته الشرعية في البيت فقط، بل كان له ولد غير معروف وغير معترف به من لحمه ودمه.

وقف ستيفن على قدميه فقال له بوارو: كان ذلك هو السبب الحقيقي لمجيئك، أليس كذلك؟ وليس تلك القصة الغرامية مع الفتاة التي التقيتها في القطار! لقد كنت قادماً إلى هنا قبل أن تقابلها، كنت قادماً لترى أي نوع من الرجال كان والدك.

غدا ستيفن شاحباً تماماً وقال بصوت متقطع وأجش: نعم، لقد تساءلت دائماً. كانت والدتي تتحدث عنه في بعض الأحيان، وقد أصبح هاجسي أن أرى كيف هو، ولذلك جمعتُ مبلغاً من المال وجئت إلى إنكلترا. لم يكن في نيتي أن أطلعه على هويتي، فتظاهرت بأنني ابن العجوز إيب. لقد جئت إلى هنا لسبب واحد فقط؛ لأرى الرجل الذي كان والدي.

قال ساغدين هامساً: يا إلهي! لقد كنت أعمى... لقد فهمت الأمر الآن؛ ففي مناسبتين اثنتين خلطت بينك وبين هاري، حيث كنت أظنك هو ثم أعود فأدرك خطئي، ومع ذلك لم أخمّن الحقيقة أبداً!

ثم التفت إلى بيلار وقال: ذلك هو الشخص، أليس كذلك؟ كان ستيفن هو من رأيتِه خارج الباب، أليس كذلك؟ أذكرُ أنك

ترددت ونظرت إليه قبل أن تقولي إنها كانت امرأة. لقد رأيتِ ستيفن، ولم تريدي أن تفضحيه.

صدرت همهمة خفيفة، ثم تكلمت هيلدا بصوتها العميق قائلة: كلا، أنت مخطئ؛ أنا التي رأتني بيلار.

قال بوارو: أنت يا سيدتي؟ نعم، هذا ما ظننتُه.

قالت هيلدا بهدوء: إن غريزة المحافظة على النفس شيء غريب. ما كنت أحسبني بمثل هذا الجبن، أعني أن ألزم الصمت لمجرد أنني خائفة!

قال بوارو: هل ستخبريننا الآن؟

أومأت برأسها وقالت: كنت مع ديفيد في غرفة الموسيقى، وكان يعزف، وكان في مزاج غريب جداً. أحسست بالخوف قليلاً وشعرت بمسؤوليتي بشكل حادّ فعلاً لأنني أنا التي أصررت عليه للمجيء إلى هنا. لقد بدأ ديفيد يعزف اللحن الجنائزي، وفجأة حزمت أمري وقررت أن نغادر المنزل نحن الاثنين على الفور في تلك الليلة بغض النظر عن غرابة هذا الإجراء، فخرجت من غرفة الموسيقى بهدوء وارتقيت الدرج. أردت الذهاب إلى السيد لي وإخباره بصراحة عن سبب ذهابنا، فسِرتُ في الممر باتجاه غرفته وطرقت على الباب. لم أسمع إجابة، وطرقت مرة أخرى بصوت أعلى قليلاً، ومرة أخرى لم أسمع إجابة. ثم أدرت مقبض الباب، فوجدته مقفلاً بالمفتاح. وعندها، وفيما أنا مترددة سمعتُ صوتاً داخل الغرفة...

سكتت قليلاً ثم قالت: لن تصدقوني، ولكنها الحقيقة! كان في الداخل شخص ما... يهاجم السيد لي. سمعت أصوات طاولات ومقاعد وهي تُقلَب، وسمعت أصوات تحطم كؤوس وآنية صينية، ثم أخيراً سمعت تلك الصرخة المخيفة التي خمدت وتلاشت... ثم ساد الصمت. وقفتُ هناك مشلولة، لم أستطع الحراك! ثم جاء السيد فار راكضاً وماغدالين وبقية الآخرين، وبدأ السيد فار وهاري يحاولان خلع الباب. وسقط الباب ورأينا الغرفة، **ولم يكن بها أحد...** ما عدا السيد لي ممدداً على الأرض يسبح في الدماء.

ارتفع صوتها الهادئ وصاحت: **لم يكن في الغرفة أحد آخر... لا أحد، أتفهمونني! كما أن أحداً لم يخرج من الغرفة.**

* * *

سحب ساغدين نفساً عميقاً وقال: إما أنني جننت أو أن الآخرين كلهم مجانين! إن ما قلتِه -يا سيدة لي- مستحيل تماماً... إنه جنون.

صاحت هيلدا: قلتُ لك إنني سمعتهما يتقاتلان في الداخل وسمعت صرخة الرجل العجوز عندما ذبح... ولم يخرج أحد، ولم يكن في الغرفة أحد!

قال هيركيول بوارو: ومع ذلك لزمتِ الصمت طوال الوقت.

غدا وجه هيلدا شاحباً، ولكنها قالت بثبات: نعم، لأنني لو قلت لكم ما حدث فلن تقولوا أو تظنوا إلاّ أمراً واحداً، وهو أنني أنا التي قتلته.

هز بوارو رأسه وقال: لا، أنت لم تقتليه؛ ابنه هو الذي قتله.

قال ستيفن: أقسم بالله أنني لم ألمسه أبداً.

قال بوارو: ليس أنت. إن له أولاداً آخرين!

قال هاري: ما الذي...

حدق جورج، وغطى ديفيد عينيه بيده، وطرفت عينا ألفرد مرتين.

قال بوارو: في الليلة الأولى التي جئت فيها إلى هنا، ليلة الجريمة، رأيت شبحاً... وكان شبح القتيل! هذا ما كان يمكن أن يخطر ببالي حين رأيت هاري لي أول مرة، فقد تحيرت وأحسست بأنني رأيته من قبل، ثم تفحصت ملامحه وأدركت كم يشبه والده، وقلت في نفسي إن هذا هو ما جعلني أشعر بأنه وجه مألوف لدي.

ولكن بالأمس ألقى رجل كان يجلس أمامي برأسه إلى الخلف وضحك... **وعرفت الشخص الذي ذكّرني به هاري لي**. ومرة أخرى رأيت ملامح القتيل في وجه آخر.

لا عجب أن تريسليان العجوز المسكين قد اختلط عليه الأمر عندما فتح الباب... ليس لرجلين، وإنما لثلاثة رجال يشبه بعضهم بعضاً كثيراً. لا عجب أن يعترف بأنه أصبح يخلط بين الناس في وقت شهد ثلاثة رجال في البيت يشبه بعضهم بعضاً إلى حد يمكن للمرء معه أن يخلط بينهم! نفس الجسم، ونفس الحركات (حركة واحدة على وجه الخصوص؛ وهي الرَّبتُ على الفك)، ونفس العادة في الضحك والرأس إلى الوراء، ونفس الأنف العالي والمميز. ومع

ذلك لم يكن من السهولة ملاحظة الشبه دائماً... **لأن الرجل الثالث كان ذا شارب!**

مال بجسده إلى الأمام وقال: ينسى المرء -أحياناً- بأن ضباط الشرطة رجال، وأن لديهم زوجاتٍ وأطفالاً وأمهات.

سكت قليلاً ثم قال: وآباء... أتذكرون سمعة سيميون لي بين أهل المنطقة: كان رجلاً كسر قلب زوجته بسبب علاقاته مع النساء. إن بإمكان ولدٍ أنجبه سيميون لي بالحرام أن يرث أشياء كثيرة. قد يرث ملامح أبيه، وربما حركاته أيضاً. وقد يرث كبرياءه وصبره وروحه الانتقامية!

ارتفع صوته وهو يقول: كنت طوال حياتك -يا ساغدين- ساخطاً من ظلم أبيك لك، وأظن أنك قررت قتله منذ وقت طويل. أنت من أهل المقاطعة الغربية، وهي ليست بعيدة من هنا. لا شك أن والدتك كانت قادرة -بما أعطاها سيميون لي من مال- على أن تجد زوجاً يكون أباً لطفلها. وكان من السهل عليك أن تدخل سلك شرطة ميدلشير وتنتظر فرصتك. إن لضابط الشرطة فرصة كبيرة في ارتكاب جريمة قتل والإفلات من العقوبة.

أصبح وجه ساغدين أبيض كالورقة وقال: أنت مجنون! كنتُ خارج البيت عندما قتل.

هز بوارو رأسه بالنفي وقال: كلا. لقد قتلتَه قبل مغادرتك البيت أول مرة. لم يشاهده أحد على قيد الحياة بعد مغادرتك. كان الأمر كله سهلاً جداً لك؛ فسيميون لي كان يتوقع حضورك، نعم. ولكنه لم يرسل في طلبك أبداً. أنت الذي اتصلت به وتحدثت حديثاً غامضاً

عن محاولة للسرقة. قلت له إنك ستزوره قبل الثامنة وتتظاهر بأنك تجمع تبرعات للشرطة، ولم تراوده أي شكوك إذ لم يكن يعرف أنك ابنه. أنت جئت وحدثته عن قصة الألماسات المستبدَلة، ففتح الخزينة ليريك بأن الألماسات الحقيقية كانت آمنة في حوزته. ثم اعتذرت له وعدت معه إلى أمام الموقد، حيث أخذته على حين غرة وذبحته من حنجرته وأنت تضع يدك على فمه حتى لا يصرخ. كانت عبارة عن لعبة بالنسبة لرجل في مثل قوتك الجسمية.

ثم قمتَ بإعداد المشهد. أخذت الألماسات، وكوّمت الطاولة والكرسي والمصابيح بعضها فوق بعض، ثم جدلت حبلاً أو سلكاً رفيعاً جداً (كنت قد أحضرته معك) وأدخلته ثنايا الأثاث الذي كوّمته، وأحضرت معك أيضاً بعضاً من دماء حيوان مقتول حديثاً أضفت إليه سترات الصوديوم حتى لا يتخثر. ثم رششت الدماء حول المكان قريباً من الجثة وأضفت مزيداً من سترات الصوديوم إلى بركة الدم الذي نزف من جرح سيميون لي، ثم أذكيت نار الموقد حتى تبقى الجثة ساخنة. ثم أخرجت طرفَيْ الحبل إلى خارج النافذة من خلال الفتحة الضيقة في أسفلها وتركتهما يتدليان على الحائط، ثم غادرت الغرفة وأغلقت الباب بالمفتاح من الخارج. كان ذلك ضرورياً جداً إذ لم تُرِدْ لأحد أن يدخل تلك الغرفة تحت أي ظرف.

ثم خرجتَ وأخفيت الألماسات في الحوض الحجري، وإذا ما تم اكتشافها عاجلاً أو آجلاً فليس من شأن ذلك إلاّ أن يلقي بالشبهات إلى حيث كنت تريد: على أفراد عائلة سيميون الشرعيين. وقبل التاسعة والربع بقليل عُدتَ وذهبت باتجاه الجدار عند أسفل النافذة، ثم سحبت الحبل بقوة، مما قلب كومة الأثاث والأواني التي كوّمتها

بعضها على بعض بحذر وعناية. هوى الأثاث وتساقطت الأواني الصينية وتحطمت، ثم سحبتَ أحد طرفي الحبل حتى أخرجته كاملاً ولففته حول جسدك تحت سترتك لإخفائه. وقد كانت لديك أيضاً لعبة أخرى!

التفت بوارو إلى الآخرين وقال: هل تذكرون جميعاً كيف أن كل واحد منكم قد وصف صرخة السيد لي وهو يحتضر بطريقة مختلفة؟ أنت -يا سيد ألفرد- وصفتَها بأنها صرخة رجل يعاني سكرات الموت، وزوجتك وديفيد كلاهما استخدما عبارة: "روح في جهنم"، أما زوجة ديفيد فعلى العكس حيث قالت إنها صرخة رجل لا روح له، وقالت إنها كانت غير إنسانية كصرخة الوحوش. كان هاري هو الأقرب إلى الحقيقة في وصفها، فقد قال إنها أشبه بقتل خنزير.

هل تذكرون أكياس الهواء الطويلة المطاطية التي تُنفخ وتباع في المعارض وقد رُسمت عليها وجوه وتسمى «الخنازير المحتضرة»؟ عندما يخرج الهواء منها بقوة يصدر منها صوت عويل حيواني. كانت تلك -يا ساغدين- لمستك النهائية؛ وضعتَ واحداً من هذه البالونات في الغرفة وسددتَ فمه بوتدٍ خشبي صغير، ولكن ذلك الوتد كان مربوطاً بالحبل، وعندما سحبت الحبل فلتَ الوتد وخرج الهواء من البالون المنفوخ. وهكذا انطلقت صرخة «الخنزير المحتضر» عقب وقوع الأثاث والآنية.

ثم التفت مرة أخرى إلى الآخرين وقال: هل عرفتم الآن الشيء الذي التقطته بيلار عن الأرض؟ كان الضابط يأمل بأن يصل إلى

هناك في وقت مبكر يتيح له أخذ قطعة المطاط الصغيرة تلك قبل أن يلحظها أحد، ومع ذلك فقد أخذها من بيلار بسرعة وبأسلوب رسمي تماماً باعتباره من الشرطة. **ولكن تذكَّروا بأنه لم يذكر هذا الحادث لأحدٍ أبداً**، وكانت تلك -ذاتها- حقيقة تثير الشبهة. وقد سمعتها من ماغدالين وسألته عنها فوجدته مستعداً لهذا الموقف، كان قد قطع قطعة من المطاط من حقيبة السيد لي وأعطاني إياها مع الملقط الخشبي. ومن الناحية الظاهرية كانت تتوافق مع نفس الوصف... قطعة من المطاط وقطعة من الخشب. وقد أدركتُ -في ذلك الوقت- أن هذين الشيئين لا يعنيان شيئاً على الإطلاق! ولكنني -بالغفلة التي كنت عليها- لم أقل لنفسي فوراً: "هذا لا يعني شيئاً، وبالتالي لا يمكن أن يكون في الغرفة، **ولذلك فإن الضابط ساغدين يكذب**". لا، بل رحت -بحماقة- أواصلُ البحث عن تفسير لها، ولم أعرف الحقيقة إلاّ عندما كانت بيلار تلعب بذلك البالون الذي انفجر وصاحت بأن ما التقطَتْهُ عن الأرض من غرفة سيميون لي كان -دون شك- بالوناً منفجراً.

أترون الآن كيف انتظمت الحقائق في مكانها الصحيح؟ الصراع غير الممكن **الذي كان ضرورياً من أجل تحديد وقت وهمي للوفاة**، الباب المقفول... حتى لا يكتشف أحدٌ الجثة قبل الأوان، وصرخة الرجل وهو يموت. الجريمة الآن منطقية ومعقولة.

ولكن منذ اللحظة التي صاحت فيها بيلار باكتشافها أمرَ البالون أصبحَتْ مصدرَ خطر على القاتل، ولو أنه سمع تلك الملاحظة منها وهو داخل البيت (وهو أمر محتمل؛ لأن صوتها كان عالياً وواضحاً وكانت النوافذ مفتوحة) لكانت هي في خطر عظيم. وقد سبق لها

-أصلاً- أن أوقعت القاتل في حرج عظيم؛ فقد قالت وهي تتحدث عن سيميون لي: "لا بد أنه كان وسيماً جداً عندما كان شاباً"، ثم أضافت وهي تخاطب ساغدين مباشرة: "مثلك". كانت تعني ذلك حرفياً وعرف ساغدين ذلك، فلا عجب أن احمرَّ وجهه وكاد يبتلع لسانه. كانت تلك عبارة مفاجئة جداً وخطيرة جداً. وقد سعى -بعد ذلك- إلى إثبات الجرم عليها، ولكن تبين أن ذلك كان صعباً بشكل غير متوقع لأنها لا تملك دافعاً للجريمة باعتبارها الحفيدة التي لا نصيب لها في التركة. وبعد ذلك، عندما سمعها من البيت وهي تصرخ بصوت عالٍ وواضح بملاحظتها حول البالون، قرر اللجوء إلى إجراء يائس. نصب «فخ المغفلين» ذاك عندما كنا نتناول الغداء، ولحسن الحظ فشلت خطته بمعجزة.

خيم سكون ثقيل، ثم قال ساغدين بهدوء: متى تأكدت من ذلك؟

قال بوارو: لم أكن متأكداً تماماً إلى أن أحضرتُ إلى البيت شارباً مستعاراً ووضعته على صورة سيميون لي. عندها رأيتُ أن الوجه أمامي كان وجهك.

قال ساغدين: فلتُحرَق روحه في جهنم... إنني سعيد لقتله!

* * *

الفصل السابع

الثامن والعشرون من كانون الأول

قالت ليديا: أعتقد أن الأفضل لكِ -يا بيلار- أن تقيمي معنا إلى أن نرتب لك شيئاً محدداً.

قالت بيلار خانعة: أنت طيبة جداً يا ليديا، إنك لطيفة وتسامحين الناس بسرعة دون أن تتبجحي بذلك.

قالت ليديا مبتسمة: ما زلت أناديك بيلار، مع أنني أحب أن أسميك باسمك.

- نعم، إن اسمي الحقيقي هو كونشيتا لوبيز.

-كونشيتا اسم جميل أيضاً.

- إنك لطيفة للغاية يا ليديا، ولكن لا حاجة لأن تقلقي عليّ. سوف أتزوج ستيفن وسنذهب إلى جنوب أفريقيا.

قالت ليديا مبتسمة: حسناً، هذا يضع نهاية سعيدة للأمور.

قالت بيلار بشيء من الرجاء: بما أنك طيبة جداً يا ليديا، فهل

ترين أن بإمكاننا -يوماً ما- العودة لزيارتكم... لقضاء عيد ميلاد مثلاً؟

بالتأكيد، ستأتين إلى هنا لتحضري عيداً إنكليزياً حقيقياً.

- سيكون ذلك رائعاً. لقد شعرتُ بأن عيد هذا العام لم يكن جيداً أبداً.

حبست ليديا أنفاسها وقالت: نعم، لم يكن عيداً جيداً أبداً.

* * *

قال هاري: وداعاً يا ألفرد. لا أحسبني سأزعجك برؤيتي كثيراً؛ فأنا مسافر إلى هاواي. لطالما تمنيتُ العيش هناك لو توفر لي المال.

قال ألفرد: وداعاً يا هاري. أظن أنك ستستمتع... أرجو ذلك.

قال هاري مداعباً: آسفٌ لأني أزعجتُك كثيراً يا أخي. إن لديّ روح دعابة سيئة لا أملك إلاّ مناكفة الناس بها.

قال ألفرد بشيء من الجهد: أظن أن عليّ أن أتعلم تحمل المزاح.

قال هاري بارتياح: إذن وداعاً.

* * *

قال ألفرد: لقد قررنا أنا وليديا -يا ديفيد- أن نبيع البيت، وقد تساءلتُ إن كنتَ تريد شيئاً من أغراض والدتنا... كرسيها ومسند

القدمين مثلاً؟ لقد كنتَ ابنها المفضل على الدوام.

تردد ديفيد قليلاً ثم قال ببطء: أشكرك على هذه اللفتة يا ألفرد، ولكن... أتدري؟ لا أظنني أريد ذلك. لا أريد أخذ شيء من هذا البيت. أشعر أن من الأفضل نسيان الماضي تماماً.

قال ألفرد: نعم، إنني أفهمك. ربما كنتَ على حق.

* * *

قال جورج: وداعاً يا ألفرد، وداعاً يا ليديا. لقد عشنا أوقاتاً عصيبة، والمحاكمة قادمة أيضاً. أعتقد أن القصة المخزية كلها ستنتشر، وهي أن ساغدين... ابنٌ لأبينا. أترون أن بإمكاننا إقناعه أن يدّعي أمام المحكمة بأنه يؤمن بأفكار شيوعية متزمتة وأنه كره أبي لأنه كان رأسمالياً... أيمكن إقناعه بشيء من هذا القبيل؟

قالت ليديا: يا عزيزي جورج! أتتخيل حقاً أن رجلاً مثل ساغدين يمكن أن يكذب لمجرد ترضية خواطرنا نحن؟

قال جورج: ربما لا. فهمت ما تقصدينه. ومع ذلك، لا بد أن الرجل مجنون. وداعاً مرة أخرى.

قالت ماغدالين: وداعاً. دعونا جميعاً نذهب السنة القادمة إلى الريفيرا أو مكان آخر لقضاء عيد ميلاد بهيج حقاً.

قال جورج: هذا يعتمد على أسعار صرف العملات.

ردت عليه ماغدالين: لا تكن بخيلاً يا عزيزي.

* * *

خرج ألفرد إلى المصطبة. كانت ليديا منكبة على أحد الأحواض الحجرية، وعندما انتصبت واقفة قال وهو يتنهد: ها قد رحلوا جميعاً.

قالت ليديا: نعم، وتلك نعمة كبرى.

قال ألفرد: "إنها كذلك نوعاً ما". ثم أضاف: ستكونين سعيدة إذا غادرت هذا المكان.

سألته: هل سيحزنك هذا كثيراً؟

- لا، بل سأكون مسروراً. يوجد الكثير من الأشياء المثيرة التي يمكن أن نقوم بها معاً. إن المضي في العيش هنا سيذكّرنا بذلك الكابوس باستمرار. الحمد لله أنه قد انتهى!

قالت ليديا: والشكر -بعد ذلك- لهيركيول بوارو.

- نعم. كانت مدهشةً الطريقة التي انتظمت بها الحقائق المختلفة عندما شرح الأمر لنا.

- نعم؛ إنها أشبه بتلك اللعبة التي يُعطى فيها المرء منظراً تم تقطيعه إلى أجزاء صغيرة عليه إعادة تشكيلها، وعندما يفرغ منها يرى أن تلك المقاطع الغريبة التي رأى جازماً أنها لن تجد للّوحة طريقاً قد انتظمت في أماكنها بالشكل الصحيح.

قال ألفرد: بقي شيء صغير لم ينتظم أبداً في اللوحة. ماذا كان يفعل جورج بعد أن اتصل هاتفياً؟ لماذا لم يقل؟

- ألا تعرف؟ أنا عرفت منذ البداية؛ لقد كان يقلّب أوراقك على مكتبك.

- آه، لا يا ليديا، لا يمكن لأحد أن يفعل شيئاً كهذا!

- جورج يمكنه ذلك. إنه فضولي جداً فيما يتعلق بالأمور المالية، ولكنه لم يستطع قول ذلك بالطبع. ما كان ليعترف بهذه الفَعلة إلاّ إذا رأى نفسه فعلاً في قفص الاتهام.

قال ألفرد: هل تعملين حديقة أخرى؟

- نعم.

- وما هي هذه المرة؟

- أظنها ستكون فردوساً خيالياً لا مكان للشر فيه ولا للأحقاد.

قال ألفرد: يا غاليتي ليديا! كم كنتِ صبورة طوال هذه السنين... كنت طيبة جداً معي.

- ألم تعلم أنني أحبك يا ألفرد؟

* * *

قال الكولونيل جونسُن: يا إلهي! هذا والله عجب عجاب. يا إلهي!

استند إلى ظهر كرسيه ونظر إلى بوارو نظرة إمعان، ثم قال حزيناً: لقد كان أفضل رجالنا. إلى أين يسير سلك الشرطة؟

قال بوارو: حتى رجال الشرطة لهم حياتهم الخاصة! كان ساغدين رجلاً شديد الكبرياء.

هز الكولونيل رأسه أسفاً، وفي محاولة للتنفيس عن مشاعره رفس قطع الخشب في الموقد وقال: لطالما قلتُ إن نار المواقد لا مثيل لها.

أما بوارو (الذي كان يحس بالهواء البارد يلفح عنقه) فقد فكر في نفسه قائلاً: أما أنا فليس عندي ما يضاهي التدفئة المركزية.

* * *

The End

دعواتكم لي بالتوفيق

Chassey